الجـــزء الثانى

بلد يمكن أن يصنع نفسه كما يحلو له

الرجال يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم؛ إنهم لا يصنعونه فى ظل ظروف من اختيارهم، لكن فى ظل ظروف تواجههم جاءت مباشرة من الماضى.

كارل ماركس

١٨ برومير(*) لويس بوناپارت، ١٨٥٢

(*) ١٨ برومير: شهر برومير هو الشهر الثانى وفقًا لتقويم الجمهورية الفرنسية، ويبدأ ما بين ٢٢ و٢٤ أكتوبر وينتهى فيما بين ٢٠ و٢٢ نوفمبر، أما تعبير ١٨ برومير فى السياق التاريخى والسياسى فيعنى الانقلاب الذى قاده الجنرال ناپوليون بوناپارت وأطاح فيه بحكومة الإدارة، وأقام حكومة القنصلية. وهى هنا تأتى فى سياق انقلاب ابن أخ ناپوليون، وهو الإمبراطور لويس بوناپارت عام ١٨٥٢.

انتقال:

الثـورة الأمريكيـة

تمتع البلد الذى أعلن استقلاله فى الرابع من يوليو ١٧٧٦م، بالكثير من المزايا فى صراعه العسكرى مع بريطانيا. لم تكن الموارد المالية من بين هذه المزايا.

كانت الولايات المتحدة تحارب على أرضها وتستطيع الرد بسرعة. كان يتعين على بريطانيا أن تحارب من على مسافة تبعد ثلاثة آلاف ميل وتأخير فى زمن الاتصال بما لا يقل عن ثلاثة أشهر وربما أربعة. كان القادة العسكريون والسياسيون الأمريكيون لديهم ألفة حميمة بهذه الأرض؛ كان نظراؤهم البريطانيون عادة ما يتسمون بالجهل العميق فى هذا المجال. ويأتى على رأس ذلك كله، أن الولايات المتحدة عليها أن تتفادى خسارة الحرب حتى تنهك الحكومة والشعب البريطانى بما فيه الكفاية من الصراع وتكاليفه المتصاعدة. وكان على بريطانيا أن تهزم وتجبر بلدًا مترامى الأطراف يغمره التمرد بأن يذعن للسلام.

لكن موارد بريطانيا المالية كانت بلا حدود؛ ولم يكن لدى الأمريكيين أى من الموارد. وبسبب هذه الموارد، كان بإمكان بريطانيا نشر أضخم وأفضل سلاح بحرى فى العالم (بالرغم من أنه ترك ليتدهور منذ انتهاء حرب السنوات السبع). لم يكن هناك أفضل من الجيش البريطانى تدريبًا وتسليحًا، ويمكن تعزيزه بسهولة عن طريق استئجار قوات أجنبية. كان على الأمريكيين أن ينبشوا بأظفارهم معًا لتجميع ما يستطيعون من قوات، مستخدمين مليشيات الولايات، والأفراد، وسفن القرصنة[1] لتكوين جيش وبحرية القارة.

(١) سفن القرصنة: سفن مسلحة يملكها أفراد تكلفهم الحكومة بمهام فى الحرب

كان عليهم أيضا أن ينبشوا بأظفارهم معًا بحثًا عن وسائل لدفع تكاليف الحرب. لم يكن هذا يسيرًا، بخاصة فى ظل عدم وجود حكومة قومية بالمعنى الحرفى. ولم يكن لدى المستعمرات الثلاثة عشرة، التى ما كادت تلقى بالسيطرة البريطانية، استعداد للتنازل عن سيادتها التى اكتسبتها حديثًا لصالح حكومة مركزية. ولم يملك كونجرس القارة الثانى[1] أى سلطة لفرض الضرائب. بدلا من هذا، تعين عليه أن يقدر احتياجاته من الإيرادات ثم يدعو الولايات لتوفير الأموال. واستجاب القليل من الولايات، حيث إن كلاً منها كان مشغولا بتدبير مجهوده الحربى الذاتى، وشكلت الضرائب نسبة ٦ ٪ فقط من إجمالى الإيرادات.

كان يتعين تدبير الباقى من الاقتراض، وقد يسره البعض من الأمريكيين الأثرياء الملتزمين بالقضية، لكن معظمه جاء من فرنسا وهولندا، اللتين كانتا مهتمتين إلى حد كبير بالطبع بإذلال بريطانيا أكثر من مساعدة الأمريكيين. كما أمدوا الأمريكيين، إلى جانب المال، بنحو ٦٠ ٪ من البارود الذى استخدمته القوات الأمريكية، وفعلوا الشىء نفسه بالنسبة للملابس العسكرية والأسلحة النارية. حتى البريطانيون، دون أن يدروا، وفروا الكثير من العتاد العسكرى للقوات الأمريكية، فخلال مسار الحرب، استولت سفن القرصنة الأمريكية على نحو ألفى قطعة بحرية بريطانية تبلغ قيمتها، سويا مع شحناتها، حوالى ١٨ مليون جنيه إسترلينى.

وباستثناء الاقتراض، كان مصدر الإيراد الوحيد هو المطبعة. أصدر كونجرس القارة الثانى سندات اعتماد قابلة للتداول أطلقوا عليها اسم«الكونتنتال». وبنهاية عام ١٧٧٩م، كان الكونجرس قد أصدر سندات بقيمة اسمية لا تقل عن ٢٢٥ مليون دولار، وهو مبلغ ضخم بالنسبة إلى حجم الاقتصاد الأمريكى فى ذلك الوقت. وأدى هذا التزايد المتسارع فى كم المال المعروض (والذى تفاقم إثر إصدار الولايات والمقاطعات سندات مشابهة) حتمًا إلى تضخم هائل. وتضاعفت الأسعار فى عام ١٧٧٦م، وتضاعفت مرة أخرى فى العام التالى والذى يليه. ومن مطلع عام ١٧٧٩م

(١) كونجرس القارة الأول والثانى: هو جهاز عينت المجالس التشريعية للولايات الاثنتا عشر ثم الثلاثة عشر أعضاءه.

حتى مطلع عام ١٧٨١م ارتفعت الأسعار تقريبًا عشرة أمثال. وحاول الكونجرس كبح التهاوى عن طريق إعادة تقييم سعر تداول الكونتنتال بـ ٥ , ٢٪ من قيمته الإسمية. فتهاوت قيمته إلى الصفر تقريبًا. وستصبح عبارة «لا يساوى كونتنتال»جزءًا من القاموس الأمريكى لمدة تزيد على مائة عام.

لم يكن لدى الكثير من المزارعين خيار إلا قبول شهادات [مستندات] الضابط المسئول عن الإمدادات والتموين ومطاعم التموين بالجيش ـ التى تم تداولها مثل النقود ـ بأى قيمة يضعها ضباط المصادرة فى الوقت الذى كانوا يشترون فيه قسرًا الإمدادات. ولحسن الحظ، فإن البريطانيين تصرفوا فى بعض الأحيان حتى بشكل أكثر تعسفًا، فاستولوا على الماشية والحبوب كغنائم حرب.

ولأن كونجرس القارة لم يكن لديه خبرة سابقة فى إدارة بيروقراطية ضخمة (كان قسم ضباط الإمدادات والتموين فى الكونجرس يضم ثلاثة آلاف موظف فى وقت من الأوقات) فسادت الفوضى والفساد وإنعدام الكفاءة. وعندما تولى روبرت موريس، وهو تاجر ناجح جدًا فى فيلادلفيا، الأمر فى عام ١٧٨١م بدأ يسود نوع يشبه النظام فى مشتروات الحكومة ومواردها المالية.

كان أهم شىء نجح فيه موريس هو قدرته على أن يرتب تمويلاً سمح لواشنطن بنقل الجيش القارى من نيويورك إلى يوركتاون فى ڤيرجينيا. هناك، ومع إغلاق الأسطول الفرنسى لمدخل خليج تشيزاپيك، ليقطع الإمدادات، أجبر اللورد كورنووليس على استسلام الجزء الأساسى من الجيش البريطانى فى أمريكا الشمالية.

إذا كان مقدرًا للمجهود الحربى البريطانى أن يستمر، كانت لندن ستضطر إلى تكوين وتزويد ونقل جيش جديد. ولم يحظ هذا العمل سوى بتأييد سياسى محدود للإقدام عليه فى ظل تسارع زيادة الدين القومى (فقد تجاوز بالفعل ٢٠٠ مليون جنيه إسترلينى عند هذه المرحلة).

وشرع البريطانيون فى التفاوض بشأن اتفاقية سلام أسفرت عن الاعتراف الرسمى من جانب بريطانيا العظمى بالاستقلال الأمريكى فى عام ١٧٨٣م.

فازت الولايات المتحدة؛ لأنها لم تخسر.

لكنها دفعت ثمنًا رهيبًا. فقد جرى تدمير جانب كبير من ولايتى كارولاينا وأجزاء من ڤيرجينيا، حيث خربت القوات البريطانية المزارع الصغيرة والكبيرة. كما استولى البريطانيون على أعداد ضخمة من العبيد أيضًا. وتسبب الحصار البريطانى فى اضطراب التجارة اضطرابًا خطيرًا مثلما تسبب احتلال البريطانيين لبعض الموانىء الرئيسية.

احتلت القوات البريطانية مدينة نيويورك منذ خريف عام ١٧٧٦م حتى ٢٥ نوڤمبر ١٧٨٣م (الذى احتفل به باسم يوم الجلاء فى نيويورك لمدة مائة سنة). وتعد هذه أطول فترة تحتل فيها مدينة فى العالم الغربى من قبل قوة محتلة فى العصر الحديثة. وخلال الاحتلال، نشب حريقان أتيا على نصف مبانى مانهاتن. وهبط عدد سكان المدينة إلى النصف أثناء تلك الأعوام. واضطر الكثير من صفوة تجار المدينة، الذين ساءت سمعتهم بشكل ميئوس منه بعد تعاملهم مع البريطانيين، إلى الجلاء مع هذه القوات.

ومع السلام جاء أيضًا الانتقام البريطانى التجارى. فقد أغلقت جزر الهند الغربية البريطانية، التى كانت فى السابق سوقًا هائلة للأطعمة والخشب الأمريكى، فى وجه السفن الأمريكية. كما انتهت معاملة التعريفة التفاضلية التى حظيت بها منتجات مثل النيلة.

لكن ظلت بريطانيا أكبر مستهلك للسلع الأمريكية وأكبر مصدر للولايات المتحدة. وقدم التجار البريطانيون، المتلهفون لاستعادة مكانتهم فى الأسواق الأمريكية التى تدر أرباحًا، شروطًا سخية. وبانتهاء الحرب، بدأ الاقتصاد الأمريكى سريعًا فى الانتعاش وإن يكن بصور متفاوتة. وظلت كارولاينا غارقة فى الكساد، بينما انتعشت الاقتصادات التجارية للولايات الوسطى المطلة على المحيط الأطلنطى. وإذا كانت أسواق جزر الهند الغربية قد فقدت (بصورة مؤقتة)، فإن أسواقًا جديدة فتحت. ورحب شمال أوروپا بالمنتجات الأمريكية بعد أن كان مغلقًا فى وجهها بموجب قوانين الإبحار البريطانية. وصار بإمكان السلع الأجنبية، التى كان يتحتم دخولها عن طريق بريطانيا فيما مضى، أن تدخل مباشرة بأثمان أقل. وفتح الشرق الأقصى أبوابه أمام التجار الأمريكيين، بعد أن كان الحرم المصون لاحتكار شركة الهند الشرقية البريطانية. فى عام ١٧٨٤م، غادرت سفينة Empress of China ميناء نيويورك متجهة إلى

الشرق، وهى أول سفينة تتجه إلى هناك فيما سيصبح فيما بعد أسطولاً. كانت حمولتها تشمل فراء وجذور جنسنج ـ المقدرة تمامًا فى الصين باعتبارها علاجًا شافيًا لكل شىء ـ وجرت مقايضتها بالشاى والحرير والصينى والخزف والنباتات والطيور العجيبة وسلع كمالية أخرى. وعندما عادت بعد مضى خمسة عشر شهراً صرفت حمولتها محققة ربحًا تراوح بين ٣٠ ألف و٤٠ ألف دولار.

وتعافت مدينة نيويورك بسرعة مذهلة من التخريب الذى لحق بها على أيدى البريطانيين. ففى نهاية العقد لم يعد السكان إلى سابق عددهم فحسب إنما وصلوا إلى ذرًا جديدة، فصار عددهم ثلاثة وثلاثين ألف شخص فى تعداد عام ١٧٩٠م.

لكن إذا كان اقتصاد البلد ينتعش ببطء، إلا أن مواردها المالية لم تكن كذلك. ووافقت الولايات أخيراً على إطار أساسى للحكومة، وهى مواد الاتحاد الكونفيدرالى، فى عام ١٧٨١م، لتحل محل الإدارة التى شكلها لهذا الغرض كونجرس القارة الثانى. لكنها أثبتت انعدام كفاءتها بشكل يرثى له، فى المهمة المنوطة بها. كانت معظم السلطة مازالت مخولة بالكامل إلى الكونجرس، الذى عينت أعضاءه حكومات الولايات وخدموا فى مناصبهم كيفما يحلو لهم علاوة على هذا، كانت الحكومة تفتقر إلى سلطة فرض الضرائب، وبدلا من هذا كانت تطلب أموالاً من مختلف الولايات. لم يدفع الكثير من الولايات تلك الأموال فى موعدها، والبعض ببساطة لم يدفع على الإطلاق. كانت حكومة الولايات المتحدة، بموجب مواد الاتحاد الكونفيدرالى، أشبه ما تكون بهيئة الأمم المتحدة فى الوقت الحالى أكثر من كونها حكومة حقيقية.

باءت محاولة إعطاء الحكومة القومية دخلاً ثابتًا، عبر فرض رسم قيمته ٥ بالمائة على الواردات الأجنبية، بالفشل عندما فرضت نيويورك شروطًا كثيرة جداً للدرجة التى جعلت الكونجرس يرفض الموافقة. وفشل الإجراء بسبب عدم التوصل إلى موافقة بالإجماع.

ونتيجة لذلك، عجزت الحكومة القومية عن الوفاء بالتزاماتها. وجرى حل سلاح البحرية وخفض أفراد الجيش إلى الصفر، ليتبقى ثمانون جنديًا فقط. فى عام ١٧٨٥م

توقفت الحكومة عن دفع فوائد ديونها لفرنسا، وبعد عامين توقفت عن دفع أصل الدين أيضًا.

عاملت القوى الأجنبية الولايات المتحدة بمزيد من الازدراء لدرايتها بعجزها، فقد شجعت بريطانيا الحركات الانفصالية فى الشمال الغربى وڤيرمونت، ورفضت إخلاء حصونها مما بات الآن أرض الولايات المتحدة. ورفضت إسپانيا الاعتراف بسيادة الولايات المتحدة غرب الجبال وجنوب نهر أوهايو، وأغلقت نهر المسيسيپى، الذى تتحكم فى مصبه، فى وجه التجارة الأمريكية. وأخذ المستوطنون يتدفقون من الجبال إلى الأراضى الخصبة التى صارت كنتاكى وتينيسى، فتمخض هذا عن مشكلة كبرى. كان هؤلاء الأشخاص بحاجة إلى تصدير إنتاجهم الزراعى المتزايد ليبقوا على قيد الحياة، وكان المسيسيپى هو المنفذ الوحيد إلى البحر. وكانت إسپانيا تأمل فى الحصول على ولاء هؤلاء، وكان من الممكن أن تفوز به. ففى عام ١٧٨٤م وصف جورج واشنطن أولئك الأشخاص بأنهم يقفون على حرف «ستؤدى لمسة ريشة إلى أن يتجهوا لأى اتجاه».

كان الدائنون المحليون والأجانب عاجزين عن تحصيل لا الفائدة ولا أصل الدين. استمر تداول كتلة السندات والشهادات بمعدلات تعد جزءًا ضئيلاً من قيمتها الاسمية.

كانت أكبر مشكلات مواد الاتحاد الكونفيدرالى ـ افتقار الحكومة إلى السلطة لتمويل عملياتها من خلال الضرائب، وتنظيم التجارة بين الولايات ـ واضحة. أما كيف تحل المشكلات وبخاصة فى ظل عدم اكتراث الولايات بالتنازل عن مظاهر السيادة، فلم يكن ذلك واضحًا. لكن المجلس التشريعى لڤيرجينيا، مدفوعًا من جانب جيمس ماديسون، دعا الولايات الأخرى للاجتماع لبحث «إلى أى مدى يمكن لنظام موحد للوائح المنظمة لتجارتهم أن يكون ضروريًا لمصلحتهم المشتركة وتناغمهم الدائم».

وأسفر هذا عن مؤتمر آناپوليس فى سپتمبر ١٧٨٦م. لكن لم تأت سوى خمس ولايات، وكل ما حققته هو الدعوة لعقد اجتماع آخر فى مايو ١٧٨٧م: «ليضعوا فى الاعتبار وضع الولايات المتحدة، ولابتكار مزيد من التدابير التى سيرون أنها ضرورية لجعل دستور الحكومة الفيدرالية ملائما لمقتضيات الاتحاد».

ثم واتت القوميين، وهى التسمية التى أطلقت على الذين فضلوا وجود حكومة مركزية قوية، ضربة حظ. ففى أثناء انعقاد مؤتمر آناپوليس، تفجر تمرد شايز فى ماساتشوستس. كان الكثير من المزارعين فى الجزء الغربى من الولاية فى النزع الأخير بسبب الديون، وليس لديهم طريقة لدفعها. لكن المجلس التشريعى فى ماساتشوستس، الواقع تحت تأثير مؤسسة تجار بوسطن، انفض دون أن ينظر فى الالتماسات بإصدار أوراق مالية وتخفيف أعباء الدين عن طريق وقف إجراءات حبس الرهن[1].

وبحلول شهر نوفمبر، قاد دانيال شايز الذى عمل ضابطًا برتبة كابتن فى الجيش أثناء ثورة الاستقلال، لكنه الآن صار فلاحًا مشردًا، قوة مكونة من ألف ومائتى رجل. وأرسلت حكومة ماساتشوستس، التى تملكها الخطر، جنرال ويليام شيپارد ومعه ستمائة رجل لحراسة ترسانة سپرنجفيلد وخولت للجنرال بنيامين لنكولن تشكيل قوة قوامها أربعة آلاف وأربعمائة رجل. وأجهز شيپارد، المسلح بالمدفعية فى مواجهة البنادق الطويلة والمذراة[2]، على الرجال الذين هاجموا سپرنجفيلد فى ٢٤ يناير ١٧٨٧م وقضى لنكولن على التمرد عن طريق مهاجمة قوات التمرد فى پيترشام فى ٤ فبراير. وفر شايز إلى ڤيرمونت.

وأصدرت ماساتشوستس عفوًا عن كل المشاركين (بما فيهم حتى دانيال شايز نفسه). وفاز المتعاطفون مع تمرد شايز فى الانتخابات التشريعية التى جرت فى ربيع تلك السنة ومرروا على وجه السرعة تشريعًا يقضى بإعفاء السلع المنزلية والملابس وأدوات حرفة الشخص من إجراءات حبس الرهن.

وبالرغم من أن تمرد شايز انهار بسرعة، إلا أنه أضاف إلى الإدراك العام بشكل هائل أن أشياء بالغة الأهمية يفتقر إلى وجودها تتعلق بكيفية إدارة البلد، وأنه هناك حاجة إلى إجراء تغيير جوهرى. ومهد هذا الطريق أمام المؤتمر الدستورى للانعقاد فى فيلادلفيا فى أواخر ذلك الربيع لتحديد بسرعة ما إذا كانوا سيلقون بمواد الاتحاد فى سلة المهملات ويبدءون من جديد. وفى إشارة إلى التغييرات التى أدخلت على قوانين

(١) حبس الرهن: حرمان الراهن حق استرجاع العقار المرهون.

(٢) المذراة: آلة خشبية يدوية تنتهى بشوكة معدنية ذات ثلاث شعب لرفع وإلقاء القش.

المدينين والتى جلبها تمرد شايز، ذكرت صحيفة تصدر فى بوسطن، فى مايو عام ١٧٨٧م فى تشامخ مشوب بازدراء: «إن التحريض على التمرد فى حد ذاته فى بعض الأحيان يصنع القوانين». وبمعنى واقعى تمامًا، ساعد تمرد شايز على صياغة الدستور.

إن الأعمال الفذة التى تخرج من عباءة لجنة ما، هى جد قليلة العدد، لكن دستور الولايات المتحدة يعد بالقطع واحدًا من تلك الأعمال. وقد جرى تعديله سبعًا وعشرين مرة فقط خلال ٢١٥ عامًا، وخرج إلى حيز الوجود فى الوقت الذى كان فيه العالم على وشك التعرض لأكثر فترات التغيرات الاقتصادية عمقًا ـ والمستمرة ـ التى عرفها الجنس البشرى. وقد انتقل موقع القوة من قطاع إلى قطاع مع نمو وتطور الاقتصاد. وارتفعت قطاعات بكاملها فى البلد وهبطت أخرى، وخرجت إلى حيز الوجود طرق جديدة لإدارة الأعمال التجارية ومؤسسات اقتصادية لم يحلم بها الآباء المؤسسون فى ذلك الوقت، بينما انمحت أخرى. وتكونت ثروات لم يدر بمخيلة أحد يعيش فيما قبل عصر الصناعة إمكانية تكونها وتبددت. ومع هذا، بقى الدستور واستمرت البلد فى الازدهار فى ظلاله.

على أية حال كانت أقل فترات الحظ للولايات المتحدة فى تاريخها هى الفترة التى وضعت فيها قوانينها الأساسية. ففى واحدة من مصادفات التاريخ الكبرى ينشر آدم سميث مؤلفه ثروة الأمم فى عام ١٧٧٦م، فينسف الأسس الفكرية للمذهب المركنتالى التى بنيت عليها السياسات الاقتصادية للأمم الغربية طوال مائتى عام.

فقد أظهر المؤلف مثلا بعد مثل، وكل مثل حجته تزيد عما قبله قوة، كيف أن التجارة غير المقيدة بأغلال، فى كلٍّ من داخل وخارج البلد، وحكومة لا تتحيز لأى جانب بينما يتنافس الأفراد فى مكان السوق سيسفر عن ازدهار أعظم للجميع، وبالتالى قوة أكبر للبلد ككل. وقد قرأ الكثير من الآباء المؤسسين سميث، وعرفوا تماما قوة حججه.

لأن الولايات المتحدة تأسست حديثًا، فلم تقم بها احتكارات متوطدة، ولا نظم امتيازات لتفكيكه. ولم تقم بها شركة الهند الشرقية البريطانية الواسعة الثراء أو طبقة ارستقراطية راسخة هيمنت على سياسة البلاد. لم يكن بها منح ملكية عتيقة مثل امتياز

تحصيل التعريفات المحلية التى كانت تعج بها فرنسا قبل الثورة الفرنسية. وبالتالى، فإن الأمر كان أيسر بالنسبة للولايات المتحدة كى تغرس أفكار آدم سميث فى نظامها الاقتصادى وسياستها مقارنة بالأمم الغربية الأخرى الكبرى. ومنحها هذا مزايا هائلة فى العالم الاقتصادى الجديد الذى بدأ ميلاده عند اجتماع الآباء المؤسسين فى فيلادلفيا.

«وكتب كارل ماركس فى «البرومير الثامن عشر للويس بوناپارت»

«الرجال يصنعون تاريخهم، لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم؛ إنهم لا يصنعونه فى ظل ظروف من اختيارهم، لكن فى ظل ظروف تواجههم، جاءت مباشرة من الماضى».

وهذه المقولة صحيحة تماما للدرجة التى لا يزيد تكرارها المعنى وضوحًا وقوة. ومع هذا، فلم يزر ماركس الولايات المتحدة. (وبالمناسبة لم تطأ قدما كارل ماركس مصنعًا قط ـ كل ما عرفه عن البروليتاريا التى زعم أنه نصيرها هو ما قرأه فى الكتب من جانب زملائه المفكرين). إذا كان ماركس قد غامر وزار العالم الجديد، لرأى بلدًا، بسبب الظروف، يصنع تاريخه كما يحلو له أكثر من أى قوة أخرى كبرى.

لكن الولايات المتحدة لم تنشئ اقتصادًا صرفًا على نمط سميث. سيحاول الناس فى الحكومة دائما أن يساعدوا من فى السلطة على حساب الآخرين. إن ما هو قائم يستطيع دومًا أن يشهر نفوذًا لا يستطيع من يحتمل أن يكون قائمًا أن يباريه، بصرف النظر عن عمل أى قوانين لتمويل الحملات الانتخابية. إن سلطة ما هو قائم جعل إلغاء العبودية ـ التى كانت تعتبر على نطاق واسع غير أخلاقية وعديمة الكفاءة فى ثمانينيات القرن السابع عشر ـ من الناحية السياسية أمرًا مستحيلا. وبالفعل تمكن ما هو قائم من إقحام شرط فى الدستور الجديد أدخل بموجبه فى حسابه العبيد المحرومين من حق التصويت والذين هم بلا حول ولا قوة، بثلاثة أخماس أعدادهم الحقيقية لتحديد توزيع المقاعد فى الكونجرس، ومما زاد بشكل عظيم من القوة السياسية للولايات ذات الأعدد الكبيرة من العبيد.

لكن الولايات المتحدة اقتربت فى ثبات من المثال الذى طرحه سميث، على مدى فترة طويلة من الزمن، مقارنة بأى أمة أخرى كبرى. ويمكن للمرء أن يشهد نتائج هذا حيثما وجه ناظريه فى أى مكان فى الولايات المتحدة، وبالفعل فى أى مكان آخر حول العالم.

الفصل الرابع

الكيان الهاميلتونى

إن الاهتمام الذى أولته إدارة واشنطن، التى تولت زمام البلد فى ٣٠ أبريل فى عام ١٧٨٩م، للتعامل مع الوضع المالى الذى يواجه الحكومة فى ظل الدستور يمكن الحكم عليه من خلال الأرقام. ففى الوقت الذى كان يعمل فيه خمسة موظفون فى وزارة الخارجية المنشأة حديثًا، كان يعمل فى وزارة الخزانة أربعون موظفًا.

كانت المهام الملقاة على وزارة الخزانة مهولة، وتعين إنشاء نظام ضريبى، وكان لابد من ترشيد الدين المتروك من وقت الثورة وتمويله. ولابد من تنظيم الجمارك لتحصيل الرسوم التى ستكون مصدرًا رئيسيًا للدخل الحكومى لأكثر من قرن. ولابد من تأسيس الدين العام، بحيث تستطيع الحكومة الاقتراض عند الضرورة، ولا بد أيضًا من وضع نظام نقدى محل التنفيذ.

كانت النقطة الأخيرة، قائمة على الأقل نظريًا، أسسها الكونجرس بموجب مواد الاتحاد الكونفيدرالى. وفيما يعد إسهامه الإيجابى الوحيد للنظام المالى للولايات المتحدة، كان من ابتكار توماس جيفرسون.

كما رأينا، قبل الثورة، كان التجار يمسكون دفاتر بالجنيه الإسترلينى والشلن والپنس، لكن المال المتداول لا يمت بصلة إلى الجنيهات الإسترلينية والشلنات والپنسات. وكانت مسألة أى وحدة جديدة يجرى تبنيها على نفس الدرجة من

التعقيد، لأن سكان المستعمرات المختلفة كانوا «يفكرون» فى إطار وحدات نقدية شديدة التباين والتنوع، وعادة غير قابلة للقياس.

وقد حاول روبرت موريس، الذى بذل الكثير للحفاظ على الثورة طافية ماليًا، سد هوة الاختلافات عبر التوصل إلى القاسم المشترك الأدنى للوحدة النقدية الأكثر تداولا فى كل ولاية. وحسب هذا، وخرج بأنه ١,٤٤٠ من الدولار الإسبانى. رأى جيفرسون أن هذه الوحدة ستكون متناهية فى الضآلة بحيث لن تكون عملية، ووافقه موريس. واقترح أن تكون وحدته قابلة أن تضرب فى ألف وتتراوح قيمتها بين $\frac{١}{٢٥}$ إلى $\frac{١}{٣٦}$ من قيمة الدولار. ورأى جيفرسون استخدام الدولار وحسب، حيث إنه مألوف فى أنحاء الولايات المتحدة، كوحدة النقد الجديدة.

ويرجع أصل كلمة دولار إلى الكلمة الألمانية وادى «تال ـ Thal». ففى القرن الخامس عشر اكتشفت تركزات كبيرة من الفضة فى بوهيميا، فيما يعرف الآن بجمهورية التشيك. وفى ١٥١٩م، بدأ صاحب المناجم الواقعة بالقرب من بلدة يواكيمستال وهى جراف تسو باساون أوند فايسكيرشن، فى صك عملات معدنية فضية كانت تزن أونص ساكسونى، وسميت تالر، والتى تعنى حرفيًا «من الوادى». وقوبلت هذه العملات الجديدة والنقية بحفاوة من التجار وأخذ بقية الحكام فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى تقليدها عند سك عملاتهم.

كما تبنى إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة شارل الخامس وهو من آل هابسبورج، التالر كوحدة القياس الرئيسية للعملة فى الأراضى التابعة له سواء النمساوية أو الإسبانية، وكذلك إمبراطوريته التى فاز بها حديثًا والغنية بالفضة فى العالم الجديد. بلغت كميات الذهب والفضة المهولة التى استخرجت من مناجم أمريكا الإسبانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (ما بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٢٦م، ما يزيد على أحد عشر ألف طن من الذهب والفضة صدرت إلى إسبانيا جعلت من التالر وحدة النقد للتجارة الدولية لقرون). وصار التالر دولارًا فى اللغة الإنجليزية، مثلما تحولت كلمة تال فى قرون سابقة إلى كلمتى dale وdell. كما أصبح أكثر العملات الرئيسية شيوعًا فى مستعمرات أمريكا الشمالية.

لم يدافع جيفرسون فى مؤلفه «مذكرات عن تأسيس وحدة نقد ونظام للعملة للولايات المتحدة» عن استخدام الدولار فحسب، إنما عن وحدات الكسور العشرية من الدولار أيضًا.

ويبدو كل هذا اليوم معتادًا. وفى نهاية المطاف، يوجد فى كل بلد فى العالم الآن نظام نقدى عشرى، ومثلما شرح جيفرسون نفسه: «فى كل الحالات إذا ما أتيحت لنا حرية الاختيار بين نظامين للتعامل أحدهما يسير والآخر عسير، فإنه من الأعقل أن نختار اليسير». لكن توماس جيفرسون هو أول من دافع عن مثل هذا النظام، والولايات المتحدة هى أول بلد فى العالم تتبناه.

«كانت الدولارات الإسبانية عادة تقطع إلى نصفين وأرباع وأثمان، والتى سميت بالقطع الصغيرة، وذلك لحل مشكلة الفكة (يرجع لهذا السبب إطلاقهم عليها «قطع الثمانى»). لكن جيفرسون أيد صك عملة معدنية بقيمة نصف دولار وخمسه وعشره (والذى ابتكر له كلمة دايم) وواحد على عشرين منه وواحد على مائة منه (التى استعار لها كلمة سنت من خطة موريس). وفى ١٧٨٥م أعلن الكونجرس أن «الوحدة النقدية للولايات المتحدة الأمريكية هى واحد دولار». ولكن الكونجرس عندما أقر فى العام التالى عملات السنت والخمس سنتات والخمسين سنتًا التى دعا إليها جيفرسون، قرر أن يصرح بتداول عملة فئة ربع دولار بدلاً من عشرين سنتًا.

ما يزال الربع معنا حتى الآن، وهو آخر صدى للنظام النقدى الثمانى القديم الباقى من أيام المستعمرات، لكن الأصداء الأخرى استمرت لعقود فقط. وظلت بورصة نيويورك للأسهم تعطى أسعارًا لثمن الدولار حتى عام ١٩٩٩م. وبقى مصطلح شلن لفترة طويلة فى الاستخدام الشائع ليعنى اثنى عشر ونصف السنت، أى ثمن دولار، بالرغم من عدم وجود عملة فى هذه الفئة قط فى الولايات المتحدة. وظل الجانب الذى توجد فيه المتاجر الأقل أناقة فى شارع برودواى، فى نيويورك، يسمى حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر، «جانب الشلن»، بينما سمى الجانب الغربى من الشارع «جانب الدولار».

ويوجد سبب واحد لاستمرار استخدام مصطلح الشلن طوال هذه الفترة، بالطبع، هو أن العملات الأمريكية لم تكن توافى الطلب المتنامى عليها على الدوام، بالإضافة

إلى أن الخليط الأجنبى كان ما يزال له تأثير. وكانت أول عملة صكت فى الولايات المتحدة هى سنت نحاسى يحمل شعارا يفور بالحماسة هو «ارع مصالحك»، وصكت فى دار صك خاصة. كانت دار فيلادلفيا للصك قد أنشئت فى عام ١٧٩٢م، لكنها لم تسك فيها سوى عملات معدنية قليلة فى بواكير عملها بسبب الافتقار لوجود المعادن اللازمة لذلك.

وقد رفض روبرت موريس، المائل بقوة نحو كسب المال، العرض المقدم له من واشنطن لتعيينه وزير الخزانة فى حكومته الجديدة (كان قراراً خاطئًا من جانبه ـ انتهى به الحال إلى سجن المدينين). التفت الرئيس إلى رجل عمل كياور له من ضمن مجموعة خلال الثورة، وهو ألكسندر هاميلتون، الذى كان فقط فى الثلاثينيات من العمر.

كان هاميلتون الوحيد بين الآباء المؤسسين الذى لم يولد فى الولايات المتحدة. ولد فى نقيس، إحدى جزر ليوورد الأقل أهمية وهى من ممتلكات بريطانيا، كما كان الوحيد ـ إلى جانب بنيامين فرانكلين، الذى كون ثروة طائلة من كده واكتسب سمعة أكبر منها ـ لم يولد فى غنى وافر. بالفعل فقد نشأ فى فقر بعد أن هجر أبوه ـ الذى لم يتزوج أمه قط ـ الأسرة عندما كان هاميلتون ما يزال صبيًا.

ذهب هاميلتون، الذى كان يعيش فى سان كروا التى هى الآن جزء من جزر فيرجين الأمريكية، لكنها فى ذلك الوقت كانت تابعة للدنمارك، ليعمل فى مكتب محاسبة يملكه التاجران نيكولاس كروجر وديفيد بيكمان، عندما كان فى الحادية عشر من العمر. ومع بلوغه منتصف فترة المراهقة، أصبح يدير المكتب بفضل كفاءته الخارقة وطموحه الذى لا حد له، و بهذا يكون حرفيًا نشأ فى مكتب محاسبة، وبالتالى فإن من بين كافة الآباء المؤسسين، فقط فرانكلين هو الذى كان له خلفية حضرية وتجارية، حتى جون أدامز، الممارس لمهنة المحاماة، اعتبر مزرعة أسرته فى برينترى (الآن كوينسى)، ماساتشوستس، هى منزله وليس بوسطن.

لمس كروجر مواهب هاميلتون، وساعده على أن يأتى إلى نيويورك فى عام١٧٧٢م، فالتحق بكلية كنجز كولدج، الآن جامعة كولمبيا. وبعد الثورة درس القانون، وبدأ يمارس المهنة فى مدينة نيويورك، حيث تزوج إليزابيث شويلر، التى

تنتمى إلى واحدة من أبرز الأسر فى نيويورك. وأخذ يكتب سلسلة مقالات صحفية وكتيبات سطر فيها مخططه التمهيدى عما تدعو إليه الحاجة لإنشاء حكومة فيدرالية فعالة. فى عام ١٧٨٤م أسس بنك نيويورك، أول بنك فى هذه المدينة والثانى فى البلد ككل.

حضر المؤتمر الدستورى الثانى فى فيلادلفيا وعمل بلا هوادة للتصديق على الوثيقة، وكتب ثلثى «الأوراق الفيدرالية ـ The Federalist Papers» وعندما أخرج روبرت موريس نفسه من دائرة تولى المنصب، ملأت السعادة هاميلتون، الذى وصفه موريس«بالحاذق إلى أقصى حد»، عندما عرض عليه منصب وزير الخزانة.

كان هاميلتون من الأكفاء القلائل لملء هذا المنصب. وفى الوقت الذى أثبت الأمريكيون فيه بالفعل تميزهم فى الكثير من المجالات من الجهد الإنسانى، فإنهم«لم يكونوا على دراية تامة بأكثر العلوم استغلاقا فى العالم: المالية العامة، الذى لم تكن هناك ضرورة كى يدرسوه».

كان هاميلتون، الذى كان دارسًا متعمقًا فى علم الاقتصاد، قد استوعب المالية العامة استيعابًا تامًا، وهى حقيقة سيجعلها جلية تماما فى السنوات القليلة المقبلة. لكنه أيضًا، مثل الكثير من الآباء المؤسسين، كان دارسًا متعمقًا فى الطبيعة الإنسانية وعرف أنه لا يوجد حافز فى المحيط الإنسانى أقوى من المصلحة الذاتية. وسعى لإقامة نظام يؤدى مهمتين: توجيه المصلحة الذاتية لبناء وتطوير الاقتصاد الأمريكى، وحماية هذا الاقتصاد من الحماقات التى دوما تقودها إليها المصلحة الذاتية التى لا تحدها حدود.

حتى قبل إنشاء وزارة الخزانة فى ٢ سبتمبر ١٧٨٩م، وإقرار تعيين هاميلتون من جانب مجلس الشيوخ كأول وزير لها فى ١١ سبتمبر، كان الكونجرس قد مرر تشريعًا خاصًا بالضرائب يقضى بمنح الحكومة الجديدة الأموال التى تحتاجها لسداد فواتيرها. لم يكن هناك جدل بشأن ما إذا كانت التعريفات الجمركية ستكون هى المصدر الرئيسى للدخل، لكن جرت مناقشات مطولة حول ما هى الواردات التى تفرض عليها الضرائب وبأى معدل. كانت پنسلڤانيا قد فرضت تعريفات عالية بموجب مواد الاتحاد الكونفيدرالى القديمة لحماية صناعة الحديد الوليدة، وأرادت الإبقاء عليها. كانت

الولايات الجنوبية المستوردة لمنتجات الحديد مثل المسامير والمفصلات، تريد تعريفًا منخفضًا على واردات الحديد أو رفعها تمامًا. وأرادت معامل تقطير الروم فى نيو إنجلند فرض تعريفات منحفضة على العسل الأسود، بينما أراد مصنعو الويسكى فى پنسلڤانيا وأماكن أخرى فرض تعريفات عالية على العسل الأسود، لتقييد منافسيهم الرئيسيين.

وأخيرًا مرر الكونجرس قانونى التعريفات والحمولة بالأطنان (فرض بموجب هذا القانون اللاحق رسم يبلغ ٦ سنتات على كل طن تدخل به السفن الأمريكية موانىء الولايات المتحدة و٥٠ سنتًا على كل طن تحمله السفن الأجنبية) فى صيف ١٧٨٩. لكن ستظل التعريفات الجمركية ثانى أكثر قضية مثيرة للخلاف فى الكونجرس بعد قضية العبودية للأعوام المائة التالية. ووصل الأمر إلى أن أصدر پيرس بتلر نائب كارولاينا الجنوبية فى مجلس الشيوخ وهو من الآباء المؤسسين، أول تهديد بالانفصال قبل تمرير الكونجرس لقانون التعريفات فى عام ١٧٨٩م.

بعد أن اطمأن هاميلتون على أن مسألة التمويل قد حسمت، كانت أكثر المشكلات إلحاحا على هاميلتون هى الديون الفيدرالية. ونص الدستور على وجوب تحمل الحكومة الفيدرالية الجديدة التزامات الحكومة القديمة، لكن حول إمكانية ذلك دارت مناقشات حامية. كان معظم الدين قد وقع فى أيدى المضاربين الذين اشتروه بثمن بخس، يشكل نسبة ١٠ ٪ من قيمته الإسمية.

فى ١٤ يناير ١٧٩٠م، قدم هاميلتون إلى الكونجرس أول «تقرير عن الدين العام». ودعا التقرير إلى الوفاء بالدين القديم فى ظل شروط سخية وإصدار سندات جديدة لسدادها، مدعومة من عائدات التعريفات الجمركية. وأصبح التقرير معلومًا للعامة فى مدينة نيويورك، العاصمة المؤقتة، على الفور، لكن مضمونه انتشر ببطء لأجزاء أخرى من البلد، وتسنت للمضاربين القدرة على انتزاع كميات ضخمة من الدين القديم بأسعار تقل جدًا عما اقترحه هاميلتون للوفاء به.

كان الكثيرون مستاءين من تمكن المضاربين من التربح من الدين، بينما لا يستعيد هؤلاء، الذين أخذوا الدين بأسعار أعلى بكثير أثناء الثورة، أموالهم البتة. وجادل جيمس ماديسون بأن الحملة الأصليين هم الذين تدفع لهم قيمة الأوراق كاملة، ويدفع

للمضاربين قيمة ما دفعوه فقط. لكن هذا كان غير عملىّ على نحو يستحيل تحقيقه. فمن ناحية، عادة ما يكون تحديد الحامل الأصلى للسند غير ممكن.

ومما لايقل أهمية عما تقدم، أن مثل هذه الخطوة، إذا ما أقرت، سيكون لها عظيم الأثر فى إعاقة قدرة الحكومة على الاستدانة من الناس فى المستقبل. إذا استطاعت الحكومة أن تقرر من هو الحامل الأصلى لورقة الدين ضمن سلسلة من الحملة، سيصبح الناس أقل اكتراثًا فى شراء دين مستقبلى، وبالتالى سيرتفع سعر هذه الديون فى إطار معدلات الفائدة. وكان على هاميلتون أن يؤسس دينًا قوميًا آمنًا جيد التمويل، على غرار النموذج القائم فى بريطانيا العظمى وللغرض ذاته الذى استخدمته بريطانيا العظمى لدينها.

لم يستوعب الكثيرون من أعضاء الحكومة الجديدة، الذين لم يدرسوا المالية العامة، قوة دين قومى يجرى تمويله بشكل مناسب، وخدمته، فى الاسهام فى ازدهار أمة ما. لكن هاميلتون كان مستوعبًا لذلك تمامًا. وتعد واحدة من أعظم المشكلات التى واجهت الاقتصاد الأمريكى مع مطلع تسعينيات القرن الثامن عشر هى الافتقار إلى رأس مال سائل، رأس مال متوفر للاستثمار. أراد هاميلتون استخدام الدين القومى لخلق عرض أكبر وأكثر مرونة من المال. وتستطيع البنوك التى تحمل سندات حكومية أن تصدر أوراقًا مالية بدعم من هذه السندات. وكما يمكن لهذه السندات الحكومية أن تلعب دورًا مساعدًا لقروض البنوك، فتضاعف رأسمالها المتوفر. وكان يعلم أيضًا أنها ستجتذب المزيد من رأس المال من أوروبا.

فى نهاية المطاف، أقر الكونجرس برنامج هاميلتون، بعدما بذل هاميلتون جهدًا ليس بالقليل كخطيب لإقناعه. وكان حمو هاميلتون، عضوًا فى مجلس الشيوخ فى الكونجرس الجديد، ويحمل ما قيمته ٦٠ ألف دولار من أوراق مالية حكومية ويأمل فى أن يسترد قيمتها من خلال برنامج هاميلتون. وقيل: إن معارضة البرنامج جعلت شعره يقف رعبًا «كأن الهنود أطلقوا عليه النار».

وأراد هاميلتون أيضًا تولى الحكومة الفيدرالية مسئولية الوفاء بالديون التى جلبتها الولايات المختلفة على نفسها خلال حربها أثناء الثورة. وكان دافعه الرئيسى فى هذا

الشأن هو توطيد أركان الاتحاد. وكانت معظم ديون الولايات تقع فى أيدى مواطنين أثرياء من أبناء هذه الولايات. وإذا تحول جزء كبير من أصول ثرواتهم إلى سندات فيدرالية بدلا من سندات تابعة للولايات فسيصبحون أكثر اهتمامًا فى أن يروا الاتحاد ككل مزدهرًا.

وناصرت بالطبع الولايات التى مازال عليها أعباء ديون معتبرة، ومعظمها ولايات شمالية، اقتراح هاميلتون هذا. أما الولايات التى سددت الديون الواقعة عليها، فكان من الطبيعى أن تعارضها. وكان جيفرسون وماديسون ـ ثيرجينيا سددت ما عليها من ديون ـ صامدين فى معارضتهما، وكان معهما ما يكفى من الأصوات لإفشال الإجراء. وقدم هاميلتون عرضًا.

إن تحول ما يكفى من الأصوات لتمرير مشروع تولى مسئولية الوفاء بالديون سيعمل على أن تقع العاصمة الجديدة فى جنوب البلاد. ولكى يضمن تعاون پنسلڤانيا، سينقل العاصمة من نيويورك إلى فيلادلفيا لمدة عشر سنوات، بينما تبنى العاصمة الجديدة. ووافق جيفرسون وماديسون، وأقر برنامج هاميلتون وصار قانونًا بعد أن وقع عليه الرئيس واشنطن الذى سعد باحتمال أن تكون العاصمة الجديدة تقع على نهر پوتوماك الأثير لديه.

حقق البرنامج نجاحًا فوريًا، ونفدت السندات الجديدة خلال أسابيع قليلة. عندما بات واضحًا أن تدفق العائدات من التعريفات أكثر من واف لخدمة الدين الجديد، وبدأت أوروپا تسعى لشرائها. فى عام ١٧٨٩م كانت الولايات المتحدة بمثابة سلة مهملات مالية، فالتزاماتها متعذر بيعها وقدرتها على الاقتراض صفر. بحلول ١٧٩٤م صارت تتمتع بأعلى تصنيف فى أوروپا، وبعضًا من سنداتها تباع بنسبة أعلى ١٠ ٪ من قيمتها الاسمية.

وشرح تاليران، الذى صار وزيرًا للخارجية الفرنسية فى وقت لاحق، أثناء وجوده فى الولايات المتحدة هاربًا من حكم الإرهاب[1] [فى نهاية الثورة الفرنسية]، سبب هذا النجاح. قال: إن السندات «كانت آمنة وخالية من التقلبات. لقد مولت بأسلوب

(١) حكم الإرهاب: السنوات الثلاث التى أخذت الثورة الفرنسية تأكل خلالها أبناءها من الثوار.

سليم، والازدهار فى هذا البلد ينمو بالسرعة التى لا يوجد شك معها فى القدرة على السداد».

ربما كان تاليران يستطيع أن يضيف أن استعداد الحكومة الفيدرالية الجديدة على تولى عبء الدين القديم، بدلا من رفض الاعتراف بالدين لأسباب مالية قصيرة المدى أو لمزية سياسية، ساعد على كسب ثقة المستثمرين بقوة. كانت قدرة الحكومة الفيدرالية على اقتراض مبالغ ضخمة بمعدلات يمكن تحملها فى أوقات الطوارىء ـ مثل وقت الحرب الأهلية والكساد العظيم ـ ميزة قومية هائلة. نحن مدينون إلى حد كبير بوجود هذه القدرة إلى سياسات ألكسندر هاميلتون التى وضعت فى مكانها منذ بزوغ فجر الجمهورية، وهو ميراث ليس بالضئيل.

لتكن متأكداً من أن هاميلتون والولايات المتحدة وافاهما حظ رائع عند نشوب حرب أوروبية كبرى فى عام ١٧٩٣، عقب إعدام لويس السادس عشر بالمقصلة. واتضح أن هذه فرصة مهولة للتجارة الأمريكية الخارجية وللشحن الأمريكى، الذى كان محميًا من هجمات سفن القراصنة التابعة للحكومات نتيجة لحياد البلد. وازداد الطلب الأوروبى على الأغذية والمواد الخام الأمريكية بشكل عظيم، وازدادت عائدات الحكومة الفيدرالية من التعريفات الجمركية طرديًا. فى عام ١٧٩٠م صدرت الولايات المتحدة سلعا تبلغ قيمتها ١٩,٦٦٦,٠٠٠ دولار، بينما بلغت قيمة الواردات التى لم يعاد تصديرها ٢٢,٤٦١,٠٠٠ دولار، وبحلول عام ١٨٠٧ صارت قيمة الصادرات ٤٨,٧٠٠,٠٠٠ دولار والواردات ٧٨,٨٥٦,٠٠٠ دولار. وأصبحت عائدات الحكومة فى ذلك العام خمس أمثال ما كانت عليه منذ سبعة عشر عامًا.

كان الجزء الرئيسى الآخر فى خطة هاميلتون المالية هو إقامة بنك مركزى، ويطلق عليه اسم بنك الولايات المتحدة، ويؤسس على نمط بنك إنجلترا.

توقع هاميلتون بنكًا مركزيًا يؤدى ثلاث وظائف. **أولا:** يشكل محل إيداع لأموال الحكومة ويسهل نقلها من مكان إلى آخر داخل البلد. ويعد هذا أمراً ليس بالهين فى ظل الظروف البدائية للولايات المتحدة الشابة. **ثانيًا:** أن يكون مصدراً لإقراض الحكومة الفيدرالية والبنوك الأخرى. **وثالثًا:** ينظم المعروض من المال عن طريق ضبط نظام عمل البنوك الحاصلة على امتياز بممارسة العمل فى الولايات.

كانت مسألة المعروض من المال مشكلة حرجة فى ذلك الوقت. كان المعروض من هذا النوع ـ العملات الذهبية والفضية ـ شحيحًا جدًا. وفى عام ١٧٩٠م كانت توجد ثلاثة بنوك فقط حاصلة على امتياز بممارسة العمل من الولايات مخول لها إصدار أوراق مالية، بما فيها بنك هاميلتون: بنك نيويورك، لكن هذه الأوراق كانت متداولة على النطاق المحلى فحسب. وفكر هاميلتون فى أنه إذا قبل بنك الولايات المتحدة الأوراق المحلية بالقيمة الإسمية لها فستحذو حذوه البنوك الأخرى، وبالتالى سيسهم ذلك بصورة عظيمة فى توسيع النطاق الذى تتداول فيه. وإذا رفض بنك الولايات المتحدة الأوراق المالية لبنك ما، بسبب مخالفة اللوائح المنظمة له أو لإفراطه فى إصدار الأموال، فسترفضها البنوك الأخرى أيضًا، مما سيساعد على أن تظل بنوك الولايات على طريق الاستقامة والفضيلة.

تعلم هاميلتون ألا يحبذ فكرة أن تصدر الحكومة ذاتها أوراقًا مالية، لعلمه أنه فى أوقات الحاجة ستعجز الحكومة عن مقاومة إغراء حل مشكلاتها المالية عن طريق طباعتها ببساطة. من المؤكد أن الكونجرس القارى أظهر عدم انضباط أثناء الثورة، لكن على الأقل كان لديه العذر وهو عدم وجود بديل. وأثبت تاريخ الأوراق المالية منذ أيام هاميلتون أنه كان محقًا. كان الساسة، بلا استثناء، حيثما وجدوا سلطة تخول لهم طباعة الأموال، أساءوا استخدام هذه السلطة على حساب صحة الاقتصاد للبلد الذى يقع فيها هذا الأمر.

اقترح هاميلتون إنشاء بنك برأسمال ١٠ ملايين دولار. ويعد هذا مبلغا شديد الضخامة فى ذلك الوقت إذا ما عرف المرء أن الرأسمال المجمع لبنوك الولايات الثلاث بلغ مليونين من الدولارات فقط. ستحمل الحكومة ٢٠ ٪ من أسهم البنك، وتمتلك ٢٠٪ من مقاعد مجلس إدارته. وسيكون من حق وزير الخزانة أن يفتش على دفاتره فى أى وقت. لكن بقية أسهم البنك ستكون مملوكة بشكل خاص.

كتب هاميلتون فى تقريره المعنون «تقريرعن بنك وطنى» الذى قدمه إلى الكونجرس فى ١٤ ديسمبر ١٧٩٠م، «إن إيلاء الثقة التامة لمؤسسة من هذا النوع، يبدو أنه سيكون مكونًا أساسيًا فى بنائها، والتى ستكون خاضعة للإدارة الخاصة وليس العامة ـ تحت توجيه المصلحة الفردية، وليس السياسة العامة؛ الذى من المفترض أن تكون عليه، مما

سيجعلها، فى بعض حالات طوارئ معينة فى ظل إدارة حكومية ضعيفة أو شديدة الثقة فى ذاتها، حقيقة عرضة للتأثر بالضرورة العامة».

وأقر الكونجرس مشروع القرار بمعارضة قليلة، وانقسم أعضاء المجلسين كلٌّ وفق انتمائه المحلى. وعارضه عضو واحد فى مجلس الشيوخ، وصوت لصالحه ثلاثة أعضاء من مجلس الشيوخ من الولايات الواقعة جنوب ولاية ميريلاند. وظن هاميلتون أن المسألة حسمت، لكنه لم يحسب لتوماس جيفرسون حساباً، الذى شغل فى هذا الوقت منصب وزير الخارجية وجيمس ماديسون الذى كان عضواً حينئذ فى مجلس النواب. وعلى الرغم من أن جيفرسون نفسه استمتع حتى الثمالة بكل الملذات المتعددة التى يتيحها العيش فى باريس وهو يشغل منصب وزير مفوض لدى لويس السادس عشر بموجب مواد الاتحاد القديمة، إلا أنه كان يكن كراهية سياسية عميقة للمدن وللتجارة التى تزدهر فيها.

كان لا يوجد شىء يرمز إلى اللهاث الحضرى وراء المال الذى يحتقره جيفرسون مثل البنوك. كتب إلى جون آدامز بعد أن تقدم به السن: «كنت دائماً عدو البنوك . . . إن حماسى ضد تلك المؤسسات كان حاراً وعلنياً ضد إقامة بنك الولايات المتحدة حتى أن قبيلة تجار البنوك الذين يسعون لسرقة العامة لتحقيق مكاسبهم الفارغة المبنية على النصب يصمونني هازئين بأننى مخبول».

ولد جيفرسون واحداً من أغنى أغنياء أبناء المستعمرات الأمريكية ـ ورث عند وفاة أبيه أكثر من خمسة آلاف فدان من الأرض الزراعية وثلاثمائة عبد ـ أنفق مالا طوال حياته فى احتقار. توفى، نتيجة لذلك، ومات وهو غارق فى الديون، مفلساً فى كل شىء عدا اسمه. وبصرف النظر عن أسلوب حياته الأرستقراطى، كانت رؤيته لمستقبل أمريكا هى أنها أرض صغار الملاك من المزارعين المكتفين ذاتياً، يوتوبيًا ريفية لم تتحقق مطلقا على أرض الواقع، وستكون دائماً فى صدام تام مع الاقتصاد الأمريكى الذى بدأ يتطور فعلياً فى تواكب مع مبشرات العصر الصناعى.

حارب جيفرسون وحلفاؤه ماديسون وإدموند راندولف، المدعى العام، بكل ما أوتوا من قوة فكرة هاميلتون لإقامة بنك. كتبوا آراءهم إلى الرئيس واشنطن قائلين: إن

تأسيس البنك غير دستورى. وتمحورت حججهم حول فقرة ما يسمى بالضرورى والملائم فى الدستور، التى تمنح الكونجرس سلطة قوانين«ضرورية وملائمة لتنفيذ ما كانت تؤديه القوى السابقة».

واحتجوا بأنه بما أن الدستور لم يمنح الكونجرس بوضوح سلطة إقامة بنك، فإن ذلك لا يتسنى له أن يفعله إلا فى حالة الضرورة القصوى. وأصبح هذا «البناء المقيد» للدستور جزءًا من قاعدة السياسة الأمريكية منذ ذلك الحين، بالرغم من أن جيفرسون نفسه اعترف بأن مثل هذه المجادلات تستهوى من هم خارج السلطة. وحقيقة أن الدستور لم يأت فيه البتة ذكر شراء أراض من ولاية أجنبية لم يمنع جيفرسون، حين صار رئيسًا، من انتزاع شراء لويزيانا[1] حينما سنحت الفرصة.

ورد هاميلتون بمذهب «السلطة الضمنية». وجادل بأنه إذا كانت الحكومة الفيدرالية ستتعامل بنجاح مع مهامها المعدودة، لابد أن تكون ذات المنزلة الأعلى عند اتخاذها قرارا بشأن كيفية ذلك. كتب إلى واشنطن «إن أقل مساحة منع فى فقرات الدستور يمكن أن تدمر الافتراضات القوية الناجمة عن الواجهة العامة للحكومة. لا يوجد سوى البرهنة التى تستطيع استبعاد فكرة أن مثل السلطة قائمة». علاوة على ذلك، أكد أن الكونجرس له الحق فى أن يقرر ما هى الوسائل الضرورية والملائمة. كتب «إن الحكومة القومية مثل أى حكومة أخرى لابد منذ اللحظة الأولى أن ترتئى الممارسة المناسبة لسلطاتها». ووقع واشنطن بعد أن تبددت شكوكه على مشروع القرار.

حقق بيع الأسهم نجاحًا مدويًا، حيث توقع المستثمرون أن البنك سيثبت أنه شديد الربحية، وهو ما حدث فعلا. كما أنه أدى وظيفته مثلما ارتأى له هاميلتون. أصبحت بنوك الولايات الثلاث القائمة فى ١٧٩٠ تسعًا وعشرين بنكًا مع مطلع القرن الجديد، وتمتعت الولايات المتحدة بمعروض من المال يعتمد عليه أكثر من معظم الأمم فى أوروبا.

---

(١) شراء لويزيانا: اشترت حكومة الولايات المتحدة ٥٣٠ مليون فدان من أرض أمريكا الشمالية بمبلغ إجمالى ١٥ مليون دولار من فرنسا فى عام ١٨٠٣م. ولتخيل المساحة المباعة يكفى أن نقول إنها بلغت نفس مساحة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، أى أن المساحة تضاعفت.

نتيجة لنجاح طرح أسهم بنك الولايات المتحدة اعتمدت أسواق الأوراق المالية الوليدة فى نيويورك وفيلادلفيا على أسهم البنوك كسوق مرتفعة السعر. وأقامت فيلادلفيا، التى كانت السوق المالية الأبرز فى ذلك الوقت، بفضل وجود مقر بنك الولايات المتحدة بها، بورصة حقيقية للأوراق المالية فى عام ١٧٩٢م. وفى نيويورك، وقع واحد وعشرون مضاربًا وثلاث شركات اتفاقًا ـ سمى باتفاق بتون وود لأنه، وفقًا للمتواتر، وقع أسفل شجرة من نوع بتون وود (التى يشيع تسميتها اليوم شجرة الجميز) خارج ٦٨ شارع وول ستريت. وتعهدوا فيه أنه «بيننا وبين أنفسنا، أننا لن نبيع ولن نشترى من هذا اليوم فصاعدا لأى شخص كان أى نوع من الأسهم العامة بمعدل عمولة لا يقل عن ربع بالمئة عن القيمة الاسمية للنوع، وأننا سنمنح أفضلية لبعضنا البعض فى مفاوضاتنا».

وتعد المجموعة الجديدة التى شكلها المضاربون أقرب كثيراً إلى خليط من تقييد للتجارة وخطة لتثبيت الأسعار منه إلى منظمة رسمية، ولكنه أثبت أنه بشير بما يعرف الآن باسم بورصة نيويورك للأوراق المالية.

ظهرت فقاعة من المضاربات فى نيويورك مرتكزة على أسهم بنك نيويورك. فقد ترددت شائعات بأن بنك الولايات المتحدة الجديد سيشترى بنك نيويورك، ويحوله إلى فرعه فى نيويورك. وأعلن عن تأسيس بنوك أخرى عديدة وأسهمها أو حقها لبيع الأسهم عند طرحه يجرى التكالب عليه وانتزاعه. فقد طرح بنك تامانى مخزونًا من الأسهم يبلغ ٤٠٠٠ سهم وتلقى اكتتابات لما لا يقل عن ٢١٧٤٠ سهمًا.

وكان هناك مضارب عديم الضمير يدعى ويليام ديور هو محرك حمى شراء الأسهم هذه. عمل ديور لفترة وجيزة فى وزارة الخزانة، لكنه استقال بدلاً من أن ينصاع إلى القاعدة التى أرساها هاميلتون وتحظر على مسئولى الوزارة المضاربة فى الأوراق المالية الخاصة بالوزارة. استبشع هاميلتون ما يحدث فى وول ستريت. كتب فى ٢ مارس عام ١٧٩٢، «حان الوقت لإيجاد خط فاصل بين الشرفاء والمخادعين، بين حملة الأسهم والمتعاملين فى عالم المال المحترمين، والمقامرين عديمى المبادئ فحسب».

لم يدم وقت طويل حتى انهارت خطط ديور المعقدة، وألقى به فى سجن المدينين الذى لم يخرج منه حيا. انتاب الذعر وول ستريت للمرة الأولى. وفى اليوم التالى،

أبلغ عن خمس وعشرين حالة فشل وسط مجتمع المال فى نيويورك الذى ما زال ضئيلاً، ومن بينها حالة فشل لأحد أفراد عشيرة لفنجستون الجبارة.

ابتهج جيفرسون بما انتهت إليه الأحداث. وكتب إلى صديق له «انفجرت فقاعتنا للأوراق المالية. إن إخفاق ديور فى نيويورك تسبب فى وقوع آخرين وهناك المزيد، مثلما توقع الدبابيس التسع بعضها بعضا». وتوقع جيفرسون، الذى يستهويه حساب الأشياء، إجمالى الخسارة بـ ٥ ملايين من الدولارات، التى ظن أنها تساوى إجمالى قيمة العقارات فى نيويورك فى ذلك الوقت. ولذا، فقد كتب جيفرسون، وهو يطير طربًا، إن الذعر الذى حدث يماثل وقوع نوع من الكوارث الطبيعية التى أتت على المدينة.

فى واقع الأمر، لم يكن الموقف على هذه الدرجة من السوء، وبخاصة إثر تحرك هاميلتون السريع لإعادة التوازن إلى السوق وضمان ألا يقوض الذعر المؤسسات المبنية على أسس سليمة. أمر بأن تشترى وزارة الخزانة أوراقها المالية لدعم السوق وأضاف مزيدًا من السيولة عن طريق السماح بدفع رسوم الجمارك ـ التى عادة ما تكون قابلة للدفع نقدًا فقط أو بأوراق مالية من إصدار بنك الولايات المتحدة ـ بأوراق تستحق الدفع خلال خمس وأربعين يومًا.

وسار النظام الذى ارتآه هاميلتون ووضعه فى موضعه، وسط تصاعد المعارضة من توماس جيفرسون وحلفائه السياسيين، مثلما كان يستهدفه هاميلتون تمامًا. انمحى بعض المضاربين، لكنهم كانوا يلعبون هذه اللعبة وهم واعون تمامًا ولا يحق لهم أن يلوموا إلا أنفسهم. ومع هذا، فقد نجت المؤسسات الناشئة. كتب هاميلتون: «لا يمكن أن تقع كارثة عامة بحق، بينما تظل هذه المؤسسات سليمة». وسرعان ما تبدد الذعر، واستطاع معظم السماسرة أن ينتصبوا واقفين، وذلك بفضل تحركات هاميلتون العاجلة.

لسوء الحظ، كان توماس جيفرسون أفضل كسياسى من هاميلتون، وأفضل منه بكثير أيضًا ككاره. لم يفلح نجاح بنك الولايات المتحدة ومنفعته المؤسسية الجلية لكل من الاقتصاد ونعومة إدارة الحكومة فى أن يغير جيفرسون آراءه البتة بشأن البنوك. كان

يمقتها جميعًا. وسيسيطر الحزب الذى تشكل حول توماس جيفرسون على مقاليد السلطة فى انتخابات عام ١٨٠٠، ولا يخسرها إلا بعد أكثر من جيل كامل. وفى هذا الوقت، سيدمرون نظام هاميلتون لتنظيم وضبط الحركة المالية، ولا يحلوا بدلاً منه شيئًا.

ونتيجة لذلك، فى الوقت الذى نما فيه الاقتصاد الأمريكى بمعدل مذهل، سيكون أكثر الاقتصادات هشاشة فى العالم الغربى، وعرضة لدورة لا تنتهى من الانتعاش والإفلاس تجاوزت بكثير نطاق الصعود والهبوط لدورة عالم المال. ولم ترد السلطات النقدية الأمريكية ـ وبالفعل لم تستطع ـ التدخل بشكل حاسم لإحباط فزع السوق قبل أن يخرج عن نطاق السيطرة لـ ١٩٥ عامًا أخرى.

كان توماس جيفرسون، الذى يعد واحدًا من أكثر البشر ألمعية، عاجزًا نفسيًا عن دمج الحاجة إلى آلية لضبط وتنظيم نظام البنوك الناشئة أو بالفعل البنوك على الإطلاق، فى فلسفته السياسية. واتبعت جحافل المعجبين به، الذين هم أقل ذكاء منه، فلسفته على مدى أجيال، بينما تغير العالم والبلد على نحو لا يمكن التعرف عليه. وكنتيجة مباشرة، ظلت الكارثة الاقتصادية تزور الولايات المتحدة بالضبط كل عشرين سنة لمدة تزيد على قرن.

* * *

الفصل الخامس

تعاون بشع

لا تنطبق مقولة جون دن المأثورة بأننا جميعًا جزء من القارة أكثر ما تنطبق على الاقتصاد العالمى. فهذا الاقتصاد يبنى، من حيث تعريفه، على عمليات لانهائية من تبادل للسلع بين الأفراد والصناعات والأمم، أعقد شبكة فى المحيط البشرى. عندما يقع تغيير فى أى مكان فى هذا الاقتصاد، يحدث هذا التغيير موجات عبر الكيان بأكمله. وعندما يبدأ تطوران رئيسيان منفصلان فى التفاعل فيما بينهما، يمكن أن يحدثا تعاونًا اقتصاديًا عظيمًا وبشعًا فى آن واحد.

لا يوجد مثل أفضل يؤيد ما تقدم مثلما حدث عندما تفاعلت فكرة بسيطة ونيرة لشاب من نيو إنجلند أراد مساعدة الزراعة فى الجنوب التى أصابها الكساد مع الثورة الصناعية الوليدة فى المقاطعات الوسطى فى بلاد إنجلترا البعيدة. فإلى جانب كونها انتجت أكثر محصول نقدى فى التاريخ الأمريكى، فإنها أحيت مؤسسة عمل الرقيق التى كانت فى طريقها إلى الاندثار بسرعة، وكادت تدمر الولايات المتحدة تقريبًا.

وتعتبر تجارة النيلة فى كارولاينا الجنوبية وجورجيا من بين الضحايا الاقتصاديين الرئيسيين للثروة الأمريكية. إن نبات النيلة (واسمه اللاتينى Indigofera tinctoria) موطنه الأصلى فى آسيا وشمال أفريقيا، ينتج صبغة عليها طلب هائل فى صناعة الأقمشة فى بريطانيا. وكانت أفضل مصادر لهذا النبات هى المصادر الإسبانية والفرنسية، لكن التفضيل الإمبراطورى قصر السوق البريطانية، التى هى أكبر أسواق

العالم، على جورجيا وكارولاينا الجنوبية. ومع نهاية العصر الاستعمارى، شكل العمال العبيد المستخدمون فى إنتاج النيلة فى المستعمرات الأمريكية نحو ١٠ ٪ من إجمالى العبيد.

ولكن مع الاستقلال الأمريكى، اتجهت بريطانيا إلى الهند لتحصل ما تحتاجه من النيلة، وبدون السوق البريطانية، سرعان ما انهارت صناعة النيلة فى كارولاينا الجنوبية وجورجيا. وظل الأرز الدعامة الرئيسية للزراعة فى مزارع كارولاينا الكبيرة، والذى استمر فى كونه مربحًا لكنه أصبح معتمداً الآن فى أى نمو له على السوق الأمريكية الصغيرة. إذا كان مقدراً لجنوب شرق الولايات المتحدة أن يزدهر فى مرحلة ما بعد الاستعمار الإمبريالى، فيتعين أن يجد محصولاً نقديًا جديداً.

مثل القطن أحد الاحتمالات، وكان يزرع أساسًا فى جزر سى آيلاندز التى ترسم الخطوط الخاجية لهذا الجزء من ساحل المحيط الأطلنطى. لكن هذا النوع من قطن طويل التيلة (الذى يسمى اليوم عادة القطن المصرى) لا يمكن زراعته على أرض داخلية، لأن زراعته تتطلب موسمًا طويلاً بشكل استثنائى وتربة رملية. وبالفعل، فقد جرت زراعة كمية صغيرة جداً منه، وحينما صدرت بالة منه إلى إنجلترا فى عام ١٧٨٤م، وهى المرة الأولى التى يصدر فيها القطن الأمريكى، اصطدمت بقوانين الإبحار البريطانية. واشترطت هذه القوانين أن المنتجات الخام التى تصل إلى الموانئ البريطانية سواء على متن سفن بريطانية أو على متن سفن من بلد المنشأ. ، ورفض مسئولو الجمارك ببساطة تصديق أن هناك شيئًا اسمه القطن الأمريكى، وتركت البالة لتفسد على أرصفة ميناء ليفربول.

وتطلب القطن قصير التيلة، أو قطن الأراضى المرتفعة، مائتى يوم فقط كموسم زراعة، ولم يكن يحتاج إلى ظروف تربة معينة، بالرغم من أنه يحبذ التربة الطفلية[١]. ويمكن زراعته بسهولة فى المناطق المرتفعة بولايتى كارولاينا الجنوبية وجورجيا. لكن كانت هناك مشكلة كبرى. فخلافا لقطن جزر سى آيلاند، كانت بذور قطن الأراضى المرتفعة هذا لزجة وتشتبك بإصرار فى أى أنسجة تحيط بها. وتعد عملية فصل البذور من النسالة مهمة تستغرق وقتًا هائلاً. ففى الوقت الذى يمكن فيه لعامل زراعى أن

(١) التربة الطفلية: تربة خصبة مكونة من الطين والرمل ومادة عضوية.

يلتقط ما يقرب من خمسين رطلاً من لوزات القطن المتفتحة فى اليوم الواحد، يعمل خمسة وعشرون رجلاً لمدة خمسة وعشرين يومًا على فصل البذور يدويًا من هذا الكم من القطن، فى عملية تسمى بالحلج.

مثلما يحدث عادة فى تاريخ الاقتصاد الأمريكى، حلت المهارة الشديدة لأحد اليانكى (سكان نيو إنجلند) المشكلة. ولد إيلى ويتنى فى وستبورو بولاية ماساتشوستس فى عام ١٧٦٥م، وهو ابن مزارع كان لديه إلى جانب زراعته ذلك مشروع تصنيعى صغير، يصنع به ما يحتاجه المزارعون الآخرون الذين يفتقرون إلى البراعة فى استعمال أيديهم. وسرعان ما أثبت إيلى استعدادًا لافتًا لعلم الميكانيكا وحسًا متقدًا بما يبحث عنه السوق ولا يجده. وبينما هو بعد صغير أثناء الثورة، شح وجود المسامير، أقنع أباه بأن يبنى له دكان حداد بحيث يتمكن من تصنيعها. ونجح المشروع نجاحًا باهرًا، بحيث سرعان ما بدأ يتحدث عن البحث عن مساعد له.

وبعد تخرجه من جامعة ييل فى عام ١٧٩٣م، قبل ويتنى منصب معلم فى كارولاينا الجنوبية. وفى طريقه لتولى المنصب، زار صديقًا له وهو فينياس ميللر، الذى كان يدير مزرعة فى جورجيا، تملكها أرملة اللواء ناثانيال جرين. ورأى ويتنى هناك القطن وهو مزروع للمرة الأولى. وسرعان ما كاتب أباه بأنه «سمع . . . الكثير عن صعوبة حلج القطن . . . ويوجد عدد كبير من السادة المهذبين المحترمين الموجودين لدى السيدة جرين أجمعوا على أنه إذا ما كان يمكن اختراع آلة تنظف القطن فى سرعة، سيكون ذلك شيئًا رائعًا بالنسبة للبلد وللمخترع. . . ووجدت نفسى لاإراديًا أفكر فى هذا الموضوع، ووضعت فى ذهنى تصورًا لآلة».

كانت الآلة هى البساطة نفسها. رصع ويتنى أسطوانة دوارة بالمسامير، وجعل بينها وبين بعضها البعض مسافة نصف بوصة. عندما تدور البكرة، تمر المسامير عبر شبكة قضبان متصالبة فتسحب نسالة القطن، ولكنها تترك البذور وراءها. وتمسح فرشاة دوارة النسالة من المسامير إلى داخل قسم مستقل، بينما تسقط البذور فى قسم آخر.

وبفضل آلة ويتنى لحلج القطن، استطاع العامل أن ينجز فى يوم واحد ما كان يستغرق خمسة وعشرون رجلاً عمله لمدة خمسة وعشرين يومًا من قبل. كانت المنفعة الاقتصادية من الاختراع واضحة جلية، لدرجة أن النموذج الأول لويتنى سرق، لكنه

تلقى براءة اختراع عن نموذج جديد معدل اخترعه فى العام التالى. وأنشأ بمشاركة فينياس ميللر مصنعًا لتصنيع آلات حلج القطن بالقرب من نيو هيڤين فى كونيكتيكت.

لسوء حظ ويتنى وميللر، أدى اتصاف مفهوم آلة حلج القطن بالبساطة الشديدة لجعل أى نجار كفء يمكن أن يصنع واحدة خلال فترة ما بعد الظهيرة، وثبت أنه من المستحيل تطبيق حماية لبراءة الاختراع بعد أن تسربت الفكرة وانتشرت على نطاق واسع فى جميع أنحاء الجنوب حيث يزرع القطن، وارتفعت الإنتاجية. قضى ويتنى أعوامًا يناضل خلالها، دعاوى باهظة التكاليف لإثبات انتهاك براءة الاختراع. وضمن حقوقه فقط فى عام ١٨٠٧م قبل وقت قليل من انتهاء مدة براءة الاختراع نفسها.

وسيحصل ويتنى فى نهاية المطاف على ١٠٠ ألف دولار فقط ـ ولتكن متأكدًا من أن هذا المبلغ يعد ثروة محترمة بمقاييس بدايات القرن الثامن عشر ـ من اختراع غير العالم حرفيًا. ولم يأت معظم هذا المبلغ من عائدات الاختراع، وإنما من حكومات الولايات الممتنة له. فقد صوتت حكومة كارولاينا الجنوبية على منح ويتنى ٥٠ ألف دولار من خزانة الولاية لتغطية نفقات دعاوى انتهاك براءة الاختراع، وفرضت كارولاينا الشمالية ضريبة على القطن لمدة خمس سنوات لتعويضه، مما در عليه حوالى ٣٠ ألف دولار. واقتطعت تينيسى ١٠ آلاف دولار، وأعطتها له.

ويعتبر أثر آلة حلج القطن على اقتصاد الجنوب، وبالتالى على الولايات المتحدة كلها مهولاً. فى عام ١٧٩٣م أنتجت الولايات المتحدة نحو خمسة ملايين رطل من القطن، كلها تقريبا من نوعية جزر سى آيلاند. ويعتبر هذا أقل من ١ بالمئة من إجمالى محصول القطن بالعالم، الذى كان يأتى معظمه من الهند. وبحلول العقد الأول من القرن التاسع عشر، ازداد الإنتاج الأمريكى، بفضل آلة الحلج، إلى ثمانية أمثال ليبلغ ٤٠ مليون رطل. ووصلت الصادرات الأمريكية السنوية من القطن إلى بريطانيا إلى حوالى خمسين ألف بالة.

وظل إنتاج القطن يتضاعف سنويًا فى المتوسط، ليصل إلى اثنين مليار رطل فى عام ١٨٦٠م. وكانت الولايات المتحدة قد بدأت فى إنتاج نحو نصف الإنتاج العالمى من

القطن. وارتفعت النسبة المئوية بعد انقضاء عقدين إلى ما يقرب من ٧٠٪، يصدر ثلاثة أرباعه.

واتضح أن أفضل مكان فى العالم لزراعة القطن هو ولايات الجنوب الشرقى. وفى الوقت الذى يمكن فيه زراعته على نحو مربح جداً فى منطقة پييدمونت فى كارولاينا الجنوبية وجورجيا (موقع أحداث «فيلم ذهب مع الريح»)، إلا أن مملكة القطن تحققت فعلا فى تربة آلاباما الغنية ذات الحزام الأسود والتربة العميقة المليئة بالطمى فى دلتا نهر المسيسيبى، حيث ازدهر القطن، كما لم يحدث فى أى مكان آخر على الأرض.

ومع بدء انفتاح هذه المناطق الجديدة فى مجال زراعة القطن أخذ مكان إنتاج القطن ينتقل فى اتجاه الغرب. احتلت كارولاينا مكانة الولاية القائدة فى إنتاج القطن حتى عشرينيات القرن التاسع عشر، عندما حلت محلها جورجيا ليحل محلها ولايتا آلاباما والميسيسيپى بعد مضى عقد واحد. وسرعان ما أصبحت لويزيانا أيضًا منتجًا رئيسيًا للقطن، وكانت هذه الولايات الخمس تنتج ثلاثة أخماس القطن الأمريكى مع نشوب الحرب الأهلية. لذا لم تكن مصادفة بأى حال من الأحوال أنها إلى جانب ولايتى فلوريدا وتكساس المنتجتين للقطن، أولى الولايات التى تنفصل عن الاتحاد بعد انتخابات ١٨٦٠م.

وبالرغم من أن سعر القطن، بفضل آلة حلج القطن، هبط بما يكفى ليصل إلى السوق الموسعة إلا أنه ظل محصولا يحتاج إلى العمالة الكثيفة، فهو يتطلب حوالى ٧٠٪ عمالة أكثر فى الفدان لإنتاج محصول الذرة. ويرجع أحد الأسباب فى ذلك إلى أن للقطن قابلية شديدة للإصابة بالعشب الضار. ولابد أن تعزق الأرض التى يزرع فيها بشكل منتظم. ضرب القطن بالفأس، كما كانوا يسمونه، عمل مضن يقصم الظهر فى الحر اللاهب فى صيف الجنوب. لكن كانت هناك جموع ضخمة من العمالة المكرهة متوافرة لأداء هذا الجهد: العبيد. وكما رأينا أن العبودية كانت قد بدأت تنحسر فى أواخر القرن الثامن عشر، بعد أن تغير الرأى العالمى ضدها بشكل أكثر حزمًا.

لقد ألغى الرق بعد أن اندلعت الثورة بقليل. وليس مدهشًا أن المناطق التى لا يسهم العبيد فى اقتصادها بنصيب وافر هى أول من ألغته. فعندما أعلنت ڤيرمونت استقلالها

عن بريطانيا فى عام ١٧٧٧م، ألغت الرق أيضًا؛ لتصير أول مكان فى نصف الكرة الغربى ليجعل من تجارة وامتلاك العبيد شيئًا يحظره القانون. وسرعان ما حذت ولايات أخرى شمالية حذوها. حتى نيويورك، التى كان بها تسعة عشر ألفًا من العبيد فى عام ١٧٩٠م، أى نحو ٥,٥ ٪ من إجمالى سكانها، شرعت فى عملية مساواة تدريجية فى عام ١٧٩٩م، وبحلول عام ١٨٢٧م حررت جميع العبيد الموجودين بها. وحظر قانون منطقة الشمال الغربى[1] الرق فى المناطق الواقعة شمال نهر أوهايو عام ١٧٨٧م.

وفى الجنوب، صار إعتاق العبيد صيحة رائجة، وأعتق الكثير من أصحاب المزارع الكبرى، ومن بينهم جورج واشنطن، عبيدهم عند وفاتهم كملاك لهم. ووجد المؤتمر الدستورى فى عام ١٧٨٧م أنه من الضرورى لكى يجرى التوصل إلى اتفاق ألا يمنع حظر تجارة العبيد قبل عالم ١٨٠٨ فحسب، لكن جعل هذه الفقرة غير قابلة للتعديل أيضا. ولكن بحلول عام ١٨٠٨م مال الرأى العام، حتى فى الجنوب، ضد هذه التجارة إلى الدرجة التى جعلت الكونجرس يحظرها بمجرد ما تمكن من ذلك بشكل قانونى، فى أول يناير من ذلك العام. (إن إلغاء تجارة الرق وتنفيذ حظر فعلى عليها بالطبع شيئان مختلفان. وستكون هذه هى المهمة الأولى لسلاح البحرية لمعظم السنوات الخمسين التالية.) وأخذ سعر العبيد ينهار طوال معظم أواخر القرن الثامن عشر.

غير القطن كل هذا. بعد عام ١٧٩٣م اتجه سعر العبد إلى الارتفاع. كان العبد الذى يباع بسعر ٣٠٠ دولار قبل آلة حلج القطن صار يباع بألفى دولار وأكثر بحلول عام ١٨٦٠م. وبات ملاك العبيد، الذين يملكون أصلاً تتزايد قيمته، أقل فأقل نزوعًا إلى ترك ما أضحى استثمارًا رأسماليًا هائلاً فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر. وحتى الأجزاء الواقعة خارج منطقة زراعة القطن فى الجنوب صارت متورطة اقتصاديًا بعمق فيما أطلق عليه فيما بعد «مؤسسة الجنوب الفريدة» فمع تضاؤل أهمية التبغ

(١) منطقة الشمال الغربى: هى منطقة شاسعة كانت تخضع لفرنسا، ثم أصبحت من أملاك بريطانيا بعد اتفاقية باريس عام ١٧٦٣ وطمعت الولايات المختلفة فى ضمها إلى أراضيها، ثم أصدر الكونجرس الثانى قرارًا بخضوعها إليه، ثم تمخضت عنها ولاية أوهايو فى عام ١٨٠٣.

لاقتصاد ولايات مثل ڤيرجينيا وماري لاند، بدأت هذه الولايات فى بيع فائض العبيد لديها لولايات القطن الجديدة. وفيما بين عامى ١٧٩٠ و١٨٦٠م بيع للجنوب نحو ٨٣٥ ألف عبد.

وفى الوقت الذى وجد فيه الرق فى جميع أنحاء الجنوب، إلا إنه لم يكن منتشراً بين السكان. ففى عام ١٨٦٠م كان سكان الجنوب يزيدون على ثمانية ملايين، كان من بينهم٦٣٧, ٣٨٣ملاك عبيد فقط. ومن بين هؤلاء امتلك ٢٢٩٢ أكثر من مائة عبد. لكن الرق غدا مربوطًا بجذور هوية الجنوب وأسلوبه فى الحياة. وظل الجنوب إلى حد كبير مصدراً للمواد الخام، بينما أخذ اقتصاد الشمال فى التنوع الشديد. حتى المضاربة فى قطن الجنوب تجرى إلى حد كبير عبر نيويورك. وبسبب الرق، أخذ المهاجرون المهرة فى الانجذاب إلى الشمال، حيث تتوافر الفرص على نحو أكبر. بينما اكتسب مواليد الشمال الأحرار ورأس ماله البشرى المهارات اللازمة فى العالم الصناعى الجديد الذى أخذ يتشكل فى البلدان المتقدمة. ظل اقتصاد الجنوب اقتصاداً زراعيًا إلى حد كبير ومصدراً للمواد الخام للاقتصادات الأكثر تقدمًا عنه فى أماكن أخرى.

إن إنتاج القطن فى الجنوب الشرقى يمكن أن ينمو بسرعة كبير فقط ليتناسب مع الطلب المتزايد على القطن عبر المحيط الأطلنطى. وأضحى نسج القماش، بعد أن كان مهمة منزلية منذ فجر التاريخ، هو الصناعة الأولى العظمى فى أواخر القرن الثامن عشر. كان القطن فى مطلع القرن الثامن عشر نسيجًا فاخراً؛ لأن إنتاجه يتطلب عمالة كثيفة. ويتميز النسيج القطنى بالتواءة طبيعية تجعل من غزله يدويًا أكثر صعوبة مقارنة بالصوف والكتان وحتى الحرير. ويتطلب أن تقضى امرأة (كان معظم العاملين فى غزل الخيط دومًا من النساء ـ ومن هنا جاءت كلمة spinster، والتى صارت تعنى العانس) فترة تصل إلى عشرين يومًا لتغزل رطلاً واحداً من الخيط.

وكانت عملية الغزل تؤدى فى المنزل بنظام البيع بالآجل. ويعطى صاحب المشروع بموجب هذا النظام العمال المواد اللازمة ثم يدفع لهم الثمن بالقطعة عند الانتهاء منها. ويقتضى إخراج نول واحد أربع غازلات، فى المتوسط. لكن ظهور اختراع جون كاى المكوك السريع فى عام ١٧٣٣م أفسد التوازن؛ لأنه عجل كثيراً من عملية الغزل. واستدعى إعادة التوازن إما زيادة عمال الغزل أو إيجاد وسيلة سريعة للغزل.

وفى عام ١٧٦٤م قدم جيمس هيرجريفز آلة للغزل، التى كانت تستطيع أن تغزل ثمانية خيوط فى وقت واحد، ثم عدلها جيمس آركرايت بالإطار المائى، والذى سمى بهذا الاسم؛ لأنه يستمد طاقته من سواقى المياه. وأدت هذه الميكنة إلى توافر الخيوط والآن للتعجيل بعملية الغزل، ابتكر القس المبجل إدموند كارترايت النول الكهربائى فى عام ١٧٨٥م. واقتضت هذه الآلة الجديدة تحولا من الإنتاج المنزلى بطريقة الدفع الآجل بالقطعة إلى الإنتاج داخل مصنع بعمال يتلقون أجوراً بالساعة.

وزاد إنتاج الأقمشة القطنية بشكل هائل. فى عام ١٧٦٥م جرى غزل خمسمائة ألف رطل من القطن لتتحول إلى خيوط فى بريطانيا، غالبه داخل المنازل. وبعد عشرين سنة جرى غزل ستة عشر مليون رطل، معظمه فى المصانع. وهبط سعر الأنسجة القطنية هبوطًا شديد العنف، مما تسبب فى حدوث ارتفاع مفاجىء فى الطلب. فأدى ذلك بدوره إلى ارتفاع سعر القطن الخام حتى ظهر اختراع ويتنى فحل مشكلة الحلج وجعل من إنتاج قطن الأراضى المرتفعة رخيصًا. وفى هذه الحالة، صار ممكنًا ارتفاع إنتاج القطن الأمريكى وإنتاج القماش البريطانى.

وبانتهاء فترة ما بعد الحرب الأمريكية البريطانية (عام ١٨١٢)، هيمن القطن على اقتصاد كلٍّ من بريطانيا والولايات الجنوبية، وبدا أن الاقتصادين مرتبطين ارتباطًا لا ينفصم. وعلقت مجلة الإيكونوميست البريطانية فى عام ١٨٥٥م على هذا الأمر «لتتعرض الولايات المتحدة لأية هزة اجتماعية أو مادية كبرى، وستحس بريطانيا بهذه الصدمة من لاندز إند حتى جون أوجروتس[١]. إن أرواح حوالى مليونين من أبناء بلدنا تعتمد على محاصيل القطن الأمريكى؛ يمكن القول، بدون أدنى مبالغة، بأن مصائرهم تتوقف على خيط. إذا ما وقعت كارثة شنيعة على أرض القطن، ستبلى ألف سفينة من سفننا التجارية فى الميناء من البطالة. وسيتعين إغلاق عشرة آلاف وحدة إنتاج نول؛ وسيتضور ألفا ألف فم، افتقادا للغذاء لإطعامهم».

(١) لاندز إند حتى جون أوجروتس: لاندز إند هى أقصى طرف فى جنوب غرب إنجلترا، أما جون أوجروتس هى أقصى طرف فى شمال شرق سكوتلندا، والمعنى من أقصاها إلى أقصاها، وهى أطول مسافة بين نقطتين فى بريطانيا، وتبلغ ١٤٠٥ كيلومترات.

وكان الجنوب فى غضون ذلك معتمداً بشكل متساو على السوق البريطانية، لكن الجنوب بدأ يحس على نحو متزايد بأنه فى موقع قوة، بخاصة فى خمسينيات القرن التاسع عشر، عندما أخذت أسعار القطن ترتفع. وتساءل السناتور جيمس هنرى هاموند من كارولاينا الجنوبية «ما الذى سيحدث إذا توقف الإمداد بالقطن لمدة ثلاث سنوات ؟ إنى لن أتوقف عند وصف ما الذى يمكن أى منكم أن يتخيله، لكنه محقق: ستنقلب إنجلترا على رأسها وهى تجر معها العالم المتحضر بأكمله، عدا الجنوب. كلا، إنك لا تجرؤين على شن حرب على القطن. لا توجد قوة فى الأرض تجسر على شن حرب علينا. القطن هو الملك. حتى وقت قصير كان بنك إنجلترا هو الملك؛ لكنها [أى إنجلترا] حاولت كالعادة أن تضع العراقيل، فى الخريف قبل الماضى، على محصول القطن، ودحرت تماما. لقد غلبت آخر القوى. من الذى يساوره شك، بعد أن تأمل الأحداث الأخيرة، فى أن القطن هو السيد ؟».

لقد جعلت أهمية صادرات القطن بالنسبة للاقتصاد فى الجنوب وحاجته إلى استيراد أغلب السلع المصنعة، جعلت من الجنوب خصمًا طبيعيًا للتعريفات العالية، المصدر الرئيسى للعائدات الفيدرالية فى القرن التاسع عشر. لكن بسبب القطن تحديداً، أضحى الشمال، وبخاصة نيو إنجلند، المناصر الطبيعى للتعريفات العالية. وستثبت التعريفات أنها بمثابة الحد الرفيع للإسفين الذى سيشق قسمى الاتحاد بعيداً عن بعضهما البعض.

عندما تولى جورج واشنطن منصبه رسميًا كرئيس يوم ٣٠ أبريل ١٧٩٨م، كان يرتدى بزة بنية بها أزرار فضية اللون، وجوربين أبيضين وحذاءً ذا مشبك فضى. لكنه عنى بأن تكون الأقمشة أمريكية الصنع، فقد نسجت فى هارتفورد بولاية كونيكتيكت. وأراد واشنطن، الذى كان واعيًا بالرموز، مثلما يعيها ويهتم بها الساسة دومًا، أراد تشجيع التصنيعات الأمريكية، كما كان يطلق حينئذ على السلع المصنعة، وبالفعل كانت كل الأقمشة ذات الجودة العالية فى ذلك الوقت تأتى من إنجلترا.

لكن التصنيع فى مجال صناعة النسيج البريطانية فى العقود الأخيرة، منح بريطانيا ميزة تنافسية لا تُبارى، وعمدت بريطانيا إلى الحفاظ على ذلك. وكان تصدير آلات النسيج محظورا بصرامة. إذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تطور صناعة منسوجات

فعليها تحقيق ذلك بالاعتماد على ذاتها، وبالتالى فكان أمامها خياران. يمكنها إعادة اختراع ما عد فى ذلك الوقت تكنولوچيا متقدمة، أو تسرقه. كان من غير المرجح انتهاج الخيار الأول؛ لأن الولايات المتحدة تفتقر إلى الأشخاص الذين لديهم دراية بالتفاصيل الدقيقة العويصة لتصنيع النسيج.

لذا، فلا بد من سرقتها. وبالرغم من أنه حظر على الصحف البريطانية طباعتها، كان يجرى تداول الإعلانات السرية ـ وهى شكل مبكر من المنشورات التى تناهضها الرأسمالية السرية Samizdat [1] ـ باليد فى مقاطعات ميدلاند، إنجلترا، وتعرض فيها تقديم مكافآت كبيرة لأى شخص مستعد وقادر على إقامة آلات نسيج فى الولايات المتحدة. ومما لا شك فيه أن شخصًا واحدًا أدرك هذه الإغراءات يدعى صموئيل سلايتر، الذى ولد فى بلبر بمقاطعة ديربيشير، فى عام ١٧٦٨م فى قلب المنطقة التى تزدهر فيها صناعة النسيج. وتتلمذ سلايتر كصبى فى عام ١٧٨٢م على يد جديدياه سترتس، وهو مالك لمصنع نسيج فى بلبر، ويعد واحدًا من أوائل الذين كونوا ثروة من التكنولوچيا الجديدة.

وانبهر سلايتر بالآلات وكان عادة ما يقضى عطلات أيام الآحاد فى المصنع يدرس الآلات وليتعرف على طرق عملها. وعندما كان مراهقًا، اخترع طريقة للف الخيوط المغزولة حديثًا بشكل متساو على أعمدة الدوران. وأعطاه سترتس مكافأة مقدارها جنيه، وهى توازى أجر جزء كبير من العام بالنسبة لصبى متدرب. وأظهر سلايتر أيضًا موهبة فى الإدارة كذلك. فسرعان ما بدأ فى الاشراف على المصنع وإصلاح وتركيب الآلات.

وعندما انتهت فترة تدربه فى عام ١٧٨٩م، أراد سلايتر أن يقلد أستاذه السابق ويصبح مالكًا لمصنع، لكن افتقاره لرأس المال جعله يدرك أن فرصه أكبر فى تحقيق هدفه فى الولايات المتحدة، حيث سيكون الطلب هناك كبيرًا على مهاراته، عنه فى بلده. وأمرته مصلحته الذاتية بأن يعبر المحيط الأطلنطى. ولكن المشكلة كانت فى كيفية الوصول إلى هناك. فإلى جانب حظر بريطانيا تصدير آلات النسيج أو حتى رسوماتها، لم يسمح لأولئك الذين لديهم خبرة فى صناعة النسيج بالهجرة.

(١) كلمة روسية تعنى النسخ والتوزيع السرى للأدب الذى تحظره الدولة فى الاتحاد السوفييتى سابقًا.

لكن سلايتر أعد بعناية خطة محكمة، وقبل أن يترك العمل لدى سترتس، كان حفظ عن ظهر قلب كل تفصيلة فى الآلات التى أشرف عليها. ولمعرفته بيقظة مسئولى الجمارك البريطانيين، احتفظ بنياته سراً بين ضلوعه إلى الدرجة التى لم يخبر فيها أمه عما ينتوى أن يفعله إلى أن بعث إليها برسالة من لندن، قبل ساعات من إبحاره إلى نيويورك، وهو مقيد فى بيان الركاب على أنه عامل زراعى.

وصل إلى العالم الجديد فى ١١ نوفمبر ١٧٨٩م، وسرعان ما سمع بأن موسيز براون، وهو من طائفة «الكويكرز» فى بروفيدانس بولاية رود آيلاند (سميت جامعة براون على اسم عائلته فى عام ١٨٠٤م)، يمتلك بعض آلات الغزل التى لا يستطيع أن يجعلها تعمل. وكتب إلى براون يعرض خدماته. لم يتمالك براون نفسه من الفرحة. «إننا نفتقر إلى شخص له دراية بالغزل عن طريق الإطار المائى. . . . وإذا كان وضعك الحالى لا يتوافق مع ما طمحت إليه . . . تعال واعمل [معنا] ودع الفضل ينسب إليك إلى جانب ميزة الإنتاج المتقن لأول طاحونة مائية فى أمريكا». قدم إلى سلايتر كل الأرباح فوق الفائدة على رأس المال ونسبة هبوط قيمة العملة، وهى صفقة ما كان سلايتر ليحققها أبداً فى ديربيشير.

أصيب سلايتر بخيبة الأمل عند وصوله إلى بروفيدانس إثر اكتشافه أن آلات الغزل الخاصة ببراون لا ترجى منها فائدة. ومع هذا عرض فى المقابل أن يصنع آلات جديدة من الصفر. وخلال الاثنى عشر شهراً التالية، صنع سلايتر كل المستلزمات الميكانيكية التى يحتاجها مصنع الغزل. وكانت عملية شاقة فى ظل انعدام دراية النجارين وفنيى الآلات الأمريكيين التامة بأجهزة النسيج، وعند مرحلة ما فقد سلايتر الأمل إثر رفض ماكينة تعمل بالبطاقات المثقوبة العمل. لكن فى ٢٠ ديسمبر ١٧٩٠م، فتح أول مصنع لغزل القطن فى الولايات المتحدة أبوابه للعمل، وبدأت الثورة الصناعية الأمريكية.

كتب براون إلى وزير الخزانة ألكسندر هاميلتون فى هذا الشأن، والذى رفع بدوره تقريراً بعنوان «تقرير عن التصنيعات» إلى الكونجرس فى العام التالى، ذكر فيه أنه «يمكن إقامة المصانع والآلات فى أماكن مختلفة خلال عام واحد بحيث تصنع خيوط الغزل التى تحتاجها الولايات المتحدة بالكامل». كانت هذه مبالغة كبيرة بالطبع. لكن مصانع القطن سرعان ما بدأت فى الانتشار فى نيو إنجلند، التى توفر أنهارها الكثيرة

الصافية سريعة التدفق طاقة جاهزة. أصبح براون وسلايتر (وويليام أولمى ابن خال براون) شركاء عند تشييد أول مبنى مصمم ليصبح مصنعًا للغزل فى عام ١٧٩٣م، وصار سلايتر رجلا ثريًا. كما تزوج ابنة ويليام أولمى، هانا، التى صارت أول امرأة تحصل على براءة اختراع أمريكى، فى مجال تحسين خيوط الغزل. ومع وفاة سلايتر فى عام ١٨٣٥م، صارت نيو إنجلند ثانى أكبر مركز لصناعة النسيج فى العالم.

وقبل عامين، زار الرئيس أندرو جاكسون سلايتر، خلال جولة له فى نيو إنجلند، وأنعم عليه بلقب «أبو التصنيعات الأمريكية».

تميزت نيو إنجلند، إلى جانب كثرة أنهارها سريعة التدفق اللازمة لدفع سواقى الماء التى تمد المصانع الجديدة بالطاقة، بميزة أخرى نسبية مع بدء القرن التاسع عشر: مصدر للعمالة الجاهزة والرخيصة والراغبة فى العمل. كانت نيو إنجلند دائمًا منطقة الزراعة فيها هامشية، فهى ذات تربة رفيعة ورملية عادة ومناخ قاس. لكن الزراعة كانت ضرورة مادام معظم الغذاء ينتج محليًا، بسبب ارتفاع تكاليف النقل.

أخذ أبناء المزارعين فى نيو إنجلند يهاجرون غربًا، إلى ولاية نيويورك ثم إلى ما وراءها بعد ذلك. وبمجرد شق قناة إيرى، بدءوا فى التدفق على الأراضى الزراعية الخصبة فى منطقة الشمال الغربى القديمة فيما يعرف باسم شتات نيو إنجلند. لكن شقيقات هؤلاء المهاجرين ظللن حبيسات منازلهن مع تضاؤل فرص زواجهن كلما كبرت أعمارهن. ولذا فإن ظهور المصانع بمحاذاة ضفاف أنهار نيو إنجلند فى ذلك الوقت، لاقى ترحيبًا على أنه وسيلة للهروب من الكآبة والوحدة التى تفرضها الحياة الزراعية فى نيوإنجلند، التى ستسترجعها بألمعية شديدة الأديبة إديث وورتون فى روايتها «إيثان فروم».

واستأجرت هذه المصانع الشابات الوحيدات بأعداد ضخمة، ووفرت لهن عنابر للمبيت تحت إشراف صارم من سيدات قيمات. وكان حضور الكنائس إجباريًا إلى جانب فصول عن موضوعات متنوعة. ويذكر أن الكثيرات ممن أصبحن مدرسات وأمينات مكتبة ومصلحات اجتماعيات فى نيو إنجلند فى القرن التاسع عشر تلقين تعليمهن الرسمى كعاملات فى هذه المصانع. وبالطبع بالرغم من يقظة وتنبه القيمات، عثرت الكثيرات منهن على أزواج وذهبن ليؤسسن عائلات.

وحول مصنع صموئيل باتلر، المبنى على نهر بوتاكت فى ولاية رود آيلاند، أنسجة القطن إلى خيوط، ثم حول الخيوط إلى نساجين منزليين لتحـول إلى قمـاش. حتـى فى إنجلترا، كان الغزل والنسيج عمليتين تنجزان فى مصانع منفصلة. لكن فى عام ١٨١٤م خطا فرانسيس كابوت لويل خطوة إضافية وبنى مصنعًا فى وولثام بولاية ماساتشوستس، بدأ ببالات القطن وحولها أقمشة جاهزة وجعل صبغ الأقمشة يتم فى نفس المبنى. كان هذا هو أول مشروع متكامل تمامًا لتصنيع النسيج فى العالم.

لم يكن هذا بطبيعة الحال بلا أية سوابق كلية. فقد ابتكر أوليفر إيفانز، وهو واحد من أوائل المخترعين العظام فى هذا البلد، مطحنة متكاملة للدقيق، وهو مفهوم مذهل بحق. كانت مطاحن الدقيق تستخدم الطاقة الناجمة عن تدفق الماء منذ العصور الوسطى. لكن الطحن فقط هو الذى كان يحتاج إلى الطاقة المستمدة من السواقى، أما كل شىء آخر من نثر ونخل الطحين إلى التعبئة كان ينفذ بأيد بشرية. صمم إيفانز سلسلة من نواقل الحركة، باستخدام مصاعد مقسمة إلى دلاء وناقلات بتروس، مستمدة طاقتها من السواقى، التى كانت تحرك الحبوب والجريش والدقيق من عملية إلى أخرى، وعلى هذا النحو حول إيفانز مطحنة الدقيق إلى ماكينة: تسكب الحبوب عند نقطة لتخرج براميل الدقيق من النقطة الأخرى. لم تحتج العملية بكاملها إلى عمالة بشرية باستثناء ضبط وصيانة ومراقبة.

وفى الوقت الذى يتطلب فيه مصنع القطن عددًا أكبر بكثير من العمالة البشرية، شيد فرانسيس كابوت لويل مصنعه على نفس المنوال. ولد فى نيوبيريبورت بولاية ماساتشوستس لأسرة من الأسر ذات المكانة العريقة على مستوى الولاية، والتحق بجامعة هارفارد وهو فى الرابعة عشر من العمر، وبعد التخرج عمل، مثل الكثير جدًا من أبناء نيو إنجلند فى ذلك الوقت، فى مجال تجارة الأوراق المالية.

وتعد التجارة منذ وقت مبكر مصدر معظم الثروات الأمريكية الكبرى منذ تكوين المستعمرات، وظل هذا ساريًا حتى تسعينيات القرن الثامن عشر. فقد صار إلياس ديربى من مدينة سالم بولاية ماساتشوستس، وهو مالك للسفن، أول مليونير فى هذا العقد، وامتدت تجارته بعيدًا حتى الصين. كما بدأ جون جيكوب آستور أيضًا فى

التجارة مع الصين ـ وهى سوق مربحة للفراء ـ وعادة ما كان يحقق أرباحًا تبلغ ٥٠ ألف دولار فى الرحلة الواحدة.

وكما أشير من قبل، كانت الحروب التى اندلعت بسبب الثورة الفرنسية فى أوروبا عام ١٧٩٣م، فرصة ذهبية للتجارة الأمريكية. لكن مع تعمق الحرب الأوروبية، أخذ كل طرف يحاول تعطيل تجارة الآخر عن طريق فرض قيود على سفن الشحن المحايدة والاستيلاء على أعداد متزايدة من السفن التى تعتبر منتهكة. واستولت بريطانيا على ٥٢٨ سفينة أمريكية، بينما استولت فرنسا على ٣٨٩ سفينة فى الفترة ما بين عامى ١٨٠٣ و١٨٠٧م. بالإضافة إلى أن ضباط البحرية الملكية البريطانية كانوا يصعدون على متن السفن الأمريكية ويقتادون أى بحارة يجهرون بأنهم رعايا بريطانيين بسبب الاحتياج الدائم لبحارة ذوى خبرة.

ضغط الرئيس جيفرسون على الكونجرس لتمرير قانون الحظر، ووقعه فى ٢٢ ديسمبر عام ١٨٠٧م وهو يأمل فى إجبار فرنسا وبريطانيا على احترام حقوق الحياد. ويعد هذا واحداً من أشد المواقف إثارة للانتباه فى تاريخ إدارة الدولة الأمريكية. وبالفعل لم يكن له سابقة تقريبًا فى تاريخ أى بلد. وبموجب هذا القانون حظر على السفن الأمريكية من التعامل فى التجارة الأجنبية ونشرت سفن البحرية الأمريكية لتنفيذه. ولكى تمارس ضغطًا على بريطانيا وفرنسا شنت الولايات المتحدة حربًا على نفسها، وفرضت حصاراً على سفنها.

وخرب قانون الحظر نيو إنجلند التى كانت ماتزال تعتمد بشدة على التجارة البحرية. وهبط حجم الصادرات المشروعة من ٤٨ مليون دولار فى عام ١٨٠٧م إلى ٩ ملايين دولار فى عام ١٨٠٨م، بينما انتشر التهريب بصورة وبائية عبر الحدود الكندية. وفى واقع الأمر، أصبح التهريب سائداً عند بحيرة تشامپلين التى تقطع الحدود، حتى أن الرئيس جيفرسون أعلن أن بالمنطقة عصيانًا.

كان رد فعل كافة المدن الساحلية حاداً إلى الدرجة التى استمر معها القانون لمدة أربعة عشر شهراً فقط، لكن قانون قطع العلاقات الذى حل محله، حظر التجارة مع كلٍّ من بريطانيا وفرنسا، أكبر شريكين تجاريين معنا، وبقيت التجارة الأجنبية الأمريكية فى كساد عميق.

وذهب فرانسيس كابوت لويل إلى إنجلترا فى عام ١٨١٠م بعدما صارت تجارته فى الأوراق المالية خرابًا، وزار مصانع القطن فى لانكشاير. تأثر بشدة مما رآه. احتفظ فى ذاكرته قدر استطاعته بالكثير من التفاصيل، مثل طريقة ترتيب العمال والآلات والتصميمات، عازمًا على أن يبنى مصنعًا لدى عودته إلى الولايات المتحدة. وانخرط لويل، مثلما فعل صموئيل سلايتر من قبله، فيما يسمى اليوم بالتجسس الصناعى، ومثل سلايتر هرب ثمارها إلى خارج إنجلترا. لكنه أيضًا أدخل تحسين على الميكنة بمساعدة فنى ميكانيكا يدعى پول مودى.

ومع الوقت الذى عاد فيه إلى الولايات المتحدة فى عام ١٨١٣م كانت حرب عام ١٨١٢م[١] قد نشبت، وأنهت ما بقى من التجارة الأجنبية الأمريكية، وكان اقتصاد نيو إنجلند قد خارت قواه. وكون لويل شركة بوسطن للتصنيع برأسمال ضخم فى ذلك الوقت وهو ٣٠٠ ألف دولار، والذى سرعان ما تضاعف.

وفى الوقت الذى أدى فيه تعطل التجارة إلى إلقاء نيو إنجلند فى هاوية كساد أكثر عمقًا، أسفر عن نقص على المستوى القومى فى النسيج، وصارت شركة لويل تدر أرباحًا كبيرة جدًا وبسرعة. لكن مع عودة السلام فى عام ١٨١٥م، عادت البضائع البريطانية، بخاصة الأنسجة القطنية الرخيصة القادمة من مصانع لانكشاير. وكانت صناعة المنسوجات فى نيو إنجلند قد اتسعت على نحو عاجل قبل وأثناء أعوام حرب ١٨١٢م عندما لعب قانون الحظر والحصار البريطانى وظيفة تعريفة للحماية الجمركية. توجه أصحاب مصانع المنسوجات، بقيادة فرانسيس كابوت لويل، إلى واشنطن طلبًا للعون بعد تجدد المواجهة مع المنافسة البريطانية (التى هى فى واقع الأمر إغراق البريطانيين للسوق الأمريكية بالأقمشة القطنية الرخيصة).

ما أرادوا الحصول عليه هو تعريفة حماية جمركية فعلية. كان هذا هو أول ما أصبح فيما بعد موكبًا لا نهاية له، موكبًا يستمر حتى يومنا هذا، موكبًا للمصنعين الأمريكيين

(١) حرب ١٨١٢: حرب نشبت بين الولايات المتحدة وبريطانيا ومستعمراتها فى كندا ونوفا سكوشيا. بدأت بإعلان الولايات المتحدة الحرب على بريطانيا لجملة أسباب من بينها احتجاز على الآلاف من البحارة الأمريكيين وتشجيع بريطانيا السكان الأصليين على شن هجمات على الأمريكيين عبر الحدود. واستمرت الحرب من ١٨١٢ حتى ١٨١٥ برا وبحرا.

ساعين به للحصول على حماية من المنافسين الأجانب الذين لمزاياهم النسبية، يمكن أن يبيعوا فى السوق الأمريكية بأقل من المصنعين المحليين ويحققوا ربحًا.

وتتمتع تعريفة الحماية الجمركية دائمًا بمعقوليتها الظاهرية السطحية مما يجعلها جذابة لدى الساسة: تطبيق تعريفة الحماية الجمركية يحافظ على الوظائف ويحمى الأرباح على المدى القصير، وهذا هو كل ما يهم الساسة دومًا ـ المتأهبين لإعادة انتخابهم فى المستقبل القريب. حتى ألكسندر هاميلتون أوصى بها فى«تقرير عن التصنيعات». لكن الحجج المناقضة لها المشروحة باستفاضة فى كتاب «ثروة الأمم» مقنعة اقتصاديًا.

أما الأكثر أهمية، هو أن هذه التعريفة لا يدفعها المنتجون الأجانب؛ إنما المستهلكون المحليون الذين يحال إليهم الثمن. ولا يدفع المستهلكون أسعارًا أعلى للسلع الأجنبية فحسب، ولكن يدفعون أسعارًا أعلى للسلع المحلية أيضًا؛ لأن المنتجين المحليين على الدوام سينتهزون أية ميزة ليرفعوا الأسعار. وتعزل تعريفة الحماية الجمركية جزئيًا المنتجين المحليين من المنافسة، المحرك الأساسى للابتكار وخفض النفقات فى الاقتصاد الرأسمالى.

كانت الجهة التى تعارض فكرة تعريفة الحماية الجمركية هى ممثلى مصالح الشحن البحرى فى نيو إنجلند والجنوب. لكن لويل ومصنعى المنسوجات الآخرين نجحوا فى جعل الكونجرس يفرض رسمًا يبلغ قيمته ٢٥ سنتًا على كل ياردة[1] على الأقمشة القطنية، وهى أول تعريفة للحماية الجمركية فى التاريخ الأمريكى، فى عام ١٨١٦م.

وعند هذه النقطة بدأ ممثلو مصالح الشحن البحرى يفقدون نفوذهم فى الكونجرس، فى الوقت الذى أخذ فيه ممثلو التصنيع فى نيو إنجلند يفوقونهم نفوذًا مع المشرعين المحليين. لكن الجنوب ظل محتشدًا وراء فكرة التعريفات القليلة. وقد خشى الجنوب بعدما صار معتمدًا أكثر منذ أى وقت مضى على استيراد بريطانيا على استيراد فرنسا المتزايد للقطن فى ازدهاره ـ خشى من فرض تعريفات انتقامية. واعتبر الجنوب، الذى هو مستورد كبير للسلع المصنعة، اعتبر التعريفات العالية لا تعدو أن تكون إلا ابتزازًا من جانب رجال الصناعة الشماليين للمستهلكين الجنوبيين.

(١) ياردة: وحدة قياس تساوى واحدًا وتسعين سنتيمترًا ونصف.

لكن الضغط الشمالى ظل يجعل التعريفة تتصاعد حتى أقر الكونجرس فى عام ١٨٢٨م ما أطلق عليه الجنوب ـ المصدر الرئيسى دائما للعبارات السياسية الأخاذة ـ تعريفة الفظاعات.

وأدى هذا مباشرة إلى وقوع أزمة البطلان فى عام ١٨٣٢م، عندما أعلنت ولاية كارولاينا الجنوبية أن للولايات سلطة الحكم بعدم دستورية القوانين الفيدرالية. وأوضح الرئيس أندرو جاكسون أنه سيستخدم القوة ليتأكد من أن القوانين الفيدرالية تلقى التأييد اللازم. وانتهى التهديد بالانفصال عندما أقر مشروع تعريفة جديدة يدعو إلى تخفيض معدلات التعريفة تدريجيًا.

توفى فرانسيس كابوت لويل، الذى كانت صحته معتلة منذ زمن، فى عام ١٨١٧م، لكن المشروع ازدهر وفى عام ١٨٢٣م انتقل إلى موقع على ضفاف نهر ميريماك شمال بوسطن، حيث تتوافر قوة مائية أكبر. وعندما أدمج المكان وحول إلى بلدة فى عام ١٨٢٦، أطلق عليها اسم لويل. لكن شركة لويل لم تكن البتة الشركة المصنعة الوحيدة التى ازدهرت فى ذلك الوقت. وبحلول عام ١٨٢٤م كان يعمل مليونا شخص فى التصنيع. ويمثل هذا العدد عشر أمثال من كانوا يعملون فى هذا المجال منذ خمسة أعوام فقط (ويشكل ثلثى إجمالى سكان الولايات المتحدة وقت اندلاع الثورة أى منذ خمسين عامًا).

لقد صارت الولايات المتحدة قوة صناعية تلى بريطانيا فقط.

* * *

الفصل السادس

الجهد المهول يقهر كل شيء

فى عام ١٧٩١م فرضت الحكومة الفيدرالية ضريبة إنتاج على المشروبات الكحولية المقطرة. ولم يكن هذ بالطبع أمراً يحظى بتأييد فى أوساط منتجى الروم والويسكى العديدين، بالرغم من أنهم كانوا قادرين على أن يحيلوها إلى المستهلكين وقد فعلوا. ولكن الأمر كان شديد الجدية بالنسبة إلى المزارعين فى غرب پنسلڤانيا، ماوراء قمم جبال الآپالشى. وبسبب الافتقار إلى الطرق الجيدة، كانت الوسيلة الوحيدة أمام المزارعين لشحن حبوبهم إلى الشرق هى تقطيرها أولاً لتصبح ويسكى، وبذلك يمنحونها نسبة وزن أقل بكثير بالنسبة للقيمة.

فى يوليو تفجرت المعارضة للضريبة فى شكل عصيان، وأحرق خمسمائة رجل منزل اللواء جون نيڤيل، الذى كان يشغل منصب المفتش الإقليمى على ضريبة الإنتاج. فى ٤ أغسطس أصدر الرئيس واشنطن إعلاناً يأمر فيه المتمردين بالانفضاض، وبتجميع الميليشيا. عندما فشلت المفاوضات، أمر واشنطن بحشد قوة قوامها ثلاثة عشر ألفًا من الجنود بقيادة اللواء هنرى لى ورافق القوات بنفسه حتى مدينة بدفورد فى ولاية بنسلڤانيا. وتلاشى التمرد قبل ظهور هذه القوة الكاسحة. وألقى القبض على اثنين من زعمائها وأدينا بتهمة الخيانة، لكن واشنطن أصدر عفواً عنهما.

ويُذكر اليوم ما أطلق عليه اسم تمرد الويسكى على أنه المرة الوحيدة فى التاريخ الأمريكى التى ذهب فيها القائد الأعلى إلى أرض القتال مع قواته. لكن بالنسبة

لمعاصرى ذلك، جعلت من الواضح أنه بعد إقرار برنامج هاميلتون وبدء تطبيقه، لا توجد مشكلة اقتصادية تواجه البلد أعظم من مشكلة النقل.

كان يوجد بالولايات المتحدة المترامية الأطراف ـ تصل إلى أربع أمثال مساحة فرنسا وعشر أمثال مساحة إنجلترا ـ عدد قليل من الطرق تستحق أن يطلق عليها هذا الوصف. كما أنها كانت بلداً غير مستقر بالفعل، بل أكثر البلاد إنعدامًا للاستقرار على وجه الأرض، وبها سكان يندفعون اتجاه الغرب منذ أن بدأ الاستيطان. كان من بين أسباب الثورة قانون كويبك لعام ١٧٦٤م، الذى مد حدود كندا إلى نهر أوهايو، وحظر الاستيطان غرب جبال الأپالشيا.

وكان الوصول إلى منطقة غرب الجبال قبل الثورة يجرى إلى حد كبير بفضل الأدلاء الهنود الذين عاشوا فى المكان لقرون، مثل طريق «ويلدرنس» أى البرية الذى قطعه دانيال بوون[1] فى أرض كنتاكى، والطريق الذى قطعه عبر كمبرلاند جاپ المؤدى إلى تينيسى. وقد ساهم استخدام البشر البطىء فى توسيع هذه الممرات فى الطرق الوعرة لتصير طرقًا مع قطع المسافرين للأشجار والأدغال لتيسير السبيل أمام عربات السفر. وفى مناطق المستنقعات، كان المسافرون يقطعون الأشجار ويضعونها عبر ممر لصنع ما يسمى بطريق الجذوع المصفوفة بالعرض.

لكن الطرق المبكرة، حتى فى المناطق التى جرى استيطانها، كانت تعج بالأخاديد ومغبرة فى الصيف وملأى ببقع الوحل فى الربيع والخريف. كان الأمر يستغرق عدة ساعات من عربات البضاعة وعربات المسافرين إذا ما استطاعت اجتياز الطرق على الإطلاق، لتقطع فى نهاية المطاف بضعة أميال. كان السفر أثناء فصل الشتاء هو الأسهل عندما تكون الأرض صلبة من التجمد. وذكر الإنجليزى هنرى إدنجتون أثناء سفره غرب ولاية نيويورك فى عام ١٨٢٢م رؤيته «حطام عربة مسافرين أو عربة بضاعة محصورة فى أوضاع بديعة فى حفرة فى طريق منخفض. . . . كيف يتأتى لأى عربة أن تجتاز مثل هذه الكسارات التى تمثلها هذه الطرق الممتدة فى بعض الأحيان لمسافة أربعة أو خمسة أميال، إنه أمر يتعذر على من خبروا بشاعته أن يفهموه».

(١) دانيال بوون: (١٧٣٤ - ١٨٢٠)؛ مغامر وصياد أمريكى، ذاع صيته كواحد من أشهر الأبطال الشعبيين الأمريكيين أثر اكتشافه أرضا مجهولة أطلق عليها اسم كنتاكى وصارت ولاية.

لكن التجارة وليس الهجرة، ودعك من راحة السياح المغامرين، أمثال هنرى إدنجتون، هى التى دفعت إلى تطوير الطرق فى السنين التى أعقبت الثورة. أرادت فيلادلفيا صب ناتج مزارعها الغنية فى مقاطعة لانكستر فى أسواقها وموانئها، بدلاً من أن تراها بأعينها وهى تسافر هابطة نهر ساسكواهانا وخليج تشيزاپيك، ليعود النفع منها على بالتيمور. ولذا صرحت فى عام ١٧٩٠م بإنشاء شركة قطاع خاص لبناء طريق تتقاضى عنه رسوم مرور. وخلافا للطرق الأمريكية السابقة، والتى نشأت إلى حد كبير عن طريق السير عليها، فقد بنى طريق فيلادلفيا ـ لانكستر ذو الرسوم وفقًا لمواصفات محددة، بعرض متساو وطبقات من الأحجار والحصى المسحوق لتحقيق سطح مستو. ويعمل السطح المدور أو «المحدودب» على تصريف المياه سريعًا.

وظهر فى بواكير القرن الثامن عشر مهندس اسكتلندى يدعى جون ماك آدام قد أتقن تكنولوچيا بناء الطرق باستخدام الأحجار والحصى ومنح اسمه لهذه العملية (التى يساء تهجئتها لتصبح (macadam)، التى انتشر استعمالها على نطاق واسع فى الولايات المتحدة وبريطانيا. ومع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر، عندما شرع المهندسون فى خلط الطبقة العليا من الحصى بالقار لمنح السطح طبيعة مقاومة للماء نسبيًا، أطلق على الطرق الذى بنيت بهذه الطريقة مصطلح tarmacadamized أو tar macked.

وحقق طريق فيلادلفيا ـ لانكستر ذو الرسوم نجاحًا ماليًا فوريًا للشركة التى بنته، وأسفر هذا عن البدء فى تنفيذ مشاريع طرق مماثلة فى الولايات الواقعة فى نيو إنجلند ومنتصف الأطلنطى[1] خلال العقود التالية. كما لاحظت الحكومات أنه فى حالة وجود طرق رئيسية ذات رسوم، يعقبها على الفور نمو اقتصادى فى المناطق المجاورة للطرق من حانات وخانات أشبه بالفنادق واسطبلات لرعاية الخيل وتأجيرها وماشابه لسد احتياجات المسافرين.

فى عام ١٨٠٢م اقتطع القانون الذى صدر بتكوين ولاية أوهايو جزءًا من الأموال المتجمعة من بيع أراض عامة لبناء الطرق. وفى عام ١٨١١م، صرح ببناء طريق من

(١) ولايات منتصف الأطلنطى: وهى ولايات نيويورك وپنسلڤانيا وڤيرجينيا وماري لاند وديلاوير ونيوچيرسى.

مدينة كمبرلاند بولاية مارى لاند المطلة على نهر پوتوماك حتى مدينة ويلنج فيما يسمى الآن بولاية وست ڤيرجينيا المطلة على نهر أوهايو. وسيمتد طريق كمبرلاند فى نهاية المطاف بطول الطريق حتى مدينة ڤانداليا بولاية إلينوى، وهى مسافة تقرب من خمسمائة ميل.

وبحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، خدمت شبكة من الطرق المحسنة منطقة جنوب نيو إنجلند ووادى هدسون المنخفض فى نيويورك ونيو جيرزى وجنوب شرق پنسلڤانيا، كما عجلت من وتيرة السفر على نحو عظيم. ففى ثمانينيات القرن الثامن عشر كانت عربة المسافرين تستغرق ما بين ثلاثة إلى ستة أيام فى السفر من بوسطن إلى نيويورك، اعتماداً على حالة الجو. وبحلول عام ١٨٣٠م، استغرقت الرحلة يومًا ونصف يوم. أما فى الجنوب ظلت الطرق بدائية بسبب الاعتماد على أنهار تسهل الملاحة فيها.

وتحسنت العربات أيضًا. ففى بادئ الأمر، كانت عربات المسافرين أفضل قليلاً من عربات الحاصلات الزراعية، مزودة بدكاك وتفتقر إلى اليايات. وكان المسافرون يثبون ويرتدون داخلها مثل النرد فى الطاولة. لكن بعد مضى عقود، تطورت عربة المسافرين لتصبح مريحة أكثر بكثير من ذى قبل، وهى على الشكل المألوف لكل من شاهد أفلام الغرب الأمريكى التى تنتجها هولى وود.

أما السفر للمتعة بدلاً من العمل، فكان تقريبًا غير معروف بالمرة فى المستعمرات، ولكن فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بات شائعًا لدى الأزواج الموسرين القيام بـ «رحلات الزفاف» (كانت شلالات نياجرا مقصداً شعبيًا لهؤلاء). وبدأ الأطباء فى ذلك الوقت فى وصف السفر لتحسين صحة مرضاهم الأكثر ثراء.

لكن بينما ازداد السفر الفردى، ظلت التجارة هى الباعث وراء ازدحام شبكة الطرق الآخذة فى التوسع. وفى عام ١٨٣٦م لاحظ الشاعر رالف والدو إيمرسون «الموكب الذى لا ينتهى» من العربات التى تمر أمام منزله فى كونكورد بولاية ماساتشوستس، المتجهة إلى «كل البلدات فى نيوهامپشير وڤيرمونت». وبحلول عام ١٨٤٠م اتخذ نحو خمسة عشر ألفًا من مهنة النقل وسيلة للكسب فى الولايات

المتحدة، وكانوا ينقلون الناتج الزراعى والبضاعة من وإلى المدن الآخذة فى النمو. وكان الكثيرون يمتهنون هذه المهنة لبعض الوقت، بخاصة فى فصل الشتاءعندما تتوقف الزراعة كلية والطرق تكون فى أفضل حالاتها.

لكن كانت هناك حدود صارمة لما تستطيع عربة يجرها الخيل أن تحمل من البضائع بصرف النظر عن الجودة التى أصبحت عليها الطرق. إن السلع التى تتصف بارتفاع وزنها مقارنة بقيمتها لا يمكن إلا نقلها بالماء ـ إذا ما كانت ستنقل لأية مسافة بعيدة ـ لتباع بشكل مربح. أما الأماكن التى لا تقع بها مجار مائية، فكان لا يوجد أمام عالم ما قبل الصناعة سوى حل واحد لهذه المشكلة: الأنهار الصناعية المسماة بالقنوات.

تعود فكرة القناة إلى العصور الموغلة فى القدم. فقد شقت كلٌّ من الصين وبلاد الرافدين القنوات، وأمر الشاه الفارسى داريوش العظيم بشق (أو ربما بإعادة شق) قناة تربط بين النيل والبحر الأحمر فى عام ٥١٠ ق.م.

غير اختراع الهويس فى منتصف القرن الخامس عشر من إمكانات القنوات، فسمح لها بالمرور عبر أراض أكثر وعورة. وفى منتصف القرن السابع عشر ربطت قناة بين نهرى اللوار والسين، وبنهاية هذا القرن امتدت قناة لانجويدوك فى جنوب فرنسا لمسافة مدهشة وهى ١٤٢ ميلاً، لتربط البحر المتوسط بنهر الجيروند، الذى يتدفق مخترقًا مدينة بوردو ليصب فى المحيط الأطلنطى. وبنهاية القرن الثامن عشر، أضحت بريطانيا مغطاة بشبكة معقدة من القنوات، التى أمر بشقها دوق بريدجووتر، التى يسرت على نحو عظيم حدوث الثورة الصناعية.

كانت الحاجة واضحة لشق القنوات للمساعدة فى تطوير البلاد وخفض تكلفة الكثير من السلع فى الولايات المتحدة الجديدة. وبحلول عام ١٧٩٠م، وبعد مضى عام واحد فقط على وضع الدستور، تلقت ما لا يقل عن ثلاثين شركة تكليفًا لشق القنوات فى ثمانى ولايات من بين الولايات الثلاثة عشر المكونة للاتحاد. ولم يتجاوز بالطبع الكثير منها ما وراء مرحلة التخطيط، وكان معظمها متواضعًا فى طموحاته، يسعى فقط إلى توسيع طول الملاحة فى الأنهار عن طريق الالتفاف حول الجنادل والشلالات. وكان جورج واشنطن لا يمل من الترويج لفكرة شق قناة لتوسيع الملاحة فى نهر پوتوماك، لكنه لم يستطع أن ينتزع تمويلاً من الكونجرس.

كان أول مشروع قناة رئيسى يصل إلى مرحلة التنفيذ فى ماساتشوستس، عندما كلفت الولاية شركة «ميدلسكس كنال» بشق قناة طولها سبع وعشرون ميلاً تربط بين بوسطن وبلدة تشلمزفورد المطلة على نهر ميريماك. وكان من المأمول أن تصب هذه القناة ناتج نيوهامبشير ـ أخشاب وجرانيت وعناصر تصنيع السفن مثل القار وحطب الوقود ـ فى بوسطن.

إن اتخاذ قرار بشق قناة شىء؛ وشقها فعليًا شىء آخر كلية، بخاصة وأن الولايات المتحدة تفتقر تمامًا إلى مهندسين مدربين فى ذلك الوقت. استأجرت شركة «ميدلسكس كنال» لوامى بولدوين وكلفته بالمهمة. لكن فى الوقت الذى قرأ فيه كتبًا عدة عن شق القنوات، إلا أنه لم ير هويس قناة قط، وسرعان ما أقنع الشركة باستئجار رجل إنجليزى، هو ويليام ويستون، الذى له خبرة عملية فى شق القنوات.

طرحت الشركة أسهمًا فى البورصة فى عام ١٧٩٤م، والتى أقبل عليها فى تلهف المستثمرون الذين افتتنوا بالوعود الاقتصادية للتكنولوچيا الجديدة، وكانوا يجهلون المصاعب العملية التى تنطوى على شق قناة وإدارتها بشكل مربح. كانت اللحظة الأولى ـ لكنها لم تكن الأخيرة البتة ـ التى يحدث فيها استثمار تكنولوچى وهمًا فى الولايات المتحدة، حيث طرحت شركة «ميدلسكس كنال» أسهمًا بسعر ٢٢٥ دولارًا للسهم، فارتفع حتى ٤٧٥ دولارًا، بفضل المضاربين، وذلك قبل أن تبدأ الشركة عملها بعشر سنوات كاملة.

وبمجرد ما بدأ استخدام القناة، ساعدت اقتصاد بوسطن والمنطقة التى تخدمها، لكنها لم تحقق أى أرباح. ومع مجىء الوقت الذى تم حل الشركة فيه فى عام ١٨٦٠م، كانت قد أعادت إلى المستثمرين حوالى ٧٥٪ من الأموال التى وضعوها فى المشروع.

عرقلت تكلفة رأس المال العالية للقنوات والافتقار إلى الخبرة الهندسية شق القنوات فى البلد فى الأعوام المبكرة. وبات المضاربون، بعد أن اكتووا مرة، غير متحمسين بالمرة للاستثمار فى مشاريع قنوات جديدة. ثم قررت ولاية نيويورك الشروع فى مشروع شق قناة لم يكن فقط الأكبر من نوعه فى الولايات المتحدة، لكنه أكبر بمرتين من أية قناة فى العالم، بتكلفة متوقعة تضارع الميزانية الفيدرالية السنوية. وسيثبت أن

قناة إيرى الأولى فى قائمة طويلة ومستمرة من المشاريع المهولة ـ خط الأطلنطى للاتصال[1] وخط السكك الحديدية الذى يمر عبر القارة، و جسر بروكلين، وقناة پنما وسد هوڤر والطريق السريع بين الولايات ومشروع أپوللو[2] ـ التى ستصبح جزءاً من التجربة الأمريكية.

وكان هذا المشروع نوعًا من مقامرة اقتصادية جبارة. كان الفشل سيتسبب فى إصابة اقتصاد نيويورك بالشلل لعدة عقود. لكن النجاح سيعمل على ضمان أن تتفوق نيويورك، التى كانت بالفعل فى عام ١٨١٠م أكثر الولايات ازدحامًا بالسكان، على منافسيها مع نمو وتطور الاقتصاد الأمريكى.

ويرجع الفضل إلى سياسى أمريكى عملاق، طواه النسيان الآن إلى حد كبير، هو ديويت كلينتون، فقد حقق المشروع نجاحًا لم يراود أكثر الأحلام جموحًا لأى شخص، بما فيها أحلامه هو ذاته. ستثبت قناة إيرى أنها المشروع الأكثر أهمية فى التاريخ الأمريكى، وسيجعل من نيويورك، كل من الولاية والمدينة، مسمار عجلة الاقتصاد الأمريكى لمدة تزيد على قرن.

كان المسار المؤدى إلى نهر هدسون الذى يقع شمال ألبانى مباشرة، ناحية الغرب عبر فجوة فى جبال أپالاشى، بين جبال أدايرنداك وجبال كاتسكيل، وصولاً إلى البحيرات العظمى، معروفًا منذ العصر الاستعمارى. وقد استخدمه الهنود وتجار الفراء بشكل دائم. ويصل منبع نهر موهوك، الذى ينزلق فجأة فى نهر هدسون عبر سلسلة حادة من الجنادل، تقريبًا إلى منبع وولف كريك، الذى يتجه ناحية الغرب ليلتحم ببحيرة أونايدا. وينساب نهر أوسويجو فى بحيرة أونتاريو من أقصى الطرف الثانى للبحيرة التى يبلغ طولها عشرين ميلاً.

فى وقت مبكر عام ١٧٢٤م اقترح الأيرلندى المولد كادوالادر كولدن، وهو تاجر فى نيويورك وعالم هاو موهوب (وسياسى فى وقت لاحق: كادت الجماهير تشنقه بلا

(١) خط الأطلنطى للاتصال: خط للبرق امتد من أيرلندا حتى كندا أنشىء فى عام ١٨٥٨.

(٢) مشروع أبوللو: برنامج الفضاء الأمريكى (١٩٦١ - ١٩٧٤) الذى استخدمت فيه سلسلة من المركبات الفضائية باسم أبوللو وكان هدفها الهبوط بالإنسان على القمر.

محاكمة كقائم بأعمال الحاكم الاستعمارى أثناء أزمة قانون طوابع الدمغة)، تحسين نحو بحيرة إيرى هذا المجرى لزيادة الإمكانات الاقتصادية به. وفى وقت لاحق اقترح أن تتجه القناة نحو بحيرة إيرى بدلاً من أن تتجه إلى بحيرة أونتاريو. كان يوجد سببان وراء هذا الاقتراح. السبب الأول هو تجنب الحاجة إلى النقل حول شلالات نياجرا للوصول إلى البحيرات العظمى الواقعة وراء بحيرة أونتاريو. وبمجرد الوصول إلى هذه البحيرة من المرجح أن تحبذ حركة الملاحة، على الأقل خلال الشهور الدافئة، السفر هبوطًا عبر نهر سانت لورانس إلى مونتريال والمحيط الأطلنطى بدلاً من استخدام القناة، مهددة حيويتها الاقتصادية.

أما الحجة ضد طريق بحيرة إيرى، فكانت بالطبع أنها ستطيل القناة بشكل كبير جدًا وستزيد بشكل كبير جدًا المصاعب الهندسية التى يتعين التغلب عليها. يبلغ منسوب بحيرة إيرى ٥٦٣ قدمًا فوق نهر هدسون، الذى يقع عند مستوى البحر عند ألبانى (لا يعد هدسون فعليًا نهرًا على الإطلاق إنما هو مصب). لكن ستضطر القناة إذا ما اتجهت غرب بحيرة أونايدا إلى أن تقطع نهرى إيروندیكويوت وجينيسى، اللذين يصبان فى بحيرة أونتاريو، ثم تتجاوز مستنقعًا ضخمًا، تخترق سلسلة تلال صخرية تمتد شمالاً وجنوبًا شرق بحيرة إيرى مباشرة.

أسس فيليب شويلر، حمو ألكسندر هاميلتون، وآخرون بعد الثورة، شركة «هويس غرب داخل البلاد للملاحة» لتحسين الملاحة فى نهر موهوك وبدأوا يؤيدون فكرة حفر قناة. كما أيد الحاكم الثرى وصاحب النفوذ موريس الفكرة، ولكنه كان يخشى من أن «عقولنا لا تتسع لحجم شىء بهذه الضخامة».

لكن ذهن ديويت كلينتون اتسع بسرعة بما يكفى. ولد ديويت فى عام ١٧٦٩م، فى بيت ثراء وجاه (سيصبح عمه حاكمًا لنيويورك ونائبًا للرئيس أثناء ولاية جيمس ماديسون)، وتخرج فى جامعة كولومبيا فى سن السابعة عشر فقط (ألقى خطابًا باللاتينية فى حفل التخرج). وسرعان ما انتخب فى مجلس شيوخ الولاية، وعين سيناتورًا فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة فى ١٨٠٢م. لكنه استقال فى العام التالى ليصبح عمدة مدينة نيويورك، وهو منصب سيظل محتفظًا به طوال السنوات الاثنتى

عشرة التالية. وفى عام ١٨١٠م عينه المجلس التشريعى للولاية فى لجنة القناة المشكلة حديثًا. وعلى الفور صار القوة الدافعة وراء الفكرة.

كان التصميم النهائى مشروعًا رهيبًا. سيمتد لمسافة ٣٦٣ ميلاً عبر ما يزال ما يشبه البرية، وسيتطلب ما لا يقل عن ثلاثة وثمانين هويسًا. كما سيقتضى حفر القناة، بعرض أربعين قدمًا وبعمق أربعة أقدام، حفر وإزالة مالا يقل عن ٤, ١١مليون ياردة مربعة من الطين والصخر ـ أى أكثر من ثلاثة أمثال حجم الهرم الأكبر فى مصر ـ بالأيدى فقط. وبلغت الميزانية المبدئية لمشروع القناة ٦ ملايين دولار، وهو مبلغ يوازى ثلاثة أرباع الميزانية الفيدرالية فى عام ١٨١٠م.

كان من المأمول أن تشارك الحكومة الفيدرالية بنسبة معتبرة من تكلفة ما سيعد أكبر مشروع أشغال عامة فى العالم الغربى منذ الهرم الأكبر. ولكن كلينتون حصل على القليل من التشجيع. وظن توماس جيفرسون، الذى لم يكن مهندسًا متواضعًا ومحبذًا لما كان يسمى فى ذلك الوقت بـ«التحسينات الداخلية» والتوسع ناحية الغرب، ظن الفكرة برمتها سخيفة. ونبه كلينتون إلى أن جورج واشنطن نفسه عجز عن أن يجعل الكونجرس يوافق على تخصيص ٢٠٠ ألف دولار لشق قناة طولها ثلاثون ميلاً عبر ريف ڤيرجينيا المستقر «وأنت تتحدث عن شق قناة طولها ثلاثمائة وخمسون ميلا عبر البرية! إنه لمشروع رائع، ويمكن تنفيذه بعد قرن من الآن. إنه شىء يشابه الجنون للتفكير فيه فى الوقت الحالى».

بددت حرب عام ١٨١٢م أى أمل فى البدء فى تنفيذ المشروع، لكن بعد الحرب انبعث الأمل من جديد فى مشروع شق القناة. وبحلول عام ١٨١٧م، أخذ الرأى العام فى الولاية فى مناصرة المشروع بشدة حتى أن مائة ألف شخص وقعوا على التماس لمجلس الولاية بشق القناة بالرغم من أن خصوم كلينتون كانوا ما يزالون يطلقون عليها «حفرة كلينتون». أما بالنسبة إلى العقبات الفنية التى من المحتم مواجهتها، فيمكن تلخيص السلوك الجمعى للولاية إزاءها بالكلمات اللاتينية الرشيقة للحاكم موريس" Labor improbus omnia vincit" أى «الجهد المهول يقهر كل شىء».

وفى ١٥ أبريل ١٨١٧م، تصرف مجلس الولاية. وافق المجلس على قانون القناة معلنًا أن القناة ستنشر الزراعة والتصنيعات والتجارة، وتخفف من مآسى الحرب،

وتعزز نعم السلام، وتوطد الاتحاد، وتعجل بالرخاء، وتبرز شخصية الولايات المتحدة.

وكان هناك مايزال بعض الأمل فى أن تسهم الحكومة الفيدرالية والولايات الأخرى التى ستنتفع بشكل مباشر، مثل أوهايو، لكن نيويورك كانت مستعدة للمضى قدمًا بمفردها فى المشروع. وقررت الحكومة الفيدرالية والولايات الأخرى أن تدعوها تفعل ما تريد، وذلك ليس مدهشا، وأصدر الرئيس جيمس ماديسون قرارًا بنقض مشروع قرار كان من الممكن أن يوفر تمويلاً.

ويمكن تصور ضخامة مشروع قناة إيرى بالنسبة لولاية نيويورك عندما نذكر حقيقة أن تكلفته النهائية بلغت ٧ ملايين دولار، وهى ما يوازى أكثر من ثلث كافة رؤوس الأموال فى البنوك والتأمينات فى الولاية. وفرضت نيويورك ضريبة على السفر بالسفن البخارية والملح والأرض المحيطة بالقناة لمسافة خمس وعشرين ميلاً لخدمة السندات التى تصدرها، واستثمرت شركتا تأمين مقرهما فى لندن استثمارات كبرى فى المشروع. لكن معظم الأموال جاء من سكان نيويورك، الذين لا يتمتع كلهم، بأى حال من الأحوال، بثروات كبيرة. استثمر واحد وخمسون بالمائة من إجمالى المكتتبين البالغ عددهم تسعة وستين بالمائة فى شراء سندات عام ١٨١٨ بمبلغ ألفى دولار أو أقل. واستثمر سبعة وعشرون بالمائة أقل من ألف دولار.

فى ٤ يوليو ١٨١٧ رفع ديويت كلينتون، الحاكم الذى تولى منصبه حديثًا، أول مجرفة مملوءة بالطين خارج روما فى ولاية نيويورك، وتعهد بانتهاء العمل خلال عشر سنوات.

وأنجز العمل فى ثمانية أعوام.

ولكى يتدفق التمويل، بدأ العمل على الفور فى «المستوى الطويل»، وهى المسافة الواقعة بين سيراكيوز وهيركايمر وتبلغ تسعة وستين ميلاً ونصف الميل، التى لا تتطلب أى أهوسة على الإطلاق. وأراد كلينتون أن تنجز فى سنة، وتم ذلك.

وجرى تشغيل الآلاف من العمال فى شق القناة، ليصل عددهم خمسين ألفا فى وقت الذروة، وكان الكثيرون منهم من السكان المحليين، والكثيرون أيضًا كانوا من

المهاجرين الأيرلنديين والقادمين من ويلز استؤجروا من أرصفة ميناء مدينة نيويورك بكل ما تعنيه الكلمة. وفى الوقت الذى حفرت فيه القناة بالأيدى فحسب، يسرت براعة أهل الشمال المهمة، وجعلتها أقل تكلفة عما يمكن أن تكون عليه. فقد ابتكرت طريقة جديدة لقلع الأشجار، باستخدام المسمار اللولبى والأسلاك المعدنية لجذب الشجرة إلى أسفل. وباستخدام آلة أخرى اخترعت فى موقع العمل، كان يمكن لسبعة رجال ومجموعة من الثيران من جذب ما بين ثلاثين إلى أربعين أجذالا[1] يوميًا.

ومن بين المهندسين الذين علموا أنفسهم بأنفسهم (الذين أطلق عليهم مدرسة إيرى للمهندسين) كان كانفاس وايت. فبدلاً من استيراد الأسمنت الهيدروليكى الباهظ الثمن من أوروبا نقب عن، وعثر على صخر الطراس، وهو نوع الصخر البركانى الذى يعد المكون الرئيسى فى الأسمنت الهيدروليكى.

وبحلول عام ١٨٢١م تم نحو ٢٢٠ ميلاً من القناة، واستمرت حركة النقل بشكل منتظم اجتذبت اهتمام الخارج. وبدأ سوق المال فى لندن فى تقديم استثمارات معتبرة؛ اشترى بنك بيرينج براذرز وحده ما تزيد قيمته على ٣٠٠ ألف دولار من سندات القناة. واستغرق الأمر أربع سنوات لاختراق سبعة أميال من التلال الصخرية بالقرب من لوكبورت، شرق بافالو مباشرة، وبناء سلسلة من خمس أهوسة مزدوجة هناك. وتعد هذه الأهوسة، مجرى العيون العظيم فوق نهر جينيسى فيما يسمى الآن بمدينة روتشستر، والسبع والعشرين هويسًا اللازمين فى الخمسة عشر ميلا الأولى من القناة عند نهر هدسون، التى كان كلٌّ منها مشروعًا هندسيًا، أكبر من أى مشروع نفذ فى الولايات المتحدة.

بحلول خريف ١٨٢٥م أنجز العمل. وفى ٢٦ أكتوبر جاء الحاكم كلينتون ومعه العديد من الشخصيات المرموقة على متن صندل نهرى اسمه «سنيكا شيف» غادر بافالو

(١) أجذالا: جمع جذل وهو ما يتبقى من الشجرة بعد قطع جذعها.

وتقدم بطول القناة، ثم جرى سحبه هبوطًا من نهر هدسون إلى مدينة نيويورك، بينما أقامت نيويورك حفلاً استمر بطول خمسمائة ميل.

وفى ختام الرحلة، ألقيت المرساة عند ساندى هوك فى ولاية نيوجيرزى، عند مدخل الخليج المنخفض من ميناء نيويورك، صب الحاكم كلينتون برميلاً من مياه بحيرة إيرى فى المحيط الأطلنطى. كان زواجًا بين نوعى المياه، وقال كلينتون «لتخليد الاتصال الملاحى بين بحرنا المتوسط والمحيط الأطلنطى». ووصف أحد الخطباء فى ذلك اليوم المشروع بأنه «أطول قناة، فى أقل وقت بأقل مستوى من الخبرة بأقل كم من المال لأعظم فائدة عامة».

وحققت قناة إيرى نجاحًا اقتصاديًا فوريًا ومدهشًا. وكتب مراقب فى وقت مبكر «إذا اتخذت مكانا على أحد الجسور العديدة ستجد أنه مشهد مؤثر كلما تطلعت إلى القناة. فى كلا الاتجاهين، سترى صفوفًا طويلة من القوارب على امتداد البصر. عند هبوط المساء، تعطيك مصابيحها، التى تومض وتخبو، انطباعًا بأنك أمام أسراب من اليراع[1]».

فى عام ١٨٢٥م، استخدم ١٣١٠٠ قارب القناة، ودفعوا رسومًا بلغت نصف مليون دولار، أى أكثر بكثير من المبلغ اللازم لتسديد الدين الناجم عن شق القناة. وفى أقل من عقد سدد الدين، واستخدمت الأموال الفائضة فى العمل على مد قنوات مغذية. ففى العام الأول مر اثنان وأربعون صندلاً فى المتوسط يوميًا عبر يوتيكا، ونقل خلال هذا العام ٢٢١ ألف برميل دقيق و٤٣٥ ألف جالون من الويسكى و٥٦٢ ألف بوشل[2] من القمح. وبلغ إجمالى البضاعة التى شحنت على هذه القناة هذا العام٣٣٤٦٠٥ أطنان. وتضاعف سكان المقاطعات التى تمر بها القناة ثلاث مرات فى بضع سنوات قليلة، لتتحول القرى إلى بلدات والبلدات إلى مدن.

بل إن الأكثر الأهمية هو أن آلاف الأشخاص من الذين يستخدمون القناة لمغادرة حقول نيو إنجلند الصخرية إلى الأراضى الزراعية الغنية فى منطقة غرب الوسط، كانوا

(١) اليراع: نوع من الذباب يضىء ليلاً.

(٢) بوشل: مكيال للحبوب، يساوى ثمانى جالونات.

يرسلون نتاج كدهم عبر القناة فى ظل الهبوط الحاد فى تكلفة نقل السلع شرقًا. كان الأمر يستغرق ثلاثة أسابيع ويتكلف ١٢٠ دولارًا لإرسال طن دقيق من بافالو إلى مدينة نيويورك قبل شق القناة، وهو ما يوازى ثلاثة أمثال تكلفة الدقيق نفسه. وسرعان ما صارت التكلفة ٦ دولارات فقط، واستغرقت ثمانية أيام.

ويعد النقل ما يسميه الاقتصاديون «تكلفة العملية التجارية» وهى تلك التى تضاف إلى تكلفة السلعة بدون إضافة شىء إلى قيمتها الذاتية. وكلما قلت تكاليف العملية التجارية يقل بالطبع السعر النهائى، وبالتالى يرتفع الطلب. وعندما تنحفض تكلفة العملية التجارية بالشكل الهائل الذى أحدثته قناة إيرى بالنسبة لناتج منطقة غرب الوسط عند توصيله إلى مدينة نيويورك، فإن النتائج تكن ذات تأثير بعيد.

فى مثل هذه الحالة تحولت المدينة نيويورك من مجرد أكبر المدن الأمريكية، عاصمة نصف الكرة الغربى. واستشرفت صحيفة «التايمز» اللندنية ما سيحدث مبكرًا فى عام ١٨٢٢م، قبل الانتهاء من قناة إيرى، فكتبت فى هذا العام أن القناة ستجعل من مدينة نيويورك«لندن العالم الجديد». وكانت «التايمز» محقة. فقد منحت قناة إيرى نيويورك لقب ولاية الإمبراطورية إمبراطوريتها التجارية، وجعلت من نيويورك مدينتها الإمبراطورية.

كان تعداد سكان مدينة نيويورك ١٢٣,٧٠٠ شخص فى عام ١٨٢٠م، أى خمسة أمثال ما كان عليه التعداد عند بداية الثورة. لكن فيلادلفيا، التى كانت متقدمة على نيويورك فى عام ١٧٧٦م، جاءت تالية لها بفارق قليل، فبلغ تعدادها ١١٢ ألف شخص. إلا أن قناة إيرى حولت نيويورك أعظم بلدة تشهد انفجارًا سكانيًا عرفها العالم. وبما سكان مانهاتن ليصبحوا ٢٠٢ ألف شخص فى عام ١٨٣٠م، ثم ٣١٣ ألفًا فى عام ١٨٤٠م، ثم ٥١٦ ألفًا فى عام ١٨٥٠م، و ٨١٤ ألفًا فى عام ١٨٦٠م. وأضحى سكان ما يسمى الآن الأقسام الإدارية الخمسة لمدينة نيويورك أكثر من مثلى سكان فيلادلفيا وقت اندلاع الحرب الأهلية. فى عام ١٨٠٠م مر حوالى ٩ ٪ من صادرات البلد عبر ميناء نيويورك. وبحلول عام ١٨٦٠م ارتفعت النسبة إلى ٦٢ ٪ ، بعدما صارت المدينة إلى ما وصفه شاعر بوسطن والطبيب أوليفر وندیل هولمز (والد كبير قضاة المحكمة العليا) على نحو شاكى «باللسان الذى يلعق قشدة تجارة ومالية القارة».

واختلط سكان المدينة حابلهم بنابلهم مندفعين نحو جزيرة مانهاتن ليضيفوا فى المتوسط نحو عشرة أميال من الأرصفة التى جرى تطويرها أخيراً كل عام فى الربع قرن التالى لافتتاح القناة. ولاعجب مما تردد أن جون جيكوب آستور (وهو مستثمر رئيسى فى القناة) وهو على فراش الموت عام ١٨٤٨م، قال: إنه نادم على شىء واحد فى حياته وهو أنه لم يشتر كل مانهاتن. لكنه اشترى منها ما يكفى ليجعل من نفسه أغنى رجل فى البلد بفارق كبير وعائلته ذات ثراء أسطورى لعدة أجيال من بعده.

كان عام ١٨١٧م عاماً ميموناً annum mirabilis بالنسبة لمدينة نيويورك. وليس ذلك بسبب بدء حفر قناة إيرى فحسب، إنما لوقوع تطورين بعيدى التأثير فى نفس العام أيضا. أحدهما هو إنشاء خط بلاك بول (أى الكرة السوداء) لإبحار السفن ذات التوقيت المنتظم. فقبل عام ١٨١٧م إذا رغب شخص ما فى أن يسافر إلى أوروبا فإنه يحجز على سفينة مصممة بالأساس للبضائع ثم ينتظر ريثما تكون السفينة مستعدة للإبحار، وهو ما يحدث عندما يحس القبطان بأن لديه ما يكفى من البضائع لتكون رحلته مربحة، وفى ظل رياح وأجواء مهيئة. ولم يكن غير شائع الانتظار لمدة أسبوع أو أسبوعين بعد الإعلان عن موعد الإبحار قبل أن تبحر السفينة فعلاً فى نهاية المطاف.

كان مصدرو القطن وسماسرة المنسوجات يضطرون للسفر عادة إلى بريطانيا للتجارة، وكان الكثير منهم بريطانى المولد. وكثيراً ما ندموا على الوقت المهدر فى انتظار السفن كى تبحر، وواتت فكرة ثورية ذهن واحد من بين هؤلاء، وهو چيرمايا طومسون، واستهدفت الإقلال من هذا الهدر. اقترح إقامة «خط» من السفن يخضع لإدارة مشتركة تلتزم بجدول منتظم، ودائماً ما تبحر فى الموعد المعلن.

وشكل اتحاداً مع أربعة رجال أعمال آخرين يعملون فى مجال المنسوجات ونشروا إعلاناً فى صحيفة تصدر فى نيويورك فى خريف ١٨١٧م أعلنوا فيه أن «المكتتبين تولوا إقامة خط من السفن بين نيويورك وليڤرپول، ليبحر من كلا الميناءين فى يوم محدد كل شهر طوال العام».

وكانت أول سفينة تغادر نيويورك فى ٦ يناير ١٨١٨م، وهو صندل ضخم، وقد طليت كرة سوداء على شراعها الثانى لتعريفها. وسرعان ما أثبت هذا المفهوم نجاحاً

تجاريًا، إلى الدرجة التى لم ينتشر معها إلى موانىء أخرى فحسب إنما إلى أشكال أخرى من النقل أثناء تطورها، مثل خطوط السكك الحديدية. ويبدو اليوم أن نقل الركاب وفقًا لجداول دورية منتظمة أمر شديد الوضوح للدرجة التى يتعذر معها تصور عالم بدونه، لكن فى زمنه كان ينظر له على أنه عجيبة من العجائب. وكتبت صحيفة «نايلز ويكلى ريجيستر» فى عام ١٨٢٠م «إن مثل هذا الثبات وسرعة الإنجاز لهو أمر مذهل ولو كان فى عصر سابق لكان أمرًا لا يصدق». وأسهم خط بلاك بول لاين بالكثير فى توطيد سمعة نيويورك على أنها الميناء الأبرز فى البلد، سواء بالنسبة إلى نقل الركاب أو شحن البضاعة.

وكان الحدث الثانى ذو الدلالة فى تاريخ نيويورك عام ١٨١٧م هو إنشاء بورصة الأوراق المالية رسميًا. كان شارع وول ستريت الآخذ فى النمو بسرعة منذ تعافى المدينة من ثورة الاستقلال، لكنه كان مايزال يفتقر إلى بورصة أوراق مالية مثل تلك الموجودة فى فيلادلفيا منذ عام ١٧٩٢م. ومع تضاعف الدين القومى ثلاث مرات نتيجة لحرب عام ١٨١٢م، ازداد حجم التبادل فى بورصات الأمة بشكل ملحوظ، لكن معظم هذه الأعمال التجارية ذهبت إلى فيلادلفيا، بفضل بنوكها الضخمة.

أرسل سماسرة نيويورك، الذين ظلوا يعملون بموجب اتفاق بتون وود القديم، سمساراً يدعى ويليام لامب إلى فيلادلفيا لدراسة بورصتها للأوراق المالية. فى ٢٥ فبراير ١٨١٧م اجتمع عدد من سماسرة نيويورك البارزين فى مكاتب صموئيل بيب ووضعوا دستوراً يعد متطابقًا تقريبًا مع دستور بورصة فيلادلفيا. وحضر ثمانية وعشرون عضواً من الأعضاء الأصليين الذين ينتمون إلى سبع شركات فقط، لما أطلقوا عليه اسم مجلس السماسرة، وهو اسم سرعان ما تغير إلى مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة. واستأجروا الطابق الثانى فى مقر بنك نيويورك فى ٤٠ شارع وول ستريت بمبلغ ٢٠٠ دولار سنويًا، ويشمل التدفئة. كانت بداية متواضعة لمنظمة ستغير اسمها فى عام ١٨٦٣م مرة أخرى، لتصير هذه المرة بورصة نيويورك للأوراق المالية.

وازدهر سوق الأوراق المالية فى وول ستريت مع بقية البلد بعد أن شهد انكماشًا حاداً لفترة وجيزة. وأخذ السماسرة، الذين تعاملوا فى التأمين والقطن بل تذاكر

اليانصيب يومًا، إلى جانب الأسهم والسندات، أخذوا يتخصصون الآن فى الأوراق المالية بشكل حصرى.

لكن مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة ظل واحدًا من بين بورصات موجودة فى المدن الرئيسية فى أنحاء البلد، مثل بوسطن وفيلادلفيا وسينسناتى، ولا يفوقهم أهمية. وبالفعل، لم يمثل مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة حتى الحركة التجارية الوحيدة فى شارع وول ستريت. كان الكثير من التعاملات فى الأوراق المالية تحدث فى الشارع نفسه، حيث لعبت أعمدة الإنارة المتنوعة دور أماكن للقاء لإجراء صفقات تجارية غير منظمة.

وكان العمل عادة أقل من نشط، حيث وصل حجم التعاملات فى بعض الأحيان إلى مائة سهم يوميًا. وفى ١٦ مارس ١٨٣٠م، تعامل مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة فى مجرد واحد وثلاثين سهمًا فى كلتا الجلستين الصباحية وما بعد الظهيرة، والذى يعد رقمًا قياسيًا لأقل مستوى للتعاملات فى تاريخ البورصة.

وسرعان ما سيتغير هذا. إن الطرق والقنوات، مع كل التحسينات التى تدخلها على الحياة والتجارة، مازالت تكنولوچيا الماضى، التى كانت معروفة للرومان. أما تكنولوچيا البخار التى حالما يجرى تطبيقها على النقل، ستفوقهما كثيرًا فى الأهمية وتخلق العالم الحديث. وسيجعل تمويل النقل بالبخار من شارع وول ستريت، الذى كان مجرد شىء مفيد فى عام ١٨٣٠م، جزءًا لا يستغنى عنه بالنسبة للاقتصاد الأمريكى.

* * *

الفصل السابع

تدمير جيفرسون

كانت لامتياز بنك الولايات المتحدة مدة للعمل تبلغ عشرين عامًا، وتنتهى فى عام ١٨١١م. وبحلول هذا الوقت، سيوجد أكثر من مائة بنك من بنوك الولايات تعمل وتسعى للربح فى العمل المتفرد جدًا ألا وهو العمل المصرفى؛ لأن البنوك موجودة فى عالم المال: لحمايته ولإقراضه، والأكثر أهمية إنها تخلقه.

ظهر المال على هيئة عملات معدنية إلى الوجود منذ ألفى عام، وكان سك العملة عادة حكرًا على الحكومات تحرسه بالغالى والنفيس، لكن التدفق العظيم للذهب والفضة من العالم الجديد إلى أوروبا فى القرن السادس عشر لم يتسبب فى تضخم هائل فحسب، إنما جلب معه شكلاً جديدًا من المال. كان الناس عادة يتركون المعادن النفيسة مع صائغى الذهب كوديعة محفوظة بالخزائن، ويتسلمون إيصالا بذلك. وما دام الصائغ جديرًا بالثقة، فإن إيصاله فى نفس جودة المعدن النفيس الذى يمثله والموجود فى قبوه، وأيسر بكثير فى حمله والتحرك به. وبمجرد أن صارت الأوراق النقدية قابلة للتداول بموجب القانون (فى بريطانيا عام ١٧٠٤م) انتمت بالتالى إلى حاملها بالكامل وقت استحقاقها، وأصبحت الأوراق النقدية مالا.

كان صائغو الذهب يقرضون المال منذ أمد بعيد، والآن صاروا يصدرون إيصالات عندما يفعلون ذلك بدلاً من إعطاء المقترض المعدن نفسه. وسرعان ـ وهم يسعون

لتحقيق مزيد من الأرباح ـ ما شرعوا فى إصدار عدد إيصالات أكثر مما هو موجود فى أقبيتهم من المعدن النفيس لتغطيته. وطالما أن الصائغ يتمتع بسمعة طيبة، فلا توجد مشكلة فى هذا المسلك، لأنه من غير المرجح تمامًا أن كل شخص يحمل إيصالات سيحاول استرجاعها فى نفس الوقت.

وبإصدار الصائغين إيصالات أكثر من الذهب الذى يغطيها، فإن الصائغين ـ عند هذه النقطة أصبحوا رجال بنوك ـ يخلقون المال من الهواء. أخفق الكثيرون من الأشخاص شديدى الذكاء والمتعلمين فى فهم ماهية العمل المصرفى، وظنوا أن هذا كله عمل غير شريف فى جوهره. وكان من بين هؤلاء جون آدامز الذى كتب «إن كل دولار من حوالة مصرفية يصدر يتجاوز كم الذهب والفضة الموجودة فى الأقبية لا يمثل شيئًا وبالتالى فإنه خداع لشخص ما».

لكن آدامز كان مخطئًا. إنه ليس خداعًا غير شريف بالمرة. إن القروض تمنح بضمان إضافى للأشياء ذات القيمة، مثل الأراضى والمبانى. إذا عجز المقترض عن السداد يستولى المقرض على ما يمثل الضمان ويبيعه ويدفع لنفسه قيمة القرض. وفى واقع الأمر ما يفعله رجل البنوك هو تحويل رأس المال الميت من أصول ثابتة إلى أصول حية ـ بمعنى آخر إلى رأسمال سائل ـ يمكن استثمارها فى أصول جديدة، لتتضاعف ثروة المجتمع ويخلق اقتصادًا أكثر دينامية بكثير. وبالتالى، فإن الأصول الموجودة وراء المال المخلوق للقرض هى فى جوهرها تخص المقترض وليس المقرض. إن المعدن الموجود فى الأقبية هو ببساطة رأسمال البنك، الثروة التى يخاطر بها رجل البنوك كضمان على أمانته وحسه التجارى.

لكن الأمر برمته يتوقف على ألا يقرر كل الناس استرجاع الإيصالات فى آن واحد، حيث إنه يستحيل لرجل البنوك أن يستعيد قروضه بالسرعة الكافية لسد فيض الطلب على المعدن النفيس الذى تمثله الإيصالات. سيجبر على التوقف عن العمل، وحينما يجرى تسوية كل المتعلقات سيكون ـ من المرجح ـ مفلسًا. والذعر ـ الذى هو مصطلح نفسى وليس اقتصاديًا ـ شديد العدوى. يمكن أن ينتشر من مودع إلى المودعين جميعًا ثم إلى مودعين فى بنوك أخرى فى سرعة مخيفة.

وبالتالى، فإن أغلى أصل يمكن لرجل بنوك أن يحوزه هو سمعته فى الحفاظ على بنك سليم. وكما شرح عالم السياسة البريطانى العظيم وولتر بيجهوت فى القرن

التاسع عشر الأمر «إن كل رجل بنوك يعرف أنه إذا اضطر إلى إثبات أنه جدير بالائتمان فإنه مهما كانت قوة حججه، فقد خسر ائتمانه».

لكن بالرغم من الحاجة الكاسحة للحفاظ على سمعة لا تشوبها شائبة، رجال البنوك بشر. ففى بعض الأحيان، يكونون لطفاء للغاية مع أصدقائهم، وفى أحيان أخرى شديدى التفاؤل، وفى أحيان ثالثة طماعين جدًا، وفى أحيان رابعة غير شرفاء. وهم مثل رجال السياسة، حينما يمتلكون السلطة السحرية على خلق المال، فإن إغراءات رجل البنوك فى خلق المزيد دائمًا ما تكون طاغية. ولهذا السبب تحديدًا فكر ألكسندر هاميلتون فى احتياج البلد إلى بنك مركزى: للإشراف على وضبط بنوك الولايات وتفادى الإفراط فى خلق المال. ولهذا السبب أيضًا استاءت البنوك التجارية الجديدة من بنك الولايات المتحدة الذى قلص أنشطتها. ومع بدء القرن التاسع عشر، كان يتعين للحصول على مرسوم بتأسيس بنك صدور قانون من المجلس التشريعى للولاية، وأدخل هذا بالطبع عنصرًا قويًا من السياسة فى العملية، وجلبت ما يمكن أن نسميه اليوم بالفساد، لكنها فى حينها كانت تعتبر أمرًا معتادًا. تمكن آرون بور عدو ألكسندر هاميلتون السياسى ـ وقاتله فى نهاية المطاف ـ من تأسيس بنك عن طريق دس فقرة فى ميثاق إنشاء شركة أطلق عليها اسم شركة مانهاتن، لتوفير المياه العذبة لمدينة نيويورك، وسمحت الفقرة، التى بدت غير ضارة، للشركة باستثمار فائض رأس المال فى أى مشروع قانونى. وخلال ستة أشهر من إنشاء الشركة، وقبل أن تمد وصلة واحدة من مواسير المياه، افتتحت بنكًا، هو بنك شركة مانهاتن. ولا يزال موجودًا، وهو اليوم بنك ج. ب. مورجان تشيس، ثانى أكبر بنك فى الولايات المتحدة.

كان بنك الولايات المتحدة، ومقره فى فيلادلفيا، قد افتتح بعد عام من تأسيسه فروعًا له فى نيويورك وبوسطن وبولتيمور وتشارلستون، وهى الموانىء الأمريكية الرئيسية. وبحلول ١٨١٠م صارت للبنك فروع أيضًا فى واشنطن ونيوأورليانز وساڤانا ونورفوك. وقد جعلت فروع البنك بين الولايات واحتكاره لودائع الحكومة الفيدرالية جعلت منه البنك الأقوى نفوذًا فى البلد، والبنك الوحيد الذى تقبل أوراقه المالية بقيمتها الإسمية فى أى مكان.

وخلق هذا النفوذ بالطبع أعداء كثيرين له، بخاصة «الجمهوريون القدامى»، الذين كانوا مازالوا ينظرون لتوماس جيفرسون، الذى تقاعد فى ذلك الوقت، على أنه الزعامة السياسية، وكذلك أصحاب بنوك الولايات. وكان أصحاب البنوك من جانب مغتاظين للغاية بسبب النظام الصارم لبنك الولايات المتحدة، وأرادوا نصيبهم من الودائع الفيدرالية، التى من شأنها السماح لهم بتوسيع نطاق قروضهم. وجعلت علاقاتهم السياسية فى المجالس التشريعية للولايات ـ التى كانت تعين فى ذلك الوقت أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة ـ منهم جماعة ضغط ذات نفوذ. وأشد ما ينطبق هذا الوضع على الولايات الغربية الجديدة، فقوانينها المصرفية عادة متراخية، وحيث يبلغ الاستياء من النفوذ المالى الشرقى أكثر درجات الحدة، وحيث تظهر أشد ألوان معاداة الإنجليز. ونادرًا ما فوت الغربيون فرصة إلا وأشاروا إلى أن كثيرًا من أسهم البنك توجد فى أيد حملة أسهم بريطانيين. وتزعم هنرى كلاى، الذى كان عضوًا فى مجلس الشيوخ حينئذ عن ولاية كنتاكى، المعارضة لتجديد امتياز البنك.

وكان التجار والمتعاملون فى البورصة القاطنون فى المدن الشرقية محبذين لتجديد امتياز البنك، فى أقرب شكل للمؤسسة المالية تشهده البلد. حتى جيمس ماديسون، الذى كان معارضًا لإنشاء البنك، والذى أصبح رئيسًا الآن، أدرك المنفعة المجلوبة منه على أساس أنه أداة للحكومة الفيدرالية، والموفر لعملة وطنية موحدة. بذل وزير خزانته ألبرت جالاتين أيضًا جهدًا كبيرًا لتجديد امتياز البنك.

كانت مدة سريان ميثاق البنك على وشك الانتهاء فى ٤ مارس ١٨١١م، وقدمت إدارة ماديسون مشروع قرار لتجديد مدة السريان عشرين عامًا فى ٢٤ يناير. ولسوء الحظ، ففى الوقت الذى يحتل فيه ماديسون مكانة يستحقها عن جدارة فى مجمع الخالدين الأمريكى كأب الدستور، إلا أنه كان كرئيس عديم الفاعلية إلى حد كبير. لم يضغط بما يكفى ليمرر مشروع القرار أو حتى يجعل أعضاء إدارته ملتزمين بخطه. عندما صوت نائبه جورج كلينتون ضد مشروع قرار البنك فى مجلس الشيوخ، انتهى أمر الإجراء. ويعد هذا أكثر الأعمال السياسية المستقلة ذات الدلالة ـ ربما يكون الوحيد من نوعه ـ فى تاريخ منصب نائب الرئيس، وستكون له عواقب كارثية.

جرى تجديد امتياز فروع البنك فى معظم الولايات التى كانت بها فروع، واشترى المقر الرئيسى ـ المبنى والأثاث وكل شىء ـ ستيفن جيرار، وهو تاجر من فيلادلفيا، ولد فى فرنسا. ودفع جيرار ١١٥ ألف دولار فيه، وهو مبلغ ضخم جدًا ليكون فى صورة أصول سائلة آنذاك، واتضح أن جيرار كان لديه أكثر بكثير فى مصدره لتلك الثروة. كان جيرار، الذى يتاجر فى أنحاء الكرة الأرضية، يعيد توطين أمواله الموجودة فى الخارج بعدما انهارت العلاقات مع بريطانيا وفرنسا فى العقد الأول من القرن التاسع عشر.

افتتح جيرار على عجل بنكًا خاصًا ملكًا له، بعد أن اشتراه بطريقة «تسليم مفتاح»، وساند هذا البنك بإصدار أوراق مالية قابلة للتداول بلغت قيمتها ١,٢ مليون دولار وأموال سائلة بلغت حجمًا هائلاً وهو ٧١ ألف دولار. وفى الوقت الذى كان يعد فيه المليونيرات فى البلد على أصابع اليد الواحدة، أظهر جيرار أنه يمتلك الكثير من الملايين.

استمر الوضع الدبلوماسى فى التدهور، وتحرق الكثيرون فى الغرب إعلان الحرب، آملين فى غزو كندا أثناءها. وفى يونيو ١٨١٢م أعلن الرئيس ماديسون«رسالة تحذير» إلى مجلس الشيوخ واضعًا المظالم التى ارتكبتها بريطانيا بحق البلد. ولم يطلب إعلان الحرب إنما بدلامن ذلك، بسبب اعتنائه الحرفى بالدستور، وصف ماديسون الأمر بأنه «مسألة خطيرة يبوح بها الدستور بحكمة إلى القسم التشريعى من الحكومة».

كان الغرب والجنوب يحبذان الحرب، بينما عارضه الشمال الشرقى الذى سيصبح أسطوله التجارى العظيم وتجارته الدولية عرضة لخطر مباشر. وصوت مجلس النواب ٧٩ مقابل ٤٩ لصالح إعلان الحرب، حيث عارض القرار ثمانية أصوات جنوبية وغربية فقط. كانت نتيجة التصويت فى مجلس الشيوخ أكثر تقاربًا، ١٩ مقابل ١٣ صوتًا. فى ١٩ يونيو أعلن ماديسون قيام حالة حرب مع بريطانيا العظمى.

وبعد أن أعلن الكونجرس الحرب على قوة عظمى قادرة على مهاجمة الولايات المتحدة، صوت لصالح زيادة رواتب الجنود فى الجيش من ٥ دولارات إلى ٨ دولارات فى الشهر، وتخصيص مكافأة تجنيد تشمل ٣١ دولارًا و١٦٠ أكرًا (الأكر: حوالى ٤٠٠٠ سم٢) والتى رفعت إلى ١٢٤ دولارًا و٣٢٠ أكرًا. لم تكن هذه بالمبالغ الهينة فى ذلك الوقت، عندما كان العامل غير المدرب يحصل على ٥ر٢ دولارات فى الأسبوع.

لكن الكونجرس الذى قرر اتباع أعلى السياسات العامة تكلفة، وهى الحرب، والذى قرر زيادة رواتب الجيش على نحو كبير جداً، لم يتخذ أى إجراء لدفع نفقات أى من هذا، وانفض فى الشهر التالى. ويعد هذا بالطبع أكثر السلوكيات لامبالاة فى تاريخ كونجرس الولايات المتحدة، وهو لقب كان هناك الكثير من المنافسة عليه عبر السنوات اللاحقة.

والأسوأ من هذا، أن الكونجرس بإغلاقه بنك الولايات المتحدة فى العام السابق، كان قد قضى بذلك على الآلية المؤسسية الوحيدة التى تستطيع الحكومة أن تقترض من خلالها للإنفاق على الحرب. لم يكن أمام وزير الخزانة خيار سوى الاعتماد على الاكتتاب العام من خلال بيع سندات، ويقطن معظم من يمتلكون الأصول السائلة لشرائها فى الشمال الشرقى، حيث تعد المعارضة لـ«حرب مستر ماديسون» على أشدها.

كان من المحتمل إن تحققت انتصارات عسكرية فى الأيام الأولى من الحرب أن تساعد على شعبيتها، وبالتالى تمويلها. لكن فى الوقت الذى حدثت فيه انتصارات مثيرة على قطع منفردة لسلاح البحرية الملكية، إلا أنها لم تؤثر على النتيجة البتة، وضيق الحصار البريطانى البحرى الخناق على الموانئ الأمريكية بصورة لا ترحم، مما تسبب فى هبوط العائدات من التعريفات الجمركية ومن كمية الأطنان المستوردة بشكل متسارع فى التدهور. وعلى البر، كانت كوارث بالجملة. فقد صدرت الأوامر للواء ويليام هل بغزو كندا العليا (المعروفة اليوم باسم أونتاريو) منطلقًا من ديترويت، ولم يكد يقطع سوى أميال قليلة داخل كندا حتى قفل راجعًا إلى ديترويت، التى سلمها دون أن يطلق طلقة واحدة. وحوكم هل محاكمة عسكرية وصدر عليه الحكم بالإعدام لجبنه وتقصيره فى أداء واجبه، لكن ماديسون عفا عنه، فى ضوء خدمته أثناء الثورة (خدم هل مع واشنطن فى معركة ترنتون)، وسرحه فقط من الجيش. ولم تحرز محاولتان أخريان للانطلاق إلى داخل كندا، عند نياجرا وبحيرة تشامبلين، نجاحًا أيضًا، ولكنهما كانتا أقل مهانة.

وبحلول بواكير ربيع ١٨١٣م، كانت الحكومة الأمريكية، على الأقل على شفا الموت من الناحية المالية. فى ٥ مارس كتب وزير الخزانة إلى الرئيس ماديسون «نحن بالكاد لدينا ما يكفى من المال حتى نهاية الشهر».

فى ٨ فبراير ١٨١٣م، خول الكونجرس وزارة الخزانة الحق فى اقتراض ١٦ مليون دولار، وهو بالتأكيد أكبر قرض فى تاريخ البلد القصير. وبذل جالاتين قصارى جهده كى يهيكل القرض بصور جذابة. سمح للناس أن يكتتبوا حتى بمبلغ قليل هو ١٠٠ دولار ويدفعوا استثماراتهم على ثمانية أقساط شهرية. وتقرر أن يغلق باب الاكتتاب فى القرض فى ١٣ مارس، لكن يمكن أن يظل مفتوحًا لنهاية الشهر ما لم تكن الاكتتابات كافية. كان يتعين أن يجرى الاكتتاب بمبلغ الـ ١٦ مليونًا كاملاً، وإلا فلن يأخذ القرض مجراه.

لم يكمل المبلغ المكتتب ٤ ملايين دولار فى ١٣ مارس، ومد جالاتين مدة الاكتتاب. لم يساعد ذلك كثيرًا، وبالرغم من أنه لم تصل كل الاكتتابات بسبب بطء الاتصالات إلا أن جالاتين عرف أن القرض فشل. وفى وقت لاحق، قال لماديسون إن «وزارة الخزانة أضناها الإرهاق فى اليوم الأول من هذا الشهر، حتى أن الرصيد القليل المتبقى والمبعثر فى أكثر من ثلاثين بنكًا عجز عن توفير مزيد من الموارد». كانت الحكومة مفلسة، ومن المرجح أن يتناثر المجهود الحربى ليس بسبب هزيمة عسكرية، لكن نتيجة للانهيار المالى.

سمح جالاتين لنفسه بإضافة خمسة أيام للعثور على مقرض كملجأ أخير إذا لزم الأمر. وفى ٥ أبريل ذهب لمقابلة الشخص الوحيد فى البلد الذى يقدر على المساعدة، ستيفن جيرار. قال له جالاتين إن إجمالى الاكتتابات بلغ ٢٠٠,٣٨٣,٥ دولار، وإن نقابة فى نيويورك، يتزعمها جون جيكوب آستور، مستعدة لشراء سندات بقيمة ٢,٠٥٦,٠٠٠ دولار إذا أخذ القرض مجراه. وسيتبقى ٨,١٠٥,٨٠٠ دولار بحاجة إلى أن تكتتب فى هذا اليوم بالتحديد إذا ما قدر لهم أن يتفادوا وقوع كارثة. كان المبلغ يتجاوز الحد المهول. فى عام ١٨١٢م، بلغ إجمالى العائدات الحكومية من جميع الموارد ٩,٨٠١,٠٠٠ دولار.

كان مبلغ ٨ ملاين دولار أكبر من قيمة الشبكة المالية لستيفن جيرار على غناه. ومع هذا فقد أجاب بنعم، واكتتب خطيًا «إلى بقية الدين المذكور». وسأل ببساطة إن كان يمكن أن تودع البقية فى بنكه حتى يتم سحبها، وأن يأخذ عمولة تقدر بربع فى المائة على القرض كى يغطى تكاليف بيع أجزاء منه لمكتتبين آخرين.

لكن لم تكن هذه الخطوة جسورة كما تبدو للوهلة الأولى، بالرغم من أنها بالقطع جسورة بما يكفى. كان جيرار يتمتع بمركز ائتمانى لا يشوبه شائبة، أفضل كثيراً جداً من المركز الائتمانى الخاص بالحكومة، وارتأى فى نفسه القدرة على أن يبيع كميات معتبرة من السندات. ومنح مهلة بلغت ثمانية أشهر ليأتى بالكمية بكاملها.

فى واقع الأمر، كان مركزه الائتمانى أفضل من الحكومة بمراحل، فبمجرد ذيوع خبر أن جيرار صار مشاركًا كبيراً، تمكن من بيع ما قيمته ٤,٦٧٢,٨٠٠ ر دولار من السندات لمستثمرين آخرين خلال عشرة أيام فقط.

وتحسن الوضع العسكرى بسرعة بعد عودة المال مرة ثانية إلى وزارة الخزانة. استعاد ويليام هنرى هاريسون السيطرة على مدينة ديترويت وحقق الجيش الأمريكى نصراً كبيراً فى مدينة يورك (المعروفة الآن باسم تورونتو) وأحرز انتصاراً حاسمًا على الأسطول البريطانى فى بحيرة إيرى. رفض البريطانيون، الذين أحسوا على نحو غامض بمصاعب حكومة الولايات المتحدة المالية، رفضوا بازدراء عرضًا من الحكومة الروسية بالتوسط، قبله ماديسون. والآن بعد أن رغبت بريطانيا فى التخلص من هذه الحرب الصغيرة المزعجة الناشبة على هامش مشاغلها العالمية، اقترحت إقامة محادثات سلام فى مدينة جنت، الواقعة فيما يعرف الآن باسم بلجيكا. واستطاعت الولايات المتحدة الخروج مما هو من المرجح جداً أن يكون كارثة محققة. ومع هذا، فقد عانت من مهانة إحراق رأسمالها على يد العدو.

مع انقراض بنك الولايات المتحدة، انتشرت بنوك الولايات على نطاق واسع، حيث تضاعفت فى العامين التاليين على عام ١٨١١م. وأصدرت معظمها أوراق بنكنوت. وقدر آدم سميث أن البنك يستطيع وهو آمن أن يصدر أوراق بنكنوت بكمية توازى خمسة أمثال رأس المال، وقصرت بعض الولايات إصدارات البنكنوت على ثلاثة أمثال رأس المال. لكن لم تضع ولايات أخرى مثل هذه الحدود. فى عام ١٨٠٩م، أصدر بنك فى ولاية رود آيلاند، الذى يبلغ رأسماله مجرد ٤٥ دولاراً فقط، أوراق بنكنوت بقيمة ٨٠٠ ألف دولار أى أكثر من ١٧ ألف مثل رأسماله. يعد هذا بالطبع عملاً من أعمال الاحتيال وليس بنكًا، لكنه يمثل أولى حالات إفلاس البنوك والتى تقدر بآلاف مؤلفة من الحالات فى الولايات المتحدة؛ لأن إفلاس البنوك ـ والذى

يرجع الفضل فى جزء كبير منه إلى توماس جيفرسون وخلفائه السياسيين ـ سيصبح سمة أمريكية مثل فطيرة التفاح.

لم تضع بعض الولايات حدوداً للبنوك فى إصدار أوراق البنكنوت. وبالرغم من أنها تسمى من الناحية الفنية «سند»، ويقصد منها التخفيف من مشكلة نقص الفكة، فقد أخذت السلطات البلدية والاتحادات المهنية والمصانع بل والأفراد فى إصدار أوراق النقد. أصدر شىء يسمى «التشكيلة العامة لبائعى الخضروات فى فيلادلفيا» سندات، من بينها ورقة نقدية بقيمة ست سنتات وربع (أى $\frac{1}{16}$ دولار أو نصف«شلن») ويمكن استرداد قيمته عند الطلب فى محال بيع الخضراوات، أو بأوراق بنكنوت فيلادلفيا).

أرادت إدارة ماديسون، وذهنها منصب تمامًا على الكارثة التى أوشكت أن تقع فى عام ١٨١٣م، أن تنشئ بنكًا مركزيًا جديداً. ألغى ماديسون مشروع قرار بتأسيس هذا فى البنك فى عام ١٨١٥م على أسس فنية، لكنه وقع بالموافقة على مشروع قرار أرسل إليه فى عام ١٨١٦م، بإصدار امتياز للبنك الثانى للولايات المتحدة لمدة عشرين سنة. وقد وقع انقلاب مثير فى السياسات الخاصة بتأسيس بنك مركزى. فى عام ١٨١١م اعترض هنرى كلاى من كنتاكى على إعادة تجديد مدة امتياز البنك الأول، لكنه صار الآن محبذا له، مثلما الحال بالنسبة لجون كالهون من كارولاينا الجنوبية. وصار دانيال وبستر من ماساتشوستس الذى كان نصيراً متحمساً فيما مضى ومعارضًا لهذا الإجراء.

كانت المناطق التى يمثلها كلٌّ من كالهون وكلاى تعانى نقصًا مزمنًا فى العملات النقدية. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن مجالات التصنيع فى منطقة نيو إنجلند تنمو بسرعة مثلما الحال بالنسبة إلى تجارتها الخارجية، التى تجنى من ورائها فائضًا تجاريًا ضخمًا مع بقية أنحاء البلد، بفضل امتلاكها للكثير من سفن أسطول البلد التجارى. ويؤدى هذا بدوره إلى سحب العملات المعدنية من الغرب والجنوب لتنصب فى الشمال الشرقى. وأحس كالهون بأن وجود بنك وطنى يمكن أن يحل المشكلة. أما وبستر، الذى لم يكن يريد للمشكلة أن تحل، فقد كافح من أجل بقاء الوضع القائم.

لكن البنك الثانى للولايات المتحدة ومقره فى فلادلفيا مثل البنك السابق سيكون بعد بداية متأرجحة عنصر استقرار للنظام المالى الأمريكى، إلا أنه لن يمتلك أبدًا القوة على

التحكم فيه مثل البنك الأول. كانت البلد تنمو على نحو متسارع للغاية، وانتشرت بنوك الولايات بأعداد ضخمة للغاية خلال فترة الانقطاع التى دامت خمس سنوات بين البنكين.

كان لبعض الولايات قوانين مصرفية سليمة. كان لدى ميسورى التى انضمت للاتحاد عام ١٨٢١م وإنديانا التى انضمت عام ١٨١٦م بنك واحد مركزى تملكه الولاية له فروع عدة، وهو نظام عمل بكفاءة. وضعت لويزيانا (التى انضمت عام ١٨١٢م) نظامًا دقيقًا لبنوكها التجارية، واكتسبت سمعة طيبة واسعة النطاق عن سلامة نظامها المصرفى. وعلى الجانب الآخر، اكتسبت إيلينوى (التى انضمت عام ١٨١٨م) سمعة سيئة واسعة النطاق أيضًا عن النصب والاحتيال وإفلاس بنوكها. لكن بالرغم من وجود ولايات ذات نظام مصرفى دقيق، ظلت حالات إفلاس البنوك متوطنة فى هذه الحقبة. لقد أفلس نصف البنوك التى تأسست ما بين عامى ١٨١٠ و١٨٢٠م بحلول عام ١٨٢٥م.

ظهر المئات من البنوك إلى الوجود، وأصدر الكثير منها أوراقًا نقدية. بل طبع الكثير من الناس الذين لم يمتلكوا بنوكًا على الإطلاق أيضًا أوراقًا نقدية، وحاولوا أن يمرروها.

بدأ طابعو الأوراق النقدية فى طباعة «وسائل كشف أوراق النقد» التى وضعت قائمة ورسومًا توضيحية وقيمت الإصدارات الورقية المتداولة فى مختلف المناطق فى البلد. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وصل عدد إصدارات أوراق النقد بالآلاف، وخلق نوعًا من التنافر النقدى يضارع فى السوء خليط قطع النقود المعدنية الأجنبية وشهادات المستودعات وسندات الاعتماد أثناء الحقبة الاستعمارية.

ليس هناك أحد ـ ولا حتى توماس جيفرسون ـ له تأثير أكبر فى تشكيل الحزب الديموقراطى وسياسته الاقتصادية حتى ظهور فرانكلين روزڤلت، من أندرو جاكسون. بالفعل فإن الحزب الديموقراطى الحديث تكتل حول شخصية جاكسون السياسية الخارقة. اعتقد كلٌّ من جاكسون وجيفرسون فى صحة دفع موقع السلطة إلى أسفل السلم الاجتماعى. كلاهما كان يكن كراهية عميقة للمزايا المتوارثة وما يسميه

جاكسون بـ «سطوة المال» أى البنوك، بخاصة تلك النوعية الكبيرة والراسخة وذات النفوذ.

لكن الرجلين كانا أيضا مختلفين تمام الاختلاف. وصل جيفرسون إلى فلسفته بإعمال العقل، حيث كان أولا وقبل أى شىء رجل الفكر، بينما كان جاكسون مثال رجل الأفعال. ومن المتعذر تصور ضلوع جيفرسون فى مبارزة، لكن جاكسون خاض ما لا يقل عن ثلاث مبارزات ـ قتل فى إحداها خصمه ـ ولم يشارك فى مبارزات أخرى عديدة فقط لا شىء إلا بسبب تراجع خصومه عن الاشتراك فيها. لم يرتد جيفرسون زيًا عسكريًا فى حياته قط؛ كان جاكسون لواءً ممتازًا اكتسب شهرة على المستوى الوطنى لانتصاره الساحق على البريطانيين فى معركة نيو أورليانز فى ١٨١٥م. (ومع هذا، فإن انتصاره لم يكن ذا تأثير عسكرى؛ لأن اتفاقية السلام كانت قد وقعت بالفعل.) قبل أى شىء، ولد جيفرسون ثريًا وفى أفضل الأحوال كان غير مبال فى تعامله مع المال. ولد جاكسون فى فقر مدقع، ولم يكن لديه أية نية أن يبقى على هذه الحال حتى وفاته ونجح فى ذلك.

مثل أندرو جاكسون ثورة فى السياسة الأمريكية للدرجة التى جعلت مؤرخ القرن التاسع عشر العظيم جورج بانكروفت يحسبه من آخر الآباء المؤسسين. وكتب بانكروفت عنه «إن اسمه آخر الأسماء العظيمة الذى تتجمع حوله كل التداعيات المشكلة للمجد الأمريكى». كان جاكسون أول رئيس لم يأت من الولايات الساحلية (ماساتشوستس أو ڤيرجينيا) وبالتالى دفع المركز السياسى للبلد ناحية الغرب على نحو حاد. كما كان أول رئيس لم يولد ضمن الطبقة العليا الاستعمارية. ولد على تخوم كارولاينا الجنوبية فى عام ١٧٦٧م لأبوين مهاجرين من اسكتلندا وأيرلندا وصار يتيمًا فقد توفيت والدته وشقيقيه كنتيجة غير مباشرة للغزو البريطانى لولايتى كارولاينا أثناء الثورة الأمريكية. أدى ذلك إلى وجود عدواة متأصلة داخل جاكسون إزاء بريطانيا العظمى استمرت طيلة حياته.

لم يتلق جاكسون الكثير من التعليم النظامى، لكنه درس القانون فى مكتب محاماة فى مدينة ساليسبورى فى كارولاينا الشمالية، وأجيز كمحام فى عام ١٧٨٧م. وانتقل بعد فترة وجيزة إلى ناشڤيل بولاية تينيسى التى لم تزد بالكاد عن مجموعة من الأكواخ

الخشبية. ومارس جاكسون المحاماة والمضاربة فى الأراضى، وهى أسرع الطرق إن لم يكن أكثرها مخاطرة لتكوين الثروة. ومع مجىء الوقت الذى صارت فيه تينيسى ولاية فى عام ١٧٩٦ كان جاكسون قد أصبح ثريًا بمقاييس ذلك العصر والمكان. وانتخب كأول عضو بمجلس شيوخ ولاية تينيسى، وفى العام التالى خدم لفترة قصيرة فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة.

ووصف جيمس بارتون، وهو كاتب مبكر لسيرة جاكسون الذاتية، ما أطلق عليه عبارة «سر رفاهيته». كان فى الوقت نفسه السر وراء معظم الثروات التى تكونت عند التخوم.

«اشترى قطع أراض شاسعة حينما كانت هذه القطع تباع بحصان أو بالجرس المعلق فى عنق بقرة، وظل محتفظًا بها إلى أن حولها فيض المهاجرين إلى شىء ذى قيمة».

كان جاكسون، مثل معظم المضاربين فى الأراضى، يتورط فى صفقات معقدة تتعلق بالائتمان. وفى عام ١٧٩٥ أراد أن ينشئ محطة تجارية،[1] فباع ثمانية وستين ألف فدان لرجل يدعى ديڤيد أليسون، وأخذ فى المقابل تعهدات خطية بالقيمة المالية. واستخدم التعهدات كضمان لبيع مستلزمات للمحطة التجارية، لكن حينما أفلس أليسون، ترك جاكسون ليتحمل العبء.

سيمضى جاكسون عقدًا ونصفًا لتسوية كل المسائل العالقة بهذا الأمر، وستخلف داخله فزعًا طيلة حياته من الديون وكافة آليات الديون. كان المال بالنسبة لأندرو جاكسون هو العملات المعدنية ـ ذهبية أو فضية. أما أوراق النقد وما أضحى يطلق عليه أيام جاكسون الأوراق التجارية ـ الكمبيالات والتعهدات الخطية والشيكات المصرفية وما شابه ـ فى نظره، مثلما عدها جون آدامز فى جيل سابق، شكلاً من أشكال الاحتيال.

اتضحت درجة اختلاف إدارة جاكسون عن سابقاتها منذ اليوم الأول لتوليه. كانت احتفالات تقلد منصب الرئاسة فيما مضى تقتصر على الذين توجه لهم الدعوات،

(١) محطة تجارية: متجر كبير يقام فى موقع ناء يقايض فيه التجار سلعًا متنوعة بمنتجات محلية.

وكانت مناسبات تليق بـ «المجتمع المهذب». أما حفل استقبال جاكسون فقد حضره كل من تمكن من دخول بوابة البيت الأبيض، وتكسرت تحف من الزجاج والصينى وخرب أثاث يقدر قيمته بعدة آلاف من الدولارات. وفى نهاية المطاف، ازداد عدد الضيوف إلى الدرجة التى باتت معها سلامة جاكسون الشخصية مهددة، وفر من النافذة بينما حمل الخدم الخمور إلى الحديقة لإخراج جماهير الغوغاء من البيت الأبيض.

كان أول أمر أصدره جاكسون فى المسائل المالية حينما دخل البيت الأبيض بسيطا: سددوا الدين القومى. وصل الدين القومى فى عام ١٧٩٢م لأكثر من ٨٠ مليون دولار وخفض إلى ٤٥ مليون دولار فقط فى عام ١٨١١م، ثم تسببت حرب عام ١٨١٢م فى أن يتصاعد الدين إلى أكثر من ١٢٥ مليون دولار. ودرت التعريفات العالية فوائض ضخمة بعد الحرب، وعند تولى جاكسون الرئاسة بلغ الدين ٤٨,٥٦٥,٠٠٠ دولار.

كان لجاكسون غرضان من تخليص البلد من الدين. الأول بالطبع أنه اعتبر أن الدين شىء سىء لذاته وفى حد ذاته. وأطلق على الدين «اللعنة القومية» خلال حملته للفوز بانتخابات الرئاسة فى المرة الأولى فى عام ١٨٢٤م. بل إنه اعتبر المؤسسات [المالية] والمنتفعين منها أيضًا لعنة قومية. ووعد قائلاً: «إن تعهدى هو أن أسدد الدين القومى، للحيلولة من نمو أرستقراطية ثرية حول إدارتنا والتى لابد وأن تميل ناحية آرائها، وفى النهاية تدمر حرية بلدنا».

وليتحقق هدفه، كان جاكسون مستعداً تمام الاستعداد للتضحية بـ «التحسينات الداخلية» مثل الطرق التى كانت عزيزة جدًا فى قلوب أمثاله من سكان المناطق الغربية، قائلاً إنه بمجرد تسديد الدين سيتوافر المال الكثير لإجراء التحسينات. وعندما توسل إليه عضو بمجلس الشيوخ ألا يستخدم حق النقض لمشروع قرار بالتحسينات، وعده جاكسون بدارسة الموضوع دراسة متأنية. لكن عضو مجلس الشيوخ أخبر زملاءه بأنه «لا شىء سيمنع الرجل العجوز من رفض مشروع القرار إلا إذا أتاه صوت من السماء، وإنى أشك فى أن حتى ذلك سيمنعه».

وبنهاية عام ١٨٣٤م، استطاع جاكسون أن يبلغ الكونجرس فى خطاب الاتحاد بأن البلد ستكون بلا دين فى ١ يناير ١٨٣٥م، وفى يديها رصيد يصل إلى ٤٤٠ ألف

دولار. واعتبر جاكسون أن ذلك واحد من أعظم انجازاته، واعتبر أكثر أهل البلد كذلك أيضًا. وكتبت صحيفة «واشنطن جلوب»، وهى تشير إلى تواكب سداد الدين مع الذكرى العشرين لمعركة نيوأورليانز، قائلة «نيوأورليانز والدين القومى ـ الأولى صفينا فيها حساباتنا مع أعدائنا، والثانية سددنا فيها آخر سنت لأصدقائنا».

أشار روجر تينى كبير قضاة المحكمة العليا الأمريكية إلى أنه «المرة الأولى فى تاريخ الأمم أن يسدد دين عام بهذه الضخامة بالكامل».

وظلت هذه المرة الوحيدة حتى الآن.

على الرغم من أن دافع جاكسون الرئيسى لتسديد الدين القومى كان بسيطًا ـ هذا صحيح لحكومات ذات سيادة ـ وهو أن المرء لا ينبغى أن يقترض إلا فى الضرورة القصوى، إلا أنه كان لديه دافع آخر. كانت البنوك تستخدم السندات الفيدرالية لدعم إصدارها أوراقًا نقدية، وأراد جاكسون التخلص من الأوراق المالية وخطط لتنفيذ ذلك عن طريق التخلص من هذا الدعم.

كان قلب وروح «ارستقراطية المال» البنك الثانى للولايات المتحدة ورئيسه ابن فيلادلفيا الأرستقراطى نيكولاس بيدل اللذين يخشاهما جاكسون.

كان بيدل يجسد كل ما هو ليس متحققًا فى جاكسون: النشأة الطيبة، التعليم الرفيع، الترحال الواسع والدقة والدراية بالتعقيدات المالية. تلقى تدريبًا فى المحاماة، قضى ثلاث سنوات فى أوروبا حيث عمل سكرتيرًا لجيمس مونرو وقت أن كان مونرو وزيرًا مفوضًا فى بريطانيا العظمى. وبعد أن تزوج من جين كريج، وهى وارثة لثروة معتبرة، ترك العمل بالمحاماة وأصبح مدير تحرير مجلة أدبية فى فيلادلفيا اسمها «پورتفوليو». وسرعان ما شيد واحدًا من أروع البيوت فى أمريكا، أسماه أندلسيا، على ضفاف نهر ديلاوير شمال فيلادلفيا مباشرة، حيث مازالت تعيش عائلة بيدل حتى اليوم.

فى عام ١٨١٩م عين الرئيس مونرو بيدل فى مجلس إدارة البنك الثانى للولايات المتحدة. وفى عام ١٨٢٣م أصبح رئيسًا للبنك. كان البنك الثانى قد بدأ بداية متأرجحة تحت قيادة رئيسه الأول، ويليام جونز، الذى ضارب بأسهم البنك، وانخرط فى

ممارسات أخرى مشبوهة. استقال جونز إثر تحقيق أجراه الكونجرس وحل لانجدون تشيفز محله، ليقوم الفوضى التى خلفها جونز. ولسوء الحظ ساعد هذا بصورة هائلة على حدوث ذعر عام ١٨١٩م وأعقبه تباطؤ النشاط التجارى.

ومع مجيء الوقت الذى أصبح فيه بيدل رئيسًا للبنك، كانت العداوة إزاء البنك قد تبددت، بفضل الانتعاش الاقتصادى والسياسات السليمة التى اتبعها البنك. لم يكن البنك قضية مطروحة خلال حملة انتخابات الرئاسة فى عام ١٨٢٤م ـ عندما فاز جاكسون بغالبية الأصوات الشعبية، لكنه خسر أمام خصمه جون كوينسى آدامز فى مجلس النواب ـ أو فى حملة عام ١٨٢٨م التى فاز فيها فوزًا ساحقًا على منافسه غير المحبوب آدامز. وصوت بيدل لصالح جاكسون فى المرتين.

لكن ما إن دخل جاكسون البيت الأبيض حتى تكشفت كراهيته الدفينة للبنوك، بخاصة تلك النوعية الكبيرة وذات النفوذ، فى أول رسالة له إلى الكونجرس كرئيس. طرح مسألة تجديد امتياز البنك الثانى للولايات المتحدة قبل انتهاء مدة السريان الخاصة به بسبع سنوات كاملة. وبحلول عام ١٨٣٢م، حينما سعى جاكسون لإعادة انتخابه كان من الواضح أنه يعتزم الإجهاز على البنك.

قاوم بيدل بأقصى ما يمكنه. كان الكثيرون من أعضاء الكونجرس يتمتعون بعلاقات طيبة مع البنك (وكان الكثير منهم من المنتفعين بالحصول على قروض بشروط ميسرة ـ مرة أخرى كان هذا معتادًا فى ذالك الوقت، وليس فسادًا) وضغط بيدل عليهم لتمرير مشروع قرار لتجديد امتياز البنك لمدة خمسة عشر عاما قبل أن ينفض الكونجرس خلال فصل الصيف فى عام ١٨٣٢م. وتمنى ألا يجعل منها جاكسون قضية انتخابية. وفى ظل سياسات القبضة العارية السائدة فى ذلك الوقت، وجهر معظم الصحف بتحزبها وتحيزها فى تغطيتها، صار النزاع بشأن البنك مشاجرة صاخبة.

وفى نهاية المطاف، مرر الكونجرس مشروع قرار تجديد مدة سريان عمل البنك واستعد لأن ينفض. لكن اتضح أن جاكسون سيستخدم حق الرفض غير المباشر[1] لوأد

(١) حق الرفض غير المباشر: يبقى الرئيس على مشروع القرار دون أن يرفضه صراحة حتى ينفض المجلس التشريعى.

المشروع، فأقنع هنرى كلاى الكونجرس بالاستمرار فى الانعقاد أطول فترة ممكنة لإجبار جاكسون إما على التوقيع أو رفض القرار ويذكر أسبابه فى الرفض. ولكن لم يكن جاكسون بالرجل الذى يتحاشى الدخول فى معركة، فنزل إلى الحلبة وهو على أتم استعداد للتصدى لهذا التحدى.

وبعث برسالة رفض عاصفة، التى تعد خطابًا لحملة انتخابية بقدر ما هى عمل من أعمال إدارة الدولة. احتج فيها بأن البنك يعد احتكارًا، ويحبذ الأثرياء وأصحاب النفوذ على المواطنين العاديين فى البلد. وعلاوة على ذلك، أعلن أنه غير دستورى بالرغم من إصدار المحكمة العليا حكمًا بعكس ذلك. وعجز الكونجرس عن تجاوز حق الرفض.

عندما أحرز جاكسون فوزًا ساحقًا فى شهر نوفمبر، كان البنك الثانى للولايات المتحدة، الذى لم يزل أمامه أربع سنوات، كالمساق لتنفيذ حكم الإعدام فيه. كما لم يكن جاكسون راضيًا أيضًا بالسماح لمدة سريان الامتياز بأن تستخدم. بدأ بسحب الودائع الفيدرالية من بنك الولايات المتحدة ونقلها إلى ما سماه خصومه بـ«البنوك المدللة». ومع نضوب الودائع تقلصت قدرات البنك على إصدار أوراق نقدية وفرض الانضباط على الأعداد المتزايدة لبنوك الولايات. وازدادت كمية أوراق النقد المتداولة الصادرة عن البنوك المدللة، التى امتلأت بالودائع الفيدرالية. وانتقل مركز التحكم فى إمدادات البلد من النقود من مؤسسة واحدة تعمل على مدى طويل ومنظور قومى إلى عدد ضخم من البنوك المحلية، كلٌّ منها معنى بازدهاره على المدى القصير. وبالرغم من تخفيض أسعار الأوراق المالية لفترة وجيزة فى عام ١٨٣٤م إثر مطالبة البنك الثانى للولايات المتحدة بسداد قروضه، أصبح الازدهار واسع الانتشار فى مطلع ثلاثينيات القرن التاسع عشر، مع ارتفاع أسعار القطن فى الجنوب وزيادة التصنيع فى الشمال نتيجة لذلك وتحسن نظام النقل، كل هذه العوامل تواكبت جميعًا فى ارتفاع إجمالى الناتج المحلى بسرعة. وازداد عدد البنوك فى البلد من ٣٢٩ بنكا فى عام ١٨٢٩م إلى ٧٨٨ بنكًا فى عام ١٨٣٧م. ولكن القيمة الإسمية لأوراق النقد تضاعفت ثلاث مرات، وتضاعفت القروض الهائلة أربع مرات حينئذ.

وكما يحدث دوما فى أزمنة الانتعاش، تزداد المضاربة بسرعة أيضًا. كما ازدادت

التجارة فى الأوراق المالية فى شارع وول ستريت إلى الدرجة التى بدئ لأول مرة يستخدم فيها مصطلح وول ستريت ككناية عن مجتمع المال الأمريكى.

لكن لم تصل فى أى مكان المضاربة لما وصلت إليه فى الغرب، حيث احتلت الأراضى بؤرة الاهتمام بدلاً من الأوراق المالية. اشترى الناس الذين لا يعتزمون الإقامة قطعًا ضخمة من الأراضى من الحكومة الفيدرالية، ودفعوا ثمنها بالأوراق المالية المقترضة من البنوك المحلية بكميات متعاظمة. وبلغت قيمة مبيعات الأراضى من الحكومة الفيدرالية، التى أجريت من خلال مكتب عموم الأراضى التابع للحكومة، بلغت ٢,٥ مليون دولار فى عام ١٨٣٢م، وبحلول عام ١٨٣٦م بلغت ٢٥ مليون دولار تقريبًا، وفى بواكير صيف نفس العام اتخذت معدلاً مذهلاً، وهو ما يقرب من ٥ ملايين شهريًا. وتعد حمى شراء أراض فيدرالية هذه هى وراء أصل عبارة «أن تدير عملاً كمكتب الأراضى» للتدليل على إدارة مزدهرة واسعة لحجم ضخم من التجارة. وأفزع هذا جاكسون الذى من المحتمل ألا يكون قد فهم قط كيف أن جزءًا من سياساته أدى إلى زيادة الأشياء الأكثر مقتًا بالنسبة إليه: المضاربة والأوراق المالية.

لكنه فهم بالضبط ما الذى يحدث. كتب فى وقت لاحق«إن إيصالات بيع الأراضى لا تزيد عن كونها مبالغ دائنة على البنك. إن البنوك سمحت بتدوال أوراقها المالية للمضاربين، التى دفعوها للمتلقين، وعلى الفور أعيدت إلى البنوك لترسل من جديد مرة أخرى ثم مرة أخرى، لكونها مجرد أدوات لنقل أكثر الأراضى العامة قيمة للمضارب. وزودت بالفعل كل عملية مضاربة العملية الأخرى بالوسائل اللازمة لإجرائها».

وبطريقة جاكسون المعهودة، اتخذ قرار بشأنها. اقترح فى ذلك الربيع على أعضاء حكومته أن يصدروا تعليمات لمكتب الأراضى ألا يقبل إلا بالذهب أو الفضة فى دفع ثمن الأراضى باستثناء المستوطنين الأصليين الذين بمقدورهم أن يشتروا حتى ٣٢٠ فدانًا وتسديد ثمن الأرض بأوراق نقدية حتى تاريخ غايته ١٥ ديسمبر فى ذلك العام. وعارض معظم أعضاء حكومته الخطة، حيث إن الكثيرين منهم تورطوا فى المضاربة، كما اتضح أن الكونجرس، الذى تورط كثير من أعضائه أيضًا فى المضاربة، ما كان ليتحمل مسئولية هذه التعليمات.

ولذا، انتظر جاكسون حتى انفض الكونجرس، ثم أصدر فى ١١ يوليو ما يسمى بمنشور النقود كأمر رئاسى له قوة القانون. وغنى عن البيان ذكر أن الأثر المستهدف هو وقف المضاربة فى الأراضى الغربية تواً. لكنه خلق أيضًا زيادة معتبرة فى الطلب على النقود فى الغرب، ونضوب البنوك الشرقية من الذهب والفضة تبعًا لذلك، مما أدى إلى الاكتناز. وسرعان ما أضحى الكثير من البنوك الغربية فى حالة حجز على أموالها استيفاء للديون، وأشد ما تنطبق هذه الحالة على البنوك المدللة، بفضل جزء آخر من برنامج جاكسون المالى.

وفى ظل سداد الدين القومى وتحقيق الحكومة لفوائض ضخمة (ازدادت عائدات الحكومة بنسبة ١٥٠ ٪ ما بين عامى ١٨٣٤ و١٨٣٦م، وهى أيضًا نتيجة جزئية للزيادة العظيمة فى مبيعات الأراضى)، بات سؤال ما الذى يمكن فعله بهذا الكم من المال ملحًا بصورة متنامية. أقنع جاكسون الكونجرس بإعطائه لحكومات الولايات ابتداء من ١ يناير ١٨٣٧ م. وشرعت البنوك المدللة فى المطالبة بتسديد قروضها بعد أن سحب الكثير من ودائع حكومتها.

عجز مقترضون، يعانون من انعدام شديد فى السيولة، عن تسديد قروضهم فاجتاحت موجة من الإفلاس البنوك فى الغرب، وأخذت فى التحرك ناحية الشرق. ووقعت حالات إفلاس فى قطاعات أخرى من الاقتصاد بعد أن تبخرت السيولة. حاول بنك إنجلترا أن يوقف تدفق الذهب إلى خارج بلاده، فرفع معدل الفائدة، وتراجعت الاستثمارات البريطانية فى الأوراق المالية، وكذلك فى عمليات شراء القطن لبريطانيا. انهار وول ستريت. فى ٢ يناير ١٨٣٧م، ذكرت صحيفة «نيويورك هيرالد» أن معدلات الفائدة التى كانت ٧ ٪ سنويًا أضحت ٢ أو حتى ٣ بالمائة شهريًا.

بدأ الاقتصاد الأمريكى فى الانجراف نحو كساد عميق. هبط سعر القطن إلى النصف فى مارس. ارتفع حجم التعاملات فى الأوراق المالية ارتفاعًا هائلاً فى وول ستريت عند حالة الذعر (وصل فى بعض الأحيان إلى ما يعد حجمًا مذهلاً فى ذلك الحين وهو عشرة آلاف سهم فى اليوم الواحد). بحلول شهر أبريل كتب فيليب هون، الذى شغل منصب عمدة نيويورك السابق فى مذكراته وأوذى هو نفسه مما يحدث «أن

الثروات الضخمة التى كنا نسمع عنها فى وقت المضاربة، ذابت مثل الثلوج أمام شمس أبريل. لا يستطيع رجل أن يحسب حسابه على الفرار من الخراب إلا من لا يملك مالا؛ سعيد من يملك القليل وبلا دين». وفى مطلع الخريف أغلقت ٩٠ ٪ المصانع أبوابها. هبطت العائدات الفيدرالية إلى النصف فى ١٨٣٧م.

وفى شهر مايو، توقفت البنوك فى نيويورك عن الدفع النقدى وسرعان حذت حذوها البنوك فى كبرى المدن الشرقية الأخرى. وتلقت بنوك فيلادلفيا الكبرى اللطمة الأشد. عجزت پنسلڤانيا، التى بلغ دينها كولاية ٢٠ مليون دولار، وهبطت عائداتها من الضرائب هبوطا حادا، عجزت عن الوفاء بمدفوعاتها سواء رأس المال أو الفائدة. بلغ دين نيويورك كولاية مليونين من الدولارات فقط فاستطاعت الوفاء بالتزاماتها، وتمكنت بنوكها من النجاة وخرجت من الأزمة فى حالة أفضل بكثير. وولت أيام فيلادلفيا كمنافس لوول ستريت.

تقاعد أندرو جاكسون بحنكته السياسية الفائقة فى التوقيت المناسب من الرئاسة، فى ٤ مارس. سيكون من نصيب خلفه مارتن ڤان بورين أن يعانى من الآثار السياسية لسياسات جاكسون المالية. عانت البلد أيضًا فى أطول كساد اقتصادى تشهده فى تاريخها، فهى لم تصل إلى القاع حتى فبراير ١٨٤٣م، أى بعد اثنين وسبعين شهرًا كاملين منذ بدء الكساد.

كما عانت سمعة البلد المالية. ففى العام الذى بدأ ينقشع فيه الكساد أخيرًا، وهو عام ١٨٤٣م، كان نفس العام الذى نشر فيه تشارلز ديكنز رواية «أنشودة عيد الميلاد». ويصف فيها كيف أن إيبينزر سكرودج ارتاح عندما علم أن العالم لم ينته بعد، مثلما كان يخشى فى البداية إثر زيارة شبح الكريسماس الماضى. وبالتالى، فإن سكرودج ارتاح عندما علم أن ورقة نقدية تستحق الدفع له بعد ثلاثة أيام، ليست بلا قيمة مثل «مجرد ورقة مالية أمريكية».

* * *

الفصل الثامن

نيوجيرسى لا بد أن تكون حرة

كان المحرك البخارى الذى طوره جيمس واط وسجل براءة اختراعه فى ١٧٦٩م شيئًا جديدًا بالفعل تحت الشمس، فهو أول مصدر للطاقة المحركة منذ ظهور طواحين الهواء فى فارس فى القرن السابع. لكن واط لم يخترعه؛ إنما سجل توماس نيوكومن براءة اختراع أول محرك بخارى عملى فى عام ١٧١٢م. ومع هذا، فإن التحسينات التى أجراها واط جعلت محرك نيوكومن أفضل أربع مرات من ناحية استهلاك الوقود، مما زاد من عدد التطبيقات الممكنة بصورة عظيمة. عندما ابتكر واط المحرك البخارى الدوار فى عام ١٧٨٤م، الذى حول الحركة التبادلية لأعلى ولأسفل الخاصة بمحرك نيوكومن إلى حركة دوارة تدير عمودا، عندها صارت الإمكانات الاقتصادية للمحرك البخارى لا تحدها حدود.

حتى ظهور المحرك البخارى، كان لا يوجد سوى البشر ودواب الأحمال ومساقط المياه وطواحين الهواء كوسائل متوفرة لإنجاز العمل. كان لكلٍّ منها أوجه قصور حادة. كان لابد وأن توضع السواقى وطواحين الهواء حيث توجد المياه والرياح، ولهذا السبب أنشئت المصانع عادة فى مطلع القرن الثامن عشر فى الريف، وليس فى المناطق الحضرية. ويمكن تسخير البشر ودواب الأحمال ذوى القوة المحدودة بصورة فعالة لمدى محدود. لكن المحرك البخارى يمكن تصنيعه بحجم ضخم بما يكفى لينتج كميات هائلة من الطاقة، ويمكن جعل هذه الطاقة تتولى إنجاز أية مهمة كانت. وبسبب

المحرك البخارى، أمكن إنجاز مهام كثيرة كانت عسيرة (وبالتالى غالية الثمن) وباتت يسيرة (وبالتالى رخيصة). كما كانت توجد مهام أخرى كثيرة استحال تحقيقها أضحت فى متناول اليد. ويعد المحرك البخارى، مثل آلة الطباعة فى القرن الخامس عشر، تكنولوچيًا غيرت وجه العالم.

وانتشر المحرك البخارى بسرعة ضمن الاقتصاد البريطانى لتقدم صناعة الحديد فى إنجلترا ووجود احتياطيات الفحم التى توفر وقودا رخيصًا. أما فى الولايات المتحدة التى تركزت فيها الصناعة فى منطقة نيو إنجلند، حيث توافرت مساقط المياه، فقد بدأ اتخاذ البخار للأغراض الصناعية ببطء شديد. وحتى وقت متأخر وهو عام ١٨٣٢م كانت أربعة مصانع فقط هى التى تستخدم طاقة البخار من إجمالى ٢٤٩ مصنعًا شرق جبال أپالاشى.

لكن منذ أول لحظة تقريبًا سجل فيها جيمس واط براءة اختراع المحرك البخارى الدوار، عكف الرجال على محاولة تطبيق هذا الاختراع فى مهمة تحريك القوارب عبر الماء. كانت مزايا البخار أكثر من جلية. إن القوارب الصغيرة يمكن تحريكها بالمجاديف أو البدالات التى يشغلها الرجال؛ أما السفن الكبيرة فلا تتحرك إلا بواسطة الرياح التى تدفع الأشرعة.

ويعتبر «وقود» السفن الشراعية مجانيًا بما أنها فى التحليل النهائى مستمدة من الطاقة الشمسية. لكن السفينة الشراعية لا يمكن أن تذهب إلا حيثما وحينما تحركها الرياح. لكن السفن التجارية القصيرة البدينة فى القرن الثامن عشر كانت بالكاد تستطيع التحرك إلى الأمام عكس اتجاه الريح وعادة ما تضطر إلى الانحراف عن مسارها لمئات بل وآلاف الأميال حتى تعثر على درجة ميل مناسبة للخروج من هذا الوضع. وتعد الريح الغربية المهيمنة على شمال الأطلنطى هى السبب الرئيسى وراء أن رحلة الذهاب من أمريكا إلى أوروپا عادة ما تكون أسرع بكثير من الرحلة المعاكسة، من أوروپا إلى أمريكا.

وتكمن المشكلة الرئيسية فى تطبيق استخدامات الطاقة البخارية على الملاحة فى كيفية نقل العزم المتولد من المحرك البخارى إلى المياه، حتى يتحرك القارب. وجربت

أساليب فى هذا المضمار تفوق الحصر. جرب جيمس رمزى نظامًا لضخ المياه إلى داخل السفينة من أمام مقدمتها ولفظها إلى الخارج من المؤخرة، لكنه كان نظامًا فى غاية التعقيد لدرجة استحال معها تنفيذه. بل كانت هناك محاولة لمحاكاة أقدام البط، وأثبتت فشلها أيضًا.

وجرب نظام آخر عبارة عن سلسلة من المجاديف مثبتة رأسيًا لقضيب أفقى. كان مركز القضيب يتحرك فى دائرة، فيغمس المجاديف فى المياه ويحركها إلى الخلف ويرفعها ثم يأتى بها ثانية إلى الأمام للشوط التالى. بدأت هذه المشكلة تثير اهتمام جون فيتش، الذى ولد فى مدينة وندسور بولاية كونيكتيكت ويعيش فى مقاطعة باكس شمال فيلادلفيا. بنى قاربًا يعمل بهذه الطريقة فى نهر ديلاوير فى وقت مبكر عام ١٧٨٧م. ونجحت الفكرة، ولكن مثل الكثير من المخترعين الرواد، لم يبد فيتش اهتمامًا كبيرًا بالضرورة التجارية لكى تدر هذه الفكرة المال. وفى الوقت الذى ظل فيه قاربه يعمل بناء على جدول منتظم، إلا أنه لم يحقق ربحًا، وسرعان ما اختفى.

كانت أكثر الأساليب الواعدة هى عجلة البدال. وانبثقت الفكرة من الطاحونة التى تعمل بالساقية، حيث تدفع المياه الساقية لتدير الآليات. عكست هذا عجلة البدال: فقد أدارت الآليات العجلة لتدفع بدورها المياه، وبالتالى تحرك القارب. لكن كانت توجد مشكلة واحدة كبرى. كانت عجلة البدال توضع فى ذلك الوقت المبكر فى مستوى منخفض فى جسم القارب، بحيث يغمر نصف العجلة فى الماء. لكن معظم الطاقة المنبعثة من المحرك للماء تهدر لأن البدالات تدخل الماء بصورة أو بأخرى على نحو أفقى وتدفع الماء لأسفل بدلا من الخلف. وكان العكس صحيح أيضًا عندما يدفع البدال الماء لأعلى فى نهاية الشوط. كان فى قاع الشوط فقط يدور العمل المفيد.

ووجد الحل رجل اسكتلندى يدعى ويليام سيمنجتون حينما قرر أن يضع العجلة عاليا بحيث تدخل أطراف البدالات فى الماء، عند نقطة تتمكن منها أن تدفع المياه بشكل كفء. فى يناير ١٨٠٣م سحبت مركبته «تشارلوت دندس» سفينة تبلغ حمولتها مائة طن من ستكونجفيلد حتى ميناء دندس فى قناة فورث وكلايد بمعدل ثلاثة أميال فى الساعة.

عملت مركب سيمنجتون على نحو جيد، ولكن ليس فى القنوات حيث تقل جدواها الاقتصادية بكثير عن الجياد التى تجر الصنادل. وفقد سيمنجتون بشكل أو بآخر اهتمامه بها، لكن هذا لم يحدث مع رجل أمريكى يدعى روبرت فولتون.

ولد فولتون فى پنسلڤانيا، وأظهر فى وقت مبكر استعداداً لفهم الميكانيكا. وأصبح خبيرًا فى صناعة البنادق، بالرغم من أنه لم يتدرب على يد أستاذ فى الصنعة، وهى الطريقة المعتادة لتعلم مثل هذه المهارات فى القرن الثامن عشر. وفى سن الرابعة عشر بنى قاربًا صغيراً بعجلة بدال تدار باليد. وتدرب فى فيلادلفيا على يد صائغ مجوهرات وسرعان ما اتخذ اتجاهًا جديداً وهو تلوين المنمنمات، أعمال الشعر. وذهب إلى إنجلترا فى عام ١٧٨٦م للتتلمذ على يد الرسام الأمريكى العظيم بنجامين وست، لكنه تخلى عن الفن من أجل دراسة الهندسة فى مطلع تسعينيات القرن الثامن عشر. وفى عام ١٧٩٧م انتقل للعيش فى فرنسا.

لم يكن فولتون مخترعًا أصيلاً. إنما مستخدمًا لأفكار الآخرين ومحسنًا لها ومولفًا بينها ليكون فى النهاية شيئًا متكاملاً. فقد حسن الغواصة التى صممها ديڤيد بوشنل فى عام ١٧٧٦م لمهاجمة الأسطول البريطانى فى ميناء نيويورك، وحاول أن يبيع جهده دون جدوى للفرنسيين (فى الوقت الذى جعل فيه البريطانيين على علم كامل بمفاوضاته، ربما لتحقيق ربح ثان).

كان فولتون موهوبًا وإن لم يكن رجل أعمال مفرط فى التدقيق وهو بارع فى اكتساب صداقة ذوى النفوذ. كان أشد أصدقائه نفوذا هو روبرت ليڤنجستون الذى عين وزيراً مفوضًا إلى فرنسا من قبل توماس جيفرسون، وهو أحد أفراد عائلة ليڤنجستون العظيمة فى نيويورك التى لعبت دوراً رئيسيًا فى سياسات الولاية.

كان ليڤنجسون يمتلك ضيعة شاسعة تسمى كليرمون على بعد ١١٠ أميال أعلى نهر هدسون من مدينة نيويورك، وأراد أن يعجل بالسفر بين المكانين. وحاول، بوصفه هاويًا للتجريب فى الآلات وإصلاحها، أن يبتكر مركبًا بخاريًا بنفسه، لكنه لم يفلح. ومع هذا نجح فى أن يحصل على منحة من ولاية نيويورك باحتكار الملاحة بالمراكب البخارية فى مياه نيويورك بشرط أن يبنى مركبًا قادراً على السفر بسرعة أربعة أميال فى

الساعة خلال عام. ولم يف فى الميعاد المحدد، لكن المجلس التشريعى وافق على مده فى عام ١٨٠٣م وسط موجات من الضحك الصاخب ظنًا من معظم الأعضاء أن الشروط المفروضة عليه سيتعذر تمامًا الوفاء بها.

وعندما قابل ليڤنجستون فولتون فى پاريس، قرر أن يساعده بتمويل تجاربه فى مجال المركب البخارى، ووقع الاثنان على اتفاق على بناء مركب بخارى لاستخدامه فى نهر هدسون عند العودة إلى الوطن. وتمخض المشروع عن تقديم فولتون للتصميمات وتوفير ليڤنجستون للمال ـ والاحتكار الملاحى الذى سيضمن ربحية المشروع التجارى. التزم فولتون بفكرة آلية السلسلة المتدافعة، الشبيهة بسير الدبابة المثبت به بدالات، لنقل عزم المحرك إلى المياه. أصر ليڤنجستون على استخدام عجلة البدال، لكن فولتون قاوم الفكرة. ووفقًا لما تذكره سيمنجتون فيما بعد أنه حينما زاره فولتون فى اسكتلندا وركب «تشارلوت دندس» تأثر بها أيما تأثر.

كان فولتون يصر على الدوام بأن المركب البخارى من تصميمه بالكامل، لكن عرف عن فولتون أنه يتجنب قول الحق بل ويكذب كذبًا صريحًا بشأن مسائل تفوق الحصر، ومن الراجح تماما أنه تبنى جوانب حيوية من تصميم سيمنجتون دون أن يعترف بذلك، بخاصة وضع محور عجلة البدال عاليًا. ومن المؤكد أنه تخلى عن فكرة السلسلة المتدافعة لدى عودته من فرنسا.

استقر فولتون لدى عودته إلى الولايات المتحدة فى عام ١٨٠٦م، وذلك للمرة الأولى منذ عشرين سنة تقريبًا، استقر فى مدينة نيويورك وشرع فى بناء مركب بخارى ليبحر فى نهر هدسون. وعندما فرغ من بنائه بلغ طوله ١٤٦ قدمًا وعرضه ١٢ قدمًا، ذا قعر مسطح وجانبين مستقيمين. وجرى صنع آلية عجلة البدال من الحديد المطاوع والمرجل من النحاس محليًا، لكن المحرك البخارى ذو قوة أربعة وعشرين حصانًا جاء من مصنع جيمس واط فى إنجلترا.

وفى صبيحة يوم ١ أغسطس ١٨٠٧م انطلقت مركب نورث ريڤر، كما سماها فولتون بصورة تفتقر إلى الخيال (فقط بعد مماته سيذكر اسمها كليرمون)، من رصيف كريستوفر ستريت. وتجمعت جماهير غفيرة ليودعوها بأنظارها، ومما لاشك فيه أن

الكثيرين منهم توقعوا أن المركب ـ التى شبهها أحد ما بأنها مصنع قطع الأخشاب موضوع على طوف وأضرم فيه النار ـ إما أن يغرق أو ينفجر.

لكن هذا لم يحدث، إنما مضت فى ثبات محدثة صوتًا انفجاريًا خافتًا اتجاه الشمال ومرت بسفن شراعية وهى فى طريقها ووصلت إلى ضيعة ليڤنجستون «كليرمون» فى منتصف اليوم التالى وصعد ليڤنجستون على متنها وتوجه الشريكان إلى ألبانى، ووصلاها فى صباح اليوم التالى. واستغرق المركب اثنتين وثلاثين ساعة ونصف فى قطع مائة وخمسين ميلاً بين نيويورك وألبانى؛ لتكون سرعتها فى المتوسط أربعة أميال ونصف فى الساعة. وأصبح الاحتكار المشروط، الممنوح فى عام ١٨٠٣م، مملوكًا الآن إلى ليڤنجستون وفولتون.

وأصدر فولتون إعلانًا لجذب الركاب فى رحلة العودة، لكن وافق شخصان فقط على أن يدفعا رسم ٧ دولارات، أى أكثر من مثلى السعر المعتاد لرحلة نهرية إلى نيويورك. ومع هذا، فعند العودة اصطف الناس على ضفاف نهر هدسون، ومن بينهم طلبة كلية وست پوينت العسكرية لتحية المركب وهى تمر. وسرعان ما أنشىء خط خدمة بين مدينة نيويورك ونقاط فى الشمال. وبحلول عام ١٨١٢م امتلك ليڤنجستون ست مراكب بخارية تذرع المياه المحلية.

كان ليڤنجستون، الذى فاوض ناپوليون على شراء لويزيانا، على دراية تامة بإمكانات المراكب البخارية فى نهر المسيسيپى وروافده. وقد وفرت هذه الأنهار مالا يقل عن ستة عشر ألف ميل من المياه القابلة للملاحة والتى تصرف فى مساحة تزيد على مليون ميل مربع تمتد من غرب ولاية نيويورك حتى ولاية مونتانا. ويعد الكثير منها أخصب أرض زراعية على وجه الأرض، تمتلىء بإمكانات اقتصادية غير محدودة. كما أن الكثير منها غنى بالمواد المعدنية.

لكن كانت توجد مشكلة سابقة على ظهور الطاقة البخارية: أن هذه الطرق النهرية الرئيسية العظيمة تمضى فى اتجاه واحد. كان بمقدور المراكب المسطحة، التى بالكاد تتجاوز كونها طوفات كبيرة من ألواح خشبية مربوطة جنبا إلى جنب، أن تحمل من ثلاثين إلى أربعين طنًا من البضائع فى المرة الواحدة التى يسحبها التيار هابطة النهر إلى

نيو أورليانز. وخاض إبراهام لنكولن هذه الرحلة مرتين. وبمجرد وصول الشحنة إلى نيو أورليانز، تباع بينما تكسر المراكب المسطحة ويباع خشبها.

لكن ظلت الطريقة الوحيدة لصعود النهر المراكب المسطحة، التى تلاصق ضفاف النهر عندما يكون التيار فى أدنى قوة له وتُجذب أعلى النهر بالجهد البشرى. كانت الرحلة بمركب مسطح من وادى أوهايو حتى نيوأورليانز تستغرق شهرًا، بدون بذل أى جهد بشرى. وتستغرق رحلة العودة بالمركب ثلاثة أشهر من الجهد المضنى. كان معظم المسافرين لا يبذلون حتى هذه المحاولة، ويعودون لمنازلهم سيرًا على الأقدام. وكان طريق ناتشيز تريس الذى يربط بين نهر المسيسيبى عند ناتشيز ونهر ناشڤيل ونهر تينيسى طريقًا رئيسيًا حتى قدوم الطاقة البخارية. وفى عام ١٨١١م أرسل ليڤنجستون وفولتون صانع المراكب نيكولاس روزڤلت إلى بتسبرج لبناء مركب بخارى هناك، من تصميم فولتون. وفى الوقت ذاته حاول ليڤنجستون الحصول على احتكارات مشابهة لتلك التى حصل عليها فى نيويورك. ورفضت معظم الولايات والمناطق إجابة طلب سليل المؤسسة الشرقية فجأة. وهدرت صحيفة «سينسناتى وسترن سپاى» متوعدة لمجرد طرح الفكرة قائلة: «إن طريقنا إلى الأسواق لابد أن يظل وسيظل حرًا. وإن نقل سلطة التصرف بالاحتكار لأفراد لن يؤدى إلا إلى استفزاز مواطنى الغرب للإصرار على . . استمرار مزية المرور وإعادة المرور بدون أن يمسهم سوء فى الطريق الرئيسى العام فى الغرب».

وفى الوقت الذى لم يوفق فيه فى كل مكان، إلا أنه نجح فى المكان الذى يعد بيت القصيد، وهو منطقة أراضى نيو أورليانز. ومنحه حاكم المنطقة ـ الذى كان بلا أى مصادفة أخوه إدوارد، الذى كان سابقًا عمدة نيويورك، وعضوًا فى مجلس الشيوخ ـ احتكارًا فى استخدام مياه لويزيانا. وبما أن نيو أورليانز تمثل عنق الزجاجة فى الملاحة بين النهر والمحيط، فهذا بمثابة احتكار على وادى المسيسيبى بأكمله.

لكن عادة ما كان يتجاهل الاحتكار أو على نحو أكثر دقة، يتحدى. وأقام مالك للمراكب يدعى هنرى شريف دعوى أمام محكمة فيدرالية وفى نهاية المطاف حصل على حكم يفيد بأن أراضى نيو أورليانز ليس لها سلطة على منح مثل هذا الاحتكار. وحينئذ كان كلٌ من ليڤنجستون وفولتون قد توفيا، ولم تقم دعوى استئناف. ونتيجة لذلك ازداد عدد المراكب البخارية بصورة جنونية غير محسوبة.

وتطورت هذه المراكب بسرعة فى شكل جديد، ويرجع الفضل فى هذا ـ إلى حد كبير ـ إلى هنرى شريف، الذى كان له باع فى العمارة البحرية إلى جانب أشياء أخرى. وظهرت المراكب متعددة الأسطح وذات العرض الكبير والقاع العميق والقادرة على «الطفو فى الندى الثقيل» والمهيئة تمامًا للملاحة فى الأنهار التى تتخللها مرتفعات رملية وأراض منبسطة موحلة دائمة التبدل. ومع انتشار هذه المراكب المليحة المزينة فى أنهار منتصف القارة، سرعان ما دخلت الذاكرة الشعبية لتجسد الصور الخالدة عن أمريكا فى القرن التاسع عشر، بفضل أناس مثل ناشرى الرسوم الصحفية كاريار وآيفز والروائى مارك توين والموسيقار جيروم كيرن ومنتج المسرحيات الاستعراضية أوسكار هامرشتاين.

وحل شريف مشكلة أخرى كبرى خاصة بالملاحة فى المسيسيبى وروافده وهى الجذول[1]. تقتطع الأنهار دائمًا جزءًا من ضفافها، فتقع الأشجار الضخمة وتتخذ سبيلها مع اتجاه مجرى الأنهار. وتسمى الأشجار التى طفت فى حرية بـ «النشار» لتشابهها مع نصال المنشار الدائرى وهى تتدحرج فى تؤدة بالتيار المائى. أما الجذول التى تفوقها خطورة بمراحل فهى «المنزرعة»، وهى عبارة عن أشجار تستقر فى القاع. وتستطيع هذه المنزرعة التى عادة ما تكون غير مرئية أن تشق قاع المركب البخارى إلى نصفين فتغرقها فى ثوان. ولا يحدث شىء سوى «صوت انخلاع مباغت واندفاع المياه المبتلعة وقرع الأجراس والصرخات المفزوعة ويمحو التيار مأساة أخرى».

قدر فى عشرينيات القرن التاسع عشر وجود ما لا يقل عن خمسين ألف جذل فى نهر المسيسيبى، تراكمت منذ العصر الجليدى، وظن معظم الناس أنها مشكلة لا يمكن فعل شىء إزائها. وارتأى شريف شيئًا مغايرًا. وبنى هيكلين لمركبين بخاريين، بلغ طول كل منهما ١٢٥ قدمًا، وزود كلاً منهما ببدال على جانب واحد فقط. وربط ما بين المركبين بعوارض تحمل أسفينًا خشبيًا ضخمًا للإمساك بالجذول ونظام بكرة ومرفاع لرفعها من النهر.

(١) الجذول: ما يتبقى من الأشجار بعد قطعها ومفردها جذل.

فى ١٩ أغسطس ١٨٢٩م ذهبت مركب الجذول «هليوپسيس»، التى بناها شريف، للعمل فى بلم پوينت فى ولاية تينيسى، وهى واحدة من أكثر الأماكن امتلاء بالجذول فى نهر المسيسيپى قاطبة. ووجه شريف المركب نحو جذل منزرعة بارزة فوق الماء وهاجمتها. قصم المدك الجذل إلى نصفين ورفع الطاقم الشجرة بالبكر والحبال ونشرها إلى قطع غير مؤذية. وأصبح المجرى المائى فى پلم پوينت بحلول مساء ذلك اليوم نظيفًا من الجذول. وفى العام التالى تمكنت صحيفة من القول بأن «كابتن شريف وفق تمام التوفيق فى جعل ٣٠٠ ميلا من النهر خالية من الأذى مثل بركة الطاحونة».

كان أعظم إنجاز لشريف فى إزالة الجذول هو شق طريق عبر جريت رافت، وهو عبارة عن أخشاب طافية متشابكة يتعذر تحريكها، يبلغ طوله ١٥٠ ميلاً على نهر ريد. وفتح شمال غرب لويزيانا بالكامل أمام التجارة. واليوم تسمى أكبر مدينة فى هذه الولاية باسم شريفپورت.

ويستطيع محرك واط البخارى، كما أظهر فولتون، أن يحرك مركبًا. لكن ثقل المحرك الشديد وضغطه المنخفض ووتيرته المتهادية ـ حيث يقطع ١٢ شوطًا فقط فى الدقيقة ـ جعلته يوفر فى النهاية طاقة قليلة حينما تقسم على كل وحدة وزن. ودعت الحاجة إلى نوع جديد تمامًا من المحركات البخارية لجعل المركب البخارى عرضًا مجزيًا بحق. وقد ابتكر كلٌّ من أوليفر إيڤانز فى الولايات المتحدة وريتشارد تريڤيثيك فى بريطانيا مثل هذا المحرك كلٌّ على حدة.

وكان البخار فى محرك واط يدفع المكبس إلى أسفل الأسطوانة ثم يسحب ويكثف، مما يخلق فراغًا يعيد المكبس إلى أعلى من جديد. وفى كلٍّ من محرك تريڤيثيك وإيڤانز لم يدفع البخار إلى أسفل فحسب إنما كان يدفعه إلى أعلى أيضًا مستعيضًا عن المكثف المستقل. (ولأن المحركات كانت تنفث البخار مرتين فى كل شوط أطلق عليه المحركات النافثة بسبب ضجيجها المميز).

وأتاح هذا للمحرك الجديد أن يقطع أشواطًا أكثر بكثير فى الدقيقة وينتج طاقة أكبر بكثير أيضًا حينما تقسم على كل وحدة وزن. وتمكن إيڤانز، الذى صنع أول محرك بخارى من نوع محرك واط فى الولايات المتحدة بأسرها عام ١٨٠٠، من صنع محرك

مبنى على تصميم خاص به فى عام ١٨٠٣ م. وبلغ قطر أسطوانة ذلك المحرك ست بوصات وطولها ثمانية عشر بوصة فقط، وبلغت قوته حوالى خمسة أحصنة. وبلغ قطر المحركات من نوع محرك واط الإنجليزية الصنع والتى ركبت بعد ذلك بزمن قليل فى الميدان الرئيسى فى فيلادلفيا كجزء من محطة المياه، بلغ قطر كل واحد منها اثنتين وثلاثين بوصة وطولها ستة أقدام، لكنها مع هذا تنتج طاقة تقدر بنحو اثنى عشر حصانًا فقط.

لم يبن أوليفر إيڤانز مركبًا بخاريًا، لكنه صنع أول سيارة تعمل بالطاقة البخارية فى الولايات المتحدة ـ وبالتالى أول سيارة فى العالم وهو أمر موضع خلاف. وكلف إيڤانز بتصنيع جرافة تعمل بالبخار لاستخدامها فى ميناء فيلادلفيا فصنع مركبة يبلغ طولها ثلاثين قدمًا وعرضها اثنى عشر قدمًا، وبلغ وزنها سبعة عشر طنًا. وركب أعلى هذه المركبة محركًا جديدًا أصغر وأخف بل وأكفأ من نموذجه الأول فى متجره الواقع على بعد ميل من شارع ماركت ستريت من ناحية نهر سكوكل، ثم وضع هذا الشيء برمته على عجلات وربط المحرك بمحور واحد للعجلات متصل بجنزير. ومنح هذا الاختراع اسمًا لا يصدق هو أوريوكتر آمفيبولوس Orukter Amphibolos، وسار فى شارع ماركت ستريت متجهًا إلى النهر « فى حركة رقيقة ».

وعندما وصل إيڤانز الميدان الرئيسى دار حول محطة المياه عدة مرات، فكون حرفيًا ومجازيًا حلقات حول تصميم محرك واط ذى الضغط المنخفض، قبل أن يمضى فى طريقه نحو سكوكل حيث أسقط العجلات وودعت أوريوكتر آمفيبولوس التاريخ لتتولى مهامها كجرافة.

لقد صار محرك واط، الذى تسبب فى إشعال الثورة الصناعية واعتبر أكثر الابتكارات الجوهرية أهمية منذ اختراع المطبعة من ثلاثمائة عام مضت، صار اختراعًا مهجوراً بعد ثلاثة عقود فقط. إن وتيرة التغير أصبحت منذ ذلك الحين بالفعل متسارعة تسارعًا لايهدأ إلى يومنا هذا.

بدأ إيڤانز فى تصنيع المحركات البخارية فى مصنع مارز للصناعات الحديدية، الذى يملكه فى فيلادلفيا، وافتتح فيما بعد فرعًا له فى بتسبرج أداره ابنه لتوفير المحركات البخارية لأسطول المراكب البخارية المتنامى فى وادى الميسيسيپى.

غيرت قناة إيرى والمركب البخارى على نحو عميق مركز الجاذبية الاقتصادية فى أعلى حوض نهر الميسيسيبى حيث كان فيما مضى يهبط ـ إجباريًا ـ معظم ناتج هذه المنطقة المتسارع فى النمو ـ نهر الميسيسيبى ـ متجهًا إلى نيو أورليانز، بدأ الآن بدلاً من ذلك فى التحرك ناحية الشرق. أخذت أوهايو فى التوجه للتجارة بصورة أساسية مع الشرق. وتبعتها ولاية إنديانا (فى عام ١٨٤١)، وولاية ميشيجان (فى عام ١٨٣٦) وولاية إيلينوى (عام ١٨٣٨) وولاية ويسكونسن (عام ١٨٤١). حتى مدينة سينسيناتى، الواقعة شرق نهر أوهايو، تاجرت بشكل أساسى مع المدن الشرقية بحلول عام ١٨٦٠م.

رسخ هذا التحول فى التوجه الاقتصادى الرابطة بين منطقةوسط الغرب العليا، التى يسكنها غالبية من المهاجرين القادمين من نيو إنجلند والجزء من شمال ولاية نيويورك وبين الشمال الشرقى للبلد، إلى جانب إسهامه فى النمو العظيم لمدن مثل نيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور. وبالتالى، ثبت هذا ولاء هذه المنطقة لصالح قضية الاتحاد عند نشوب الحرب الأهلية.

لكن نيو أورليانز، بفضل موقعها عند قاعدة هذه الشبكة التجارية الشاسعة، قد ازدهرت هى الأخرى بشكل فاق أى ميناء آخر فى منطقة الجنوب. وبلغ حجم البضائع المصدرة من نيوأورليانز ٦٥ ألف طن فقط فى عام ١٨١٠, وبحلول عام ١٨٦٠ بلغ حجم البضائع ٦٩٠٠٠٠ , ٤ طن، أى بزيادة بلغت اثنين وسبعين مثل خلال خمسين عامًا فقط.

استمر احتكار ملاحة المراكب البخارية فى نيويورك لفترة أكثر بكثير مقارنة بما حدث فى نيو أورليانز، وسوف يخلف ذلك آثارًا أعظم.

انتقمت نيوجيرزى وكونيكتيكت بأقصى ما تستطيعان، فحظرتا مراكب نيويورك من الملاحة فى مياههما مثلما كان الحال بالنسبة لمراكبهما فى نيويورك. وكان الاحتكار يحظى بالطبع باستياء شعبى بالنسبة لكل فرد باستثناء المنتفعين منه بشكل مباشر، حتى بالنسبة لأهل نيويورك الذين كانوا مضطرين إلى دفع رسوم ركوب غالية بسببه. وقرر رجل واحد من نيوجيرسى، يدعى توماس جيبونز، أن يناضل ضد الاحتكار فى

المحاكم وفى السوق. كان يمتلك مركبًا بخاريًا يسمى « ستودينجر » (لكن لصغر حجمه الشديد عرف عادة باسم « ماوس» أى الفأر) والذى كان يضعه فى مجرى خط نيويورك ـ نيو برونزويك وهى أول مرحلة فى أسرع مسار إلى فيلادلفيا. واستأجر ربانًا شابًا اسمه كورنيليوس ڤاندربيلت من جزيرة ستاتن.

كان ڤاندربيلت يمتلك بالفعل، وهو بعد فى العشرينيات من العمر، أسطولاً صغيرًا من السفن الشراعية، لكنه أدرك أن المستقبل للطاقة البخارية، وذهب إلى جيبونز لاكتساب الخبرة وبناء رأسماله. وسرعان ما أقنع جيبونز ببناء مركب أكبر، صممه ڤاندربيلت، أطلق عيه جيبونز اسم « بيللونا » تشبها بإلهة الحرب الرومانية. وكان المعنى المتضمن لا يخفى على أحد فى هذا العصر المتجه أكثر إلى الكلاسيكية.

كان ڤاندربيلت يقود المركب وهى ترفع علمًا مكتوبًا عليه « نيوجيرزى لابد أن تكون حرة ! » فى جسارة إلى نيويورك، ويلقى بالمرساة فى أى مكان لا تبدو فيه سلطات ولاية نيويورك موجودة، ويختفى على الفور فى المدينة. ولم تجرؤ السلطات على الاستيلاء على المركب، لأنها كانت تدرى جيدًا أن نيوجيرزى سترد بالمثل مع أول مركب بخارى تابع للاحتكار تستطيع أن تبسط يدها عليه. وفى وقت الملاحة الشراعية يتسلل مقتربًا من سفينته قدر الإمكان، ثم يثب على السفينة ويشرع طاقمها فى الإبحار مغادرين الميناء بمجرد هبوطه على متنها.

وحاولت السلطات حتى اعتقال ڤاندربيلت عن طريق صعود رجالها على متن بيللونا. لكن كل ما عثروا عليه عند عجلة القيادة هو راكبات ـ كلهن براءة، وأشرطة شعر وقبعات تشد بأشرطة ـ بينما اختبأ ڤاندربيلت فى مقصورة سرية فطن إلى بنائها داخل السفينة. وصحن الراكبات صيحة استهزاء بالشرطة سيئة الحظ.

وحاول ممثلو الاحتكار أن يشتروا ڤاندربيلت عن طريق تقديم راتب له بمبلغ خرافى وهو ٥ آلاف دولار سنويًا لكنه أبى بطريقة حادة قائلاً: «سأظل ملازمًا للسيد جيبونز حتى يجتاز مشكلاته». وكان ڤاندربيلت، طوال مسيرته المهنية منذ أن كان صبيًا يعمل فى مزرعة حتى أصبح أغنى رجل فى أمريكا، شخصًا يعتمد عليه دائمًا فى الوفاء بالجانب الخاص به فى الصفقات بعد أن يجرى الاتفاق عليها.

وفى الوقت الذى حقق فيه الاحتكار نجاحًا محدودًا فى منع التنافس فى عالم الواقع، إلا أنه ليس من المدهش أن يظل هذا الاحتكار ينتصر على جيبونز فى محاكم ولاية نيويورك. وبعد خمس سنوات وصلت القضية أخيراً إلى المحكمة العليا للولايات المتحدة، ووكل جيبونز اثنين من أفضل المحامين فى البلد لتمثيله هناك - دانيال وبستر، العضو بالكونجرس عن ولاية ماساتشوستس، ووليام ويرت الذى يشغل منصب المدعى العام الأمريكى، إلا أنه هنا كان يؤدى وظيفة خاصة.

استغرق وبستر النهار بكامله ليقدم ما وصفه الجميع بأنه مرافعة قانونية باهرة داخل قاعة امتلأت عن آخرها. ودفع بأن منح السلطة للحكومة الفيدرالية فى الدستور لتنظيم التجارة . . . بين الولايات كاسحًا وحصريًا. إن نيويورك ليس من سلطتها منح احتكار فى مياه نيويورك والتى استبعدت من ليسوا أهل نيويورك، وفقا لوبستر، لأن الحكومة الفيدرالية هى وحدها التى تملك الولاية القضائية فى هذا الشأن.

وتحدث ويليام ويرت والمحامون الذين وكلوا بالدفاع عن مصالح ليثنجستون، توماس ج. أوكلى وتوماس آديس إيميت باستفاضة وبإجماع التقارير ببلاغة. وكان قرار المحكمة منتظراً على نطاق واسع، ليس فى نيويورك فحسب إنما فى كل مكان آخر أيضًا. وذكرت صحيفة «نيويورك ستيتسمان» فى ١٤ فبراير ١٨٢٤ «تشهد المدينة فضولاً كبيراً لمعرفة القرار الخاص بقضية المراكب البخارية الكبرى التى جرى التجادل بشأنها بمقدرة فائقة فى واشنطن».

أرجئ البت فى الأمر عندما سقط كبير القضاة مارشال، لدى عودته من زيارة للبيت الأبيض، إثر هبوطه من المركبة التى تقله وانخلع كتفه فى ١٩ فبراير. ومع هذا، أدلى مارشال بالرأى، «بصوت خفيض ضعيف» فى ٢ مارس، بعد ثلاثة أسابيع فقط من استماع المحكمة للحجج المختلفة. وكتب مارشال بإجماع أعضاء المحكمة (كتب القاضى جونسون من ولاية كارولاينا الجنوبية رأيًا موافقًا، بل أكثر إطلاقًا فى تفسيره من تفسير مارشال)، «مما لاشك فيه أن التجارة مقايضة. لكنها أيضًا شىء آخر أكبر من ذلك، إنها اتصال. . . . ويجرى تنظيمه عن طريق وضع قواعد لإدارة هذه العلاقة». بما أن الدستور أعطى الحكومة الفيدرالية سلطة «تنظيم التجارة بين الولايات» فبالتالى الحكومة الفيدرالية والحكومة الفيدرالية وحدها هى المخولة بوضع القواعد.

وبالطبع هذا هو ما دفع به وبستر. (ربت وبستر على نفسه كالمعتاد، وكتب «إن رأى المحكمة الذى أدلى به كبير القضاة لا يزيد عن كونه ترديداً لمرافعتى»). لكنها كانت أيضًا تأكيداً جديداً مبهراً على السلطة الفيدرالية. وكتب الرئيس مونرو فى رسالة نقض إلى الكونجرس عام ١٨٢٢ أن السلطة الممنوحة من الدستور بتنظيم التجارة بين الولايات لا تمتد لما وراء فرض الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية ولمنع فرض الرسوم الجمركية على التجارة بين الولايات وهو الأمر الذى يحظره الدستور صراحة.

واستقبل حكم المحكمة بابتهاج عظيم فى كل مكان، وأعادت الكثير من الصحف طبع قرار المحكمة بكامله. وكتبت صحيفة فى ميسورى « إن بعض أهل نيويورك يظهرون بعض التململ عقب صدور القرار الأخير من المحكمة الأمريكية العليا فى شأن احتكار المراكب البخارية. عليهم أن تقر أعينهم بأن القرار توافق عليه شقيقاتها الولايات الأخرى، اللاتى ترى أنه من غير اللائق إدعاء نيويورك الهيمنة على المياه التى تشكل وسيلة للاتصال بين هذه الولاية والولايات الأخرى، وعلى هذا الاتصال فى حد ذاته ».

وفى واقع الأمر، لقد أقر معظم أهل نيويورك القرار من صميم قلوبهم. وبعد صدور القرار بوقت قليل « دخل المركب البخارى « يونايتيد ستيتس» بقيادة الربان بانكر ميناء نيويورك، آتيا من نيو هيڤن، فى انتصار وسط تلويح الأعلام المثلثة ومجموعة كبيرة من الركاب السعداء بقرار المحكمة الأمريكية العليا ضد احتكار نيويورك. أطلق المركب بوقه تحية جاوبتها هتافات النصر والابتهاج من أرصفة الموانئ».

سمعت الأمة بأسرها هتافات النصر والابتهاج. ذكرت صحيفة «جورجيا جورنال» أن مركبين بخاريين وصلتا إلى أوجستا استقبلتا « بهتافات تسقط كافة احتكارات التجارة والمصنعات ـ إن شر إحداها عظيم مثل الأخرى. أعطونا تجارة حرة وحقوق البحار!» وفى الوقت الذى قد يشك فيه المرء فى أن المخبر الصحفى المجهول استطاع أن يدون بدقة ما الذى يهتف به من رصيف الميناء، إلا أنه التقط بلا ريب روح اللحظة. ومثلما وصف قاض القرار بعد مضى عشرين عامًا بأنه « حرر كل نهير ونهر، كل بحيرة وميناء فى بلدنا من تدخل الاحتكارات ».

إن الآثار الاقتصادية لما أسماه تشارلز وارين، مؤلف العمل الكلاسيكى « المحكمة العليا فى تاريخ الولايات المتحدة »، بـ « إعلان تحرير التجارة الأمريكية»، كانت فورية. انخفضت تذاكر السفر من نيو هيڤن إلى نيويورك بنسبة ٤٠ ٪ بفضل التنافس، وقفز عدد المراكب البخارية العاملة فى نيويورك من أقل من ست مراكب إلى ثلاث وأربعين.

لكن الآثار على المدى الطويل كانت أكثر عمقًا. توقفت الولايات عن منح احتكارات من أى نوع للمواطنين ذوى النفوذ الساعين للحصول على إيجارات، بعد أن أصبحت بديهيًا غير دستورية. كما سقطت حواجز أخرى أمام التجارة بين الولايات، والتى أنشئت لتحصيل منفعة ضيقة. وبالتالى، فإنه بفضل الحكم فى قضية جيبونز ضد أوجدن، أضحت الولايات المتحدة بحق أكبر سوق مشتركة فى العالم، مع التنامى المتسارع للطاقة البخارية فى نقل البضائع لمسافات بعيدة على نحو رخيص ـ وهى طاقة ألمح إليها المركب البخارى. وستثبت السكك الحديدية أنها اختراع القرن التاسع عشر الجوهرى والواعد وتخلق الاقتصاد الحديث الذى جعلت قضية جيبونز ضد أوجدن الولايات المتحدة مؤهلة له.

مثل الكثير جدًا من اختراعات القرن التاسع عشر (وأكثر منها اختراعات القرن العشرين)، لم يكن اختراع السكك الحديدية اختراعًا وحيدًا أبدعه مخترع بمفرده. وبدلاً من هذا كان نظامًا اخترعت مكوناته كل حدة، ثم جمعت معًا من قبل أناس يمتهنون مهنة جديدة هى الهندسة المدنية (سميت بهذا الاسم لأنه حتى منتصف القرن الثامن عشر، كلمة «مهندس» كانت تطلق على التخصص العسكرى فحسب).

كان من المعروف منذ القرن السادس عشر، فى مجال التنقيب عن المعادن، أنه باستطاعة أحد حيوانات الجر (أو أحد من بنى البشر) أن يدفع ثقلا أكبر بكثير من المعتاد إذا كانت العربة التى تحمله تسير على قضبان. ويرجع السبب فى هذا أن العجلات ذات الشفير المعدنى الموضوعة على قضبان معدنية لها معدل « تدحرج احتكاكى» منخفض جدًا. إذا تسارعت قاطرة تبلغ حمولتها أربعين طنًا وسرعتها ستين ميلا فى الساعة فإنها ستنزلق بفعل الجاذبية بمقدار خمسة أمثال شاحنة تحمل حمولة ذات وزن مماثل على طريق سريع مستو. ويجعل هذا من السكك الحديدية، حتى يومنا هذا، أكثر وسائل النقل اقتصادية فى شحن البضائع.

ولم يمض وقت طويل بعد ظهور المحرك البخارى حتى راودت الناس فكرة المزاوجة بين نوعى التكنولوچيا. وتنبأ بالفعل أوليفر إيڤانز بالسكك الحديدية تقريبًا برمتها قبل أن تصبح حقيقة ماثلة. كتب فى عام ١٨١٣، أى قبل إنشاء أول خط سكة حديدية تجارية ناجحة: «سيأتى زمن يسافر فيه الناس فى عربات [أى عربات المسافرين] تحركها المحركات البخارية، من مدينة لأخرى، ستقارب سرعتها سرعة الطيور أثناء طيرانها. ستنطلق عربة من واشنطن فى الصباح، ويتناول الراكب إفطاره فى بالتيمور، وغداءه فى فيلادلفيا وعشاءه فى نيويورك فى نفس اليوم... وكى يتحقق هذا، ستوضع سكك حديدية مزدوجة... لتوجيه العربة، بحيث يتسنى لكليهما أن تمرا ببعضهما البعض فى اتجاهين مختلفين، ويمكن السفر ليلاً مثلما يحدث نهارًا».

لم يطوع إيڤانز محركه قط لمفهوم السكك الحديدية، لكن تريڤيثيك فعل هذا عندما بنى أول قاطرة فى العالم، باستخدام المحرك البخارى. وقد جربها على طريق الترام فى مسبك الحديد المملوك لصموئيل هامفرى فى جلامورجانشير فى ويلز. وفى ٢١ فبراير ١٨٠٤، جرت أول قاطرة أول قطار عبر مجموعة من الخطوط، وهنالك ولدت السكة الحديدية.

ومع هذا، سيستغرق الأمر خمسًا وعشرين سنة أخرى قبل أن يحل كم المشكلات الذى وقف فى طريق سكك حديدية عملية، وأنشأ جورج ستيفنسون ـ الذى حل الكثير منها ـ أول خط تجارى ناجح للسكة الحديدية يسير بالطاقة البخارية فى العالم، خط مانشستر ـ ليڤربول للسكة الحديدية. وافتتح فى ١٥ سپتمبر ١٨٣٠، بحضور دوق ويلنجتون، الذى كان يشغل منصب رئيس وزراء بريطانيا آنذاك. ونجح الخط بربطه بين مدينة مانشستر الصناعية العظيمة وميناء ليڤربول العظيم نجاحًا ماليًا فوريًا.

لكن مشاريع السكك الحديدية فى الولايات المتحدة كانت على وشك الانتهاء منها فى نفس هذا الوقت. فقد منح جون ستيڤنز، مؤسس معهد ستيڤنز فى هوبوكين بولاية نيوجيرزى، امتيازًا بإنشاء سكة حديدية بين نهرى ديلاوير وراريتان، لكنه لم ينشأ قط. كما بنى ستيڤنز أول قاطرة فى هذا البلد، فى عام ١٨٢٥م، لكنها كانت تجرى على خط دائرى أمام منزله فى هوبوكين.

لكن ابنه، روبرت ليثنجستون ستيثنز، كان مهندسًا موهوبًا للغاية، قدم إسهامًا جوهريًا لتكنولوچيا السكك الحديدية. كان ستيثنز الصغير هو الذى صمم شكل القضبان الحديدية لتكون على هيئة حرف T، إذا أخذ لها منظورًا مقطعيًا، ليصبح هذا التصميم الأساسى للقضبان منذ ذلك الحين. كما اكتشف أيضًا أنه إذا ما وضعت القضبان على عوارض خشبية وبينها وبين القضبان حصى سيجعل ذلك منها أفضل أرضية. واخترع رزة للسكة الحديدية؛ ليجعل كل شىء متماسكًا.

لقد حفز نجاح قناة إيرى الأذهان فى الأوساط التجارية فى الموانئ الشرقية الأخرى. أرادت بالتيمور، التى كانت تنمو على عجل، أن تضمن مزيدًا من النمو عن طريق الولوج إلى السوق الغربية المزدهرة، لكن جغرافيا جبال أپالاشيا جعلت من شق قناة غرب بالتيمور باهظة الثمن بشكل يستحيل تنفيذها. ولذا، فإنه تقرر استخدام تكنولوچيا السكة الحديدية الوليدة، بالاستفادة من الخيول كمصادر للطاقة.

فى ٤ يوليو ١٨٢٨ رفع تشارلز كارول من مدينة كارولتون، آخر من تبقى على قيد الحياة من الموقعين على إعلان الاستقلال، أول مجرفة من التراب لإنشاء خط سكة حديدية بين بالتيمور وأوهايو. وكانت المراسم خليطًا من القديم والجديد. أصر كارول نفسه، البالغ من العمر الواحدة والتسعين، على لبس بنطلون قصير الذى كان يلبسه فى ريعان الشباب، والذى مضت صيحته منذ ثلاثة عقود. وبالرغم من أن خط بالتيمور- أوهايو يموله القطاع الخاص إلا أن تدشينه جرى فى احتفال عام، وجرى تنظيم الموكب الهائل المؤدى إلى المراسم بترتيب المهن والحرف مثلما كان الحال فى استعراضات أهل الحرف فى المدن الإنجليزية أثناء العصور الوسطى. لكن المشروع التكنولوچى الذى يحتفل به فى رزانة ومهابة كان جديدًا كل الجدة، وسيخلق عالمًا اقتصاديًا جديدًا خلال جيل واحد فقط.

وأحس كارول بهذا. وقال للحشد، الذى قدرته الصحف بخمسين ألف شخص: «إننى أعتبر أن ما فعلته الآن من بين أهم الأفعال التى فعلتها فى حياتى، يأتى فى المرتبة الثانية فقط لتوقيعى لإعلان الاستقلال، إذا كان يمكن لفعل أن يأتى ثانيًا له».

وبمجرد ما أظهر خط ليڤرپول ـ مانشستر الحديدى مدى عمليته، حتى بدأ تنفيذ مشاريع السكك الحديدية فى أجزاء كثيرة من هذا البلد، عادة كخطوط قصيرة محلية

استهدف منها الربط بين بلدة وبين جزء من نظام النقل النهرى القائم. ولقد حولت الكثير من مشاريع القنوات إلى مشاريع للسكك الحديدية، التى تفوق مميزاتها العديدة تلك الخاصة بالقنوات. إن إنشاء سكة حديدية أيسر ويمكن أن تنشأ فى أى مكان تقريبًا وعلى غالبية أنواع الأراضى وتعمل طوال العام.

وتكاثرت على عجل. ففى عام ١٨٣٠ أنشئ ٢٣ ميلاً فقط من خطوط السكك الحديدية فى البلد. وفى عام ١٨٤٠، صارت ٢٨١٨ ميلاً؛ وفى عام ١٨٥٠ زادت إلى ٩٠٢١ ميلا. ومع اندلاع الحرب الأهلية أصبحت ٣٠٦٢٦ ميلا؛ يتركز ثلثاها فى الشمال ـ لتربط البلد اقتصاديًا ككل متلاحم. وكان لهذا أعمق الآثار؛ لأن السكك الحديدية ربطت ما بدا أنه فى القرن الثامن عشر أنه أسواق محلية لا نهاية لها داخل سوق وطنية يتنامى تكاملها. وأبدى آرثر ت. هادلى فى كتابه الكلاسيكى عن الاقتصاديات «النقل بالسكة الحديدية» الذى نشر فى عام ١٨٨٦، تعجبه من أنه «منذ جيلين كانت تكلفة أجرة النقل عالية للدرجة التى كانت تحتم استهلاك القمح داخل مائتى ميل من المكان الذى يزرع به. اليوم يتنافس قمح داكوتا مع قمح روسيا وقمح الهند تنافسًا مباشرًا. إن المعروض فى أوديسا [ميناء على البحر الأسود فى روسيا ـ المترجم] عنصر فى تحديد السعر فى شيكاجو».

ومثلما أتاحت السكك الحديدية إمكانية جعل الأسواق أكبر، فقد أتاحت أيضًا إمكانية جعل المشاريع الصناعية أكبر. لكن كانت لها عواقب تجاوزت كثيرًا مثل هذه الآثار الاقتصادية المباشرة. فحيثما حلت السكك الحديدية جلبت معها نشاطًا اقتصاديًا ونشأت مدن وبلدات بطول الخطوط وبخاصة عند التقاطعات. فى أوروبا، ربطت السكك الحديدية بين مدن قائمة. وفى أمريكا، فى الكثير من الحالات، أخرجتها إلى حيز الوجود.

تحتاج صناعة السكك الحديدية رأس المال بكثافة، بحيث يتكلف إنشاء ميل واحد فى تلك الأيام المبكرة فى المتوسط ٣٦ ألف دولار فى الوقت الذى كان فيه مبلغ ألف دولار يعتبر دخلاً سنويًا لأحد أفراد الطبقة المتوسطة. وكان القاطنون بالقرب من الطرق التى تمتلكها شركات مد السكك الحديدية فى أوائل عهدها يدفعون تكاليفها والذين من المرجح أن يكونوا أول المستفيدين استفادة مباشرة، مثلما جرى فى تمويل خط ليفربول ـ مانشستر.

لكن الأوراق المالية التى أصدرت محليًا سرعان ما وجدت طريقًا إلى أسواق رأس المال، بخاصة إلى ما سيصبح على عجل أكبر هذه الأسواق، وول ستريت. وكلما ظهرت رؤية لإنشاء سكك حديدية أكبر، مثلما كان يحدث بسرعة، كانت الأوراق المالية عادة ما يجرى تعويمها فى مثل هذه الأسواق من البداية. كانت الصحف تسجل بشكل منتظم أسعار الأوراق المالية لثلاث شركات للسكك الحديدية فقط فى عام ١٨٣٥م. بحلول عام ١٨٥٠م كانت ثمانية وثلاثين شركة. ومع منتصف هذا العقد باتت أسهم وسندات السكك الحديدية تشكل أكثر من نصف كل الأوراق المالية القابلة للتداول فى هذا البلد، بينما ارتفع حجم التعاملات فى وول ستريت بمقدار العشر.

كما تطلبت السكك الحديدية كميات هائلة من السلع الصناعية: القاطرات، عربات البضائع والركاب، والقضبان والعوارض الخشبية ومسامير الربط الضخمة والأجزاء المكونة للجسور، وذلك على سبيل الذكر لا الحصر. وفى البداية، كان كل هذا تقريبًا يستورد من إنجلترا. لكن مع تنامى الطلب الأمريكى على هذه السلع، شرع أصحاب المبادرة الصناعية من الأمريكيين يمدون السوق بها شيئًا فشيئًا، فدفعت السكك الحديدية الثورة الصناعية فى هذا البلد أكثر من أى قوة أخرى منفردة.

فى عام ١٨٢٨م، العام الذى شهد مراسم الاحتفال بخط بالتيمور ـ أوهايو، اشترى رجل صناعة ناشىء من نيويورك يدعى پيتر كوپر، واثنان من الشركاء، ثلاثة آلاف فدان فى بالتيمور وبنى مصنع كانتون للصناعات الحديدية هناك. وكان يأمل فى أن يشكل خط بالتيمور ـ أوهايو مصدرًا لأعمال تجارية منتظمة إلى جانب كونه وسيلة لجلب إمدادات الوقود وخام الحديد. وسرعان ما قارب خط بالتيمور ـ أوهايو على الإفلاس. اكتشف منشئو الخط أنهم عاجزون عن تحقيق أرباح باستخدام الجياد، حيث إن الأميال الثلاثة عشر من السكة الحديدية التى أنشئت كانت توجد بها منحنيات حادة إلى الدرجة التى حين رآها جورج ستيفنسون على الخريطة، أعلن أن المنحنيات حادة للغاية بصورة يتعذر معها على القاطرات البخارية أن تدفع القطارات.

عرف كوپر، الذى يعد ميكانيكيًا موهوبًا جدًا إلى جانب كونه رجل أعمال من الطراز الأول، عرف أن المهندس كان خاطئًا. قال: «سأجمع محركا بشكل تقريبى وعلى عجل فى ستة أسابيع، وسيجر عربات لمسافة عشرة أميال فى الساعة».

عثر على عجلات قديمة تؤدى الغرض فركبها فى منصة، وثبت محركًا بخاريًا، كان قد صنعه لمشروع سابق أرسل إليه من نيويورك، فى المنصة بجانب غلاية. وبرزت مشكلة فى الربط بين الغلاية والمحرك. كانت مواسير السباكة المتوفرة فى البلد فى ذلك الوقت مصنوعة من الرصاص الذى ما كان ليتحمل الضغط والحرارة المنبعثة من المحرك البخارى. لذا، أخذ كوپر بندقتين قديمتين ونشر ماسورتهما بمنشار واستخدمهما فى التوصيل بالمواسير. كانت النتيجة هى أول قاطرة تجارية تصنع فى الولايات المتحدة. وتعد القاطرة صغيرة جدًا بالنسبة إلى المقاييس اللاحقة، والتى أطلق عليها اسم تدليل عقلة الإصبع تشبهًا بشخصية القزم الشهير الذى أبدعها ب. ت. بارنوم. وهى على صغرها كانت تعمل بكفاءة، وفى باكورة رحلاتها جرت مركبة تحمل أربعين شخصًا وانطلقت بسرعة ثمانية عشر ميلاً فى الساعة، وهى سرعة تقطع الأنفاس فى ذلك الوقت. (أتى العديد من الركاب بورق وأقلام رصاص وكتبوا جملاً مترابطة لدحض اعتقاد شاع فى ذلك الوقت، وهو أن أذهان البشر لا يمكن أن تعمل أثناء مثل هذه السرعات).

وبدأ خط بالتيمور ـ أوهايو فى الازدهار. ومد الخط بانتظام ليصل إلى هارپرز فيرى المطلة على نهر پوتوماك فى عام ١٨٣٤م ونهر أوهايو فى عام ١٨٥٢م. كما ازدهر مصنع پيتر كوپر للصناعات الحديدية، وكذلك مدينة بالتيمور. وعندما قرر كوبر أن يصفى أعماله بعد سنين قليلة لاحقة، باع أسهمه فى خط بالتيمور ـ أوهايو بـ ٢٣٥ دولارًا للسهم، والذى اشتراه بـ ٤٥ دولارًا للسهم.

لا يوجد شىء يوضح التلازم الاقتصادى الذى تتصف به أى تكنولوچيا كبرى جديدة، بينما ماتزال آثارها ترسل موجات عبر الاقتصاد. لقد جعلت السكك الحديدية من السفر أمرًا ممكنًا لمسافات أبعد وأسرع وأرخص عن ذى قبل. احتاج أندرو جاكسون كى ينتقل من ناشڤيل إلى واشنطن لحضور مراسم توليه الرئاسة فى عام ١٨٢٩م أن يسافر بالعربة التى تجرها الخيول لمدة شهر. وبعد مضى ثلاثين عامًا أمكن القيام بهذ الرحلة بشكل أيسر وعلى نحو مريح أكثر بكثير، فى ثلاثة أيام.

لكن السكك الحديدية حفزت أيضًا على نحو عظيم التصنيع والتنقيب عن المعادن والسفر والتجارة بشكل عام. وكانت السكك الحديدية ببساطة أمرًا مثيرًا بالنسبة إلى أناس ذلك العصر، الذين أحسوا فورًا بأنهم فى عصر جديد، عصر يتجاوز فهم الأزمنة

السالفة. كتب جورج تمپلتون سترونج، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، فى مذكراته فى عام ١٨٣٩ « إنه لمنظر رائع أن ترى قطاراً ضخمًا أثناء تحركه. لا أعرف شيئًا يمكن أن يؤثر بشكل أعمق فى أجداد أجدادنا أكثر من فكرة تقدم أحفادهم فى العلوم. . . . فقط تخيل تصور مثل هذا يندفع على غير توقع عن طريق شخص غريب للاختراع فى ليلة مظلمة أزيز وطقطقة ولهاث، بفرنه الملتهب يلمع فى المقدمة، ومدخنته تنفث دخانًا ناريًا لأعلى، وصف عرباته الطويل يندفع من ورائه مثل جسم وذيل تنين عملاق ـ أو مثل الشيطان نفسه ـ وكله يمرق إلى الأمام بسرعة عشرين ميلاً فى الساعة» . .

لكنه كان أيضًا إحساسًا بالريبة وعدم الارتياح، وبخاصة من جانب الجيل الأكبر سنا. كتب فيليپ هون، الذى يكبر سترونج بأربعين سنة، فى عام ١٨٤٤ « إن هذا العالم يمضى بسرعة شديدة جدًا. التحسينات والسياسة والإصلاح والدين - جميعها تطير. السكك الحديدية والسفن البخارية وسفن ذات المواعيد المنتظمة، سباق ضد الزمن والتغلب عليه بشكل كاسح. . . . آه، على الأيام الخوالى الجميلة أيام عربات البريد المثقلة وسرعة بمعدل ستة أميال فى الساعة !» .

يعد استخدام هون لعبارة « الأيام الخوالى الجميلة» أقدم تسجيل لمثل هذا النوع من العبارات. ولد هون فى عام ١٧٨١ فى عالم تكنولوچيًا واقتصاديًا واجتماعيًا مشابهًا جدا للعالم الذى ولد فيه والداه، بل والعالم الذى ولد فيه أجداد أجداد أجداده. لكن بفضل المحرك البخارى والثورة الصناعية، عاش ليشهد كونًا اقتصاديًا جديداً. وشهد كل جيل منذ ذلك الوقت تجربة مماثلة، وأصبح من الشائع العيش لفترة تطول بما يكفى أن يشهد المرء عالما تكنولوچيًا فى شبابه يختفى مع تقدمنا فى العمر. لكن بالنسبة لجيل فيليپ هون، كانت التجربة جديدة ومثيرة، لكن فى بعض الأحيان مفزعة.

استغل ناشرا الرسوم الصحفية كاريار وإيڤز هذا الحنين للماضى، فنشرا رسومًا رومانسية لعالم منظم مهندم سابق على العصر الصناعى لم يكن فى واقع الأمر قائمًا البتة. وألف الروائيون أيضًا عن عالم مريح، وإن كان إلى حد كبير، عالمًا من الخيال القصصى المفقود. لم يذكر ديكنز، أشهر روائى فى عصره، المولود فى عام ١٨١٢، على الإطلاق السكك الحديدية والتلغراف التى ميزت العالم الاقتصادى الذى عاش فيه.

الفصل التاسع

سلسلة برق السماء

لم تكن سرعة السفر هى الوحيدة التى تتسارع فى مطلع القرن التاسع عشر، فكذلك سرعة الاتصال.

من العسير اليوم تخيل بطء انتشار الأخبار فى القرن الثامن عشر، فى الوقت الذى توفر فيه الأقمار الصناعية وخطوط الاتصال الممدودة تحت البحر سبل الاتصال بين كل جزء من الكرة الأرضية فى التو واللحظة وكل جزء آخر. وقعت معركتا لكسنجتون وكونكورد، وهما الأحداث الافتتاحية للثورة الأمريكية، يوم الأربعاء ١٩ أبريل ١٧٧٥. لكن أخبار هذه الأحداث وصلت نيويورك فقط يوم الأحد ٢٣ أبريل وفيلادلفيا يوم ٢٤ أبريل. وكان الوقت متأخراً ليلة ٢٨ أبريل عندما جاء رسول خاص بالأنباء إلى ويليامزبورج، فى ولاية ڤيرجينيا. وفى يوم ٢٨ مايو، بعد انقضاء خمسة أسابيع ونصف كاملة، علمت الحكومة البريطانية، ويالفزعها، أن الأزمة المحتقنة منذ وقت طويل فى أمريكا تفجرت فى شكل حرب مفتوحة.

لتكن متأكداً من أنه كانت توجد وسائل لنشر الأنباء أسرع من الجياد. لكنها لم تكن عملية للاستخدام العام. أمرت الملكة إليزابيث الأولى بوضع نيران فى الهواء الطلق جاهزة لإشعالها بطول الساحل الإنجليزى لاستخدامها كإشارة إذا ما شوهد الأسطول الإسپانى. وفى نهاية القرن الثامن عشر، نصب الفرنسى كلود شاپ سلسلة من

محطات الإشارات (السيمافورات) عبر الأراضى الفرنسية، وهى مزودة بأذرع ترفع وتخفض ببكرات. وكانت تصدر إشارات لبعضها البعض باستخدام الأعلام ـ شيئًا شبيهًا جدًا بالتلويح بالأعلام لدى أشبال الكشافة ـ ويمكن أن تبعث رسائل خلال ساعات تستغرق أيامًا باستخدام الجياد.

استخدم الفرنسيون هذا النظام (الذى سك له كلود شاپ كلمة تلغراف tele-graph ـ وتعنى الكتابة عن بعد) بكثافة، لكنه نادرًا ما استخدم فى الولايات المتحدة الجديدة. وجرى تركيب خط تلغراف بين مارثا ڤاينيارد وبوسطن فى عام ١٨٠٠ . لكن فى أغلب الأحوال، كانت المسافات عظيمة للغاية، ورأس المال ضئيلاً للغاية.

تعاظمت الحاجة إلى وسائل اتصالات مثل تلك الموجودة فى أوروپا، إلا أنه استخدمت تنويعات أرخص. فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كان يعتلى رجل كل يوم عمل قمة قبة مبنى بورصة التجار فى وول ستريت، حيث يقيم مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة مزاداته. وكان يرسل من هناك أسعار الافتتاح لرجل آخر فى مدينة جيرزى عبر نهر هدسون. ويرسل هذا الرجل بدوره الإشارة إلى رجل آخر يعتلى برج الكنيسة أو التل التالى وتصل الأسعار إلى فيلادلفيا فى حوالى ثلاثين دقيقة. واتسمت هذه العملية بأنها خرقاء فى أفضل أحوالها (كما أنها بالطبع لم تكن لتؤدى عملها على الإطلاق خلال سوء الأحوال الجوية).

ومع تنامى أهمية سوق المال فى وول ستريت وزيادة حدة التعطش لمعرفة أخبار أسعار المعاملات، جربت كل طريقة ناجزة فى هذا الصدد. حتى فى داخل وول ستريت نفسه صار الضغط مطردًا للحصول على الأخبار فى التو. ولهذا يعزى السبب فى تسمية حاملى الرسائل فى وول ستريت بالعدائين. فى الأيام الأولى كان يكلف الصبية الصغار للغدو والرواح بشكل مستمر بين مكاتب السماسرة والزبائن والبورصة، ومعهم التعليمات وأحدث الأسعار. (من تبقى اليوم من حاملى الرسائل ما يزال يطلق عليهم عدائين، مع أن أغلبهم ينتمى إلى فئة كبار السن، شبه المتقاعدين الذين لا يستطيعون إلا أن يمشوا بتمهل).

كان حل مشكلة الاتصالات يتردد صداه بالفعل. كان معروفا منذ مطلع القرن

الثامن عشر أنه إذا أمكن نقل تيار كهربائى لمسافات طويلة عبر سلك، وإذا أمكن تدبير وسيلة لتنويع التيار بشكل منتظم، يمكن للمعلومات أن تنقل عبره.

بذلت محاولات عديدة للانتفاع من هذه الحقيقة. فى عام ١٧٧٤، ابتكر نظام فى چينيڤ بسويسرا، استخدم فيه سلك واحد لكل حرف من حروف الأبجدية. كانت الكهرباء المتدفقة عبر السلك تدفع شحنة كهربائية نحو كرة معدنية خفيفة الوزن لتجذب جرسًا وتجعله يدق. كانت مصلصلة الأبجدية هذه تصلح للاستعراض فى صالة، لكن يتعذر أن تكون نظامًا عمليًا.

لم يبدأ البحث بجدية عن سبل تنفيذ التلغراف الكهربائى إلا عندما ابتكرت بطاريات ومغناطيسات كهربائى أكثر كفاءة فى بواكير القرن التاسع عشر، وأصبحت الأسلاك أرخص، بفضل آلية جديدة لتصنيع الأسلاك. وفى الوقت الذى ابتكر فيه ويليام فوذرجيل وتشارلز ويتستون فى إنجلترا نظامًا ناجحًا وضع للاستخدام التجارى، كان الأمريكى صموئيل ف. ب. مورس هو الذى جاء بالنظام الذى تبناه أخيرًا العالم أجمع.

كان مورس، وهو ابن جدايدياه مورس، وهو قس ومؤلف متميز فى نيو إنجلند، قد تدرب على أن يكون فنانًا. كان ذا عبقرية صغرى فى رسم البورتريهات، إلا أن اهتمامه انصب على رسم لوحات ضخمة «مهمة» لا تتجاوز موهبته فى رسمها موهبة مبتذلة فى أحسن الأحوال.

ولتوفر الوقت بين يديه بفضل إنعدام التكليفات له برسم لوحات، أخذ يفكر فى الكهرباء بعد لقاء على متن سفينة مع تشارلز توماس جاكسون، الذى كان يجرى أبحاثًا على هذا الموضوع فى أوروپا. واتت على الفور مورس فكرة التلغراف. قال: «إذا أمكن جعل وجود الكهرباء مرئيًا فى أى جزء من الدائرة، لا أرى سببًا فى عدم انتقال المعلومات فى نفس اللحظة عن طريق الكهرباء».

بدا لمورس، الذى كان يجهل التكنولوچيا التى يتطلبها الأمر وكذلك يجهل الأدبيات الخاصة بها، أن الفكرة أصيلة ولدت من ذهنه، وليست موجودة منذ أكثر من ثمانين عامًا بالفعل. وفى واقع الأمر، يعد الجزء الوحيد فى نظام تلغراف مورس

الأصيل تمامًا هو شفرته المدهشة فى كفائتها، والتى تعين النقاط والشرط وفقا لذبذبة كل حرف فى اللغة الإنجليزية (حرف E ببساطة تمثله . بينما تمثل حرف X ـ.. .ـ).

بنى مورس بمساعدة واحد من أكثر علماء أمريكا المتميزين، وهو جوزيف هنرى، الذى كان يعمل أستاذًا فى پرينستون (وفى وقت لاحق صار أول مدير لمعهد سميثسونيان)، نموذجًا ناجحًا فى أحد حجرات جامعة نيويورك، يتكون من بطاريات وألف وسبعمائة قدم من السلك الملفوف حول حجرة، متصل بمغناطيس كهربائى ومفاتيح تلغراف عند نهاية كل طرف. وعندما يضغط على مفتاح فى نهاية أحد الطرفين، تغلق الدائرة الكهربائية، مما يسمح للكهرباء بالتدفق عبر السلك، فتشغل المغناطيس فى الطرف الثانى مما يؤدى إلى أن يهبط هذا المفتاح بدوره إلى أسفل.

بذل مورس طاقة لا نهاية لها محاولاً ابتكار جهاز تسجيل لجعل الكهرباء « مرئية »، ليكتشف فى نهاية المطاف أن شفرته يمكن تفسيرها فى يسر عن طريق الأذن، والأحرف يمكن تدوينها باليد من قبل عامل تلغراف متمرن.

اتخذ مورس شريكين معه – لينارد جيل، وهو أستاذ فى جامعة نيويورك وألفرد ڤيل، وهو ميكانيكى موهوب يمتلك أبوه مصنعًا مزدهرًا للصناعات الحديدية فى نيوجيرزى ـ لمعاونته فى صقل نظامه. وتقدموا بطلب للحكومة بالتمويل لبناء نظام ضخم للبرهنة على قدرات هذه التكنولوچيا. لكن الحكومة كعادتها عجزت عن إدراك الإمكانات المرتقبة من هذا المشروع، ولم يصلوا إلى شىء طيلة ست سنوات. ولم يحرزوا أى تقدم إلا عندما انضم إليهم شريك آخر، ف. و. ج. سميث (المعروف لأصدقائه باسم فوج). ولأن سميث لم يكن مجرد عضو فى الكونجرس إنما رئيس لجنة التجارة فى مجلس النواب.

وفى عام ١٨٤٣، انتزع سميث فى النهاية تخصيص اعتماد بـ ٣٠ ألف دولار من الكونجرس عن طريق دسها ضمن مشروع قرار فى اللحظات الأخيرة العصيبة فى نهاية جلسة، ثم منح نفسه عقد بناء خط تلغراف من واشنطن إلى بالتيمور، وأهدر معظم المال فى شراء أسلاك رديئة ومحاولة دفن الخط. بدأ المشروع من جديد، بالسلك

المشدود بين أعمدة، وفى ٢٤ مايو عام ١٨٤٤، نقر مورس وهو فى مبنى الكابيتول، عبارة بالشفرة وهى « هذا من عمل الرب ! » وكرر ألفرد ڤيل الرد بنفس الإشارة بدقة.

وبمجرد اتضاح الناحية العملية للتلغراف، انتشر بسرعة مذهلة. فبنهاية أربعينيات القرن التاسع عشر، أضحت كل المدن الأمريكية الكبرى متصلة بالتلغراف، ووصل خط إلى سان فرانسيسكو فى عام ١٨٦١. وامتد التلغراف ليغطى القارة فى أقل من عقدين منذ بعث مورس رسالته الشهيرة. وفى عام ١٨٦٦، نجح أخيراً سايروس فيلد فى مد خط عبر المحيط الأطلنطى ليربط بين أمريكا وأوروبا بالاتصال المباشر. انتهت عزلة أمريكا الطويلة عن مركز العالم الغربى بعد أن استمرت لمدة تزيد على ٢٥٠ عامًا.

ومع وفاة مورس فى عام ١٨٧٢ مغموراً بالإشارة إلى جانب الأموال، صار ممكنًا بعث رسالة من سان فرانسيسكو إلى الهند خلال ساعات قليلة. كان من المحتمل أن تستغرق هذه الرسالة نصف عام كامل فى عام ١٨٤٤ م.

ويعد واحدا من أهم أسباب قدرة التلغراف على الانتشار بهذه السرعة هو إمكانية استخدامه لنفس الطرق التى تستخدمها السكك الحديدية القريبة منه فى سرعة الانتشار. وأسهم التلغراف بدوره على نحو عظيم فى كفاءة السكك الحديدية. كانت غالبية خطوط السكك الحديدية فى بداياتها خطًا واحداً. وهذا يعنى إنه إذا كان هناك قطار متوقع وصوله، يتعين على القطار الذى ليس له حق المرور أن ينتظر على خط متصل بتحويلة حتى يمر القطار صاحب الحق. إذا ما مر وقت كاف بدون ظهور القطار الآخر (كانت الأعطال شائعة فى بدايات عمل السكك الحديدية وكذلك الحوادث)، كان المحصل يسير بجانب القطار لمسافة عدة مئات من الياردات أمام القطار وفى يده مصباح للتأكد من عدم حدوث تصادم.

فى عام ١٨٥١، أصاب الإحباط مهندسًا يعمل فى سكة حديد إيرى من انتظار القطار المرتقب وصوله، وفجأة لاحظ خط التلغراف الموجود بمحاذاة خط السكة الحديدية وربط بين الشيئين. وصار من الممكن إرسال رسائل تلغراف عن تأخر القطار والحوادث بوقت كاف للإقلال من التأخيرات بالنسبة للقطارات الأخرى العاملة على نفس الخط. وخلال سنوات قليلة ابتكر نظام واف لإرسال الإشارات، مما

سمح للسكك الحديدية أن تزيد من سرعة جداول حركة القطارات وتحسين مستوى السلامة.

لكن لم يستفد قطاع فى الاقتصاد الأمريكى من التلغراف بقدر استفادة وول ستريت. لأن السوق لا يمكن أبدًا أن يكون أكبر من المساحة التى تكون عملية الاتصال داخلها فورية، استمرت أهمية عمليات التبادل فى فيلادلفيا وفى أماكن أخرى كأسواق للأوراق المالية فحسب. فسرعان ما تسبب التلغراف فى التقليل من أهميتها.

وبمجرد تيسير التلغراف للاتصالات الفورية، استطاع المتعاملون فى فيلادلفيا وفى غيرها أن يعملوا فى سوق نيويورك بنفس اليسر الذى يعملون به فى سوقهم المحلية، وشرعوا على الفور فى عمل ذلك لسبب بسيط وهو أن أفضل الأسعار بالنسبة لكل من المشترين والبائعين يمكن دائمًا الحصول عليها فى السوق الأكبر.

وكان السبب مفهومًا تمامًا فى ذلك الوقت. كتب جيمس ك. مدبرى فى عام ١٨٧٠ « إن المال يميل دائمًا إلى أن يركز نفسه، وتتراكم الأسهم والسندات والذهب حول هذه النقاط التى تسود فيها أكثر الأنشطة المالية ضخامة. وبقدر عظم حجم الثروة العائمة، بقدر وضوح هذه الخاصية الفريدة. ونتج عن هذا القانون أن أصبحت نيويورك بالنسبة للولايات المتحدة تمثل ما تمثله لندن بالنسبة للعالم. كانت هذه العاصمة المطلة على الساحل بارزة من قبل، وتربعت الآن على عرش السيادة المالية المطلقة. وينجم عن التعاقب بين النشاط والكساد اهتزازات متجاوبة معها فى كل ولاية ومدينة وقرية على هذه الأرض ».

كما أثر التلغراف فى وسائل اتصال أخرى كانت فى مهدها فى الثلث الوسيط من القرن التاسع عشر: الصحيفة الحديثة.

ظهرت الصحف فى وقت مبكر فى المستعمرات الأمريكية عام ١٦٩٠، عندما نشر شخص من سكان لندن يدعى بنجامين هاريس، فر من إنجلترا بعد حبسه لنشره مقالات تحض على التمرد وقلب نظام الحكم، نشر الطبعة الأولى من صحيفة ذات اسم غير جذاب بالمرة «حوادث عامة خارجية ومحلية» فى ٢٥ سبتمبر ١٦٩٠. ووعد هاريس

بأن صحيفته « ستزود قراءها مرة واحدة فى الشهر [أو حينما تحدث أية تخمة فى الحوادث على نحو أكثر وقوعًا] » . ومع هذا كانت أول طبعة هى آخر طبعة ؛ لأن الحاكم ومجلس ماساتشوستس أوقفوها . لكن سرعان ما ظهرت الصحف مرة أخرى فى بوسطن وفى غيرها ، ومع اندلاع الثورة كانت تطبع فى كل المدن الرئيسية الاستعمارية الكبرى .

فى ذلك الوقت لم تشبه تلك الصحف المبكرة الصحف اللاحقة . فالسبب الأول ، كان جمع الأخبار يجرى بنفس الإيقاع البطىء الذى كانت تنتقل به فى القرن الثامن عشر ، مع ضآلة الاحساس بالعجلة بشأن إيراد أى قصة خبرية اللهم إذا كانت القصص الأكثر أهمية . ولسبب آخر ، كانت مكلفة جدًا . كانت المطبعة ذات الفَرشة المسطحة المألوفة لبنيامين فرانكلين (أو لجوتنبرج إن شئت أن تراها من هذه الناحية) لا يمكن أن تطبع إلا نسخًا جد محدودة وخلال وقت طويل ، وتخصص غالبيتها لاشتراكات المقاهى والمكتبات .

يعد الفارق الأكبر بين صحف عالم ما قبل الثورة الصناعية وتلك الموجودة اليوم هو السياسة . كانت غالبية الصحف ذات الاهتمامات العامة أبواقًا للفصائل السياسية ، تمتدح حزبًا واحدًا ، وتندد بكافة الأحزاب الأخرى . فى واقع الأمر ، كانت لا تتعدى صفحة افتتاحية مغلفة بأخبار مغرضة بشدة .

غير من كل هذا مهاجر إسكتلندى إلى نيويورك ، يدعى جيمس جوردون بنيت . ولد بنيت فى عام ١٧٩٥ ، فى أسرة من الأسر الكاثوليكية القليلة فى إسكتلندا ، وكان دائمًا رجلاً مختلفًا تمام الاختلاف ، وهو ما قد يعتبر مزية بالنسبة لصحفى . كما كان دميمًا بشكل لافت ، يعانى من حول حاد . عندما أجرى معه صحفى شاب حديثًا فى خمسينيات القرن التاسع عشر فى مكتبه المطل على مبنى مجلس بلدية نيويورك ، قال إن بنيت « نظر إلى بعين واحدة ، بينما نظر بالأخرى على مبنى مجلس البلدية » .

تلقى بنيت تعليمًا متينًا فى أبردين ، وكتب أول قصة خبرية عن معركة ووترلو وهو فى العشرين من عمره ، وبعد أربعة أعوام أخرى استشعر فرصة أكبر فهاجر إلى

الولايات المتحدة. عمل فى سلسلة من الصحف من بوسطن حتى تشارلستون إلى أن استقر فى نيويورك حيث حاول ثلاث مرات أن يؤسس صحيفة تبسط مبادىء جاكسون. باءت كل محاولة بالفشل.

غيرت الطاقة البخارية من عملية إصدار الصحف مثلما غيرت كل شىء آخر بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر. أمكن للمطابع الدوارة التى تعمل بالطاقة البخارية أن تطبع آلاف النسخ من صحيفة ما فى الليلة وبسعر أقل بكثير مما كان ممكنًا فيما قبل. قرر بنيت أن يجرب شيئًا جديدًا. فى ٦ مايو ١٨٣٥، شرع بنيت، برأسمال بلغ ٥٠٠ دولار ومكتب فى قبو رطب فاسد الهواء فى طبع صحيفة «ذا نيويورك هيرالد» هو موظفها الوحيد.

سعى بنيت، الذى جعل الهيرالد صحيفة غير متحيزة فى موادها الخبرية، إلى أن يكون دائمًا الأول من ناحية الأخبار، وباعها لجمهور موسع ببنس للنسخة فى الشارع عن طريق تكليف جيوش من الصبية الجائلين، والذى سرعان ما تحول إلى علامة مميزة للمشهد الحضرى الأمريكى لأكثر من مائة عام. لم تكن أى من تلك الأفكار أفكارًا أصيلة لبنيت لكنه هو الذى ضمها جميعًا للمرة الأولى. كما أدخل مجموعة من الابتكارات الصحفية المبهرة. كان أول من نشر تقرير عن حالة الطقس وغطى الأنشطة الرياضية بانتظام، وكان أول من غطى أخبار المال وأسعار الأسهم فى صحيفة ذات اهتمامات عامة. وفى الوقت الذى افترض فيه ألا يجب أن تلاحظ الصحف «المحترمة» مقتل عاهرة حسناء فى أحد مواخير نيويورك الرائجة، استغل بنيت هذه القصة من كل الزوايا الصحفية.

ارتفع توزيع الهيرالد ارتفاعا هائلا، وأجبرت الصحف الأخرى على أن تحذو حذوها، بعد أن أصبحت المدينة ثم البلد مأخوذة بالقصة. وفى خلال أعوام قليلة، صارت الهيرالد من بين أكثر الصحف نجاحًا فى المدينة. سافر بنيت إلى أوروبا حيث وقع عقودا مع مراسلين فى لندن وروما وباريس، لتزويد الهيرالد بنسخ خاصة من عملهم له وحده، ليكونوا أول مراسلين أجانب. وحارب فى الكونجرس لإقرار مبدأ أن لمندوبى الصحف الواقعة خارج المدينة نفس الحق فى حضور جلسات الكونجرس فى

المقاعد المخصصة للصحافة مثل مندوبى الصحف المحلية، وهى بدايات مجموعة المندوبين الصحفيين فى البيت الأبيض فى واشنطن. بل إنه سك استخدام كلمة «تسريب»، للإشارة إلى القصص التى دسها الساسة للمخبرين الصحفيين لخدمة أغراضهم الشخصية.

ومع انتشار التلغراف فى طول البلد وعرضها، استغل بنيت هذه الإمكانية إلى أقصى درجة ممكنة. عندما اندلعت الحرب المكسيكية، بعد عامين فقط من استعراض مورس الناجح، نظم بنيت تكتلاً من الصحف لتمويل خدمة بريد سريع بالخيول من نيو أورليانز إلى تشارلستون، التى كانت متصلة مع نيويورك بالتلغراف. كانت الأنباء التى تنشرها الصحف تسبق عادة التقارير الرسمية التى تصل إلى واشنطن بأيام.

ومع اندلاع الحرب الأهلية، كانت الهيرالد أكبر وأكثر الصحف تأثيراً فى البلد بفارق كبير عن غيرها، واتبعت كل الصحف الكبرى الأخرى نموذجها، فغيرت الجانب التجارى للصحافة على نحو عميق. بلغ توزيع الهيرالد اليومى أثناء الحرب معدلاً مرتفعًا هو أربعمائة ألف نسخة، أكثر عدة مرات من إجمالى توزيع كل الصحف الأمريكية مجتمعة قبل خمسين سنة ماضية.

اعتمد الملايين الآن على الصحف لتجعلهم على علم بعالمهم الآخذ فى الاتساع. كتبت مجلة « نورث أمريكان ريڤيو» الأدبية فى عام ١٨٦٦، بعد ثلاثة عقود فقط من تأسيس بنيت للهيرالد « إن الصحيفة اليومية واحدة من الأشياء الراسخة ضمن ضرورات الحضارة الحديثة. إن المحرك البخارى لم يعد جوهريًا بالنسبة لنا. إن الصحيفة هى التى تربط كل فرد بالحياة العامة للجنس البشرى».

ولا يقل بأى حال من الأحوال تأثير الصحف فى مجال الإعلان. كانت عمليات البيع بالتجزئة، فى عصر ما قبل الثورة الصناعية، بحكم الاضطرار، ضئيلة جدًا، وعادة تباع خلالها بضاعة مصنعة محليًا. وجعلت السكك الحديدية والتلغراف والصحف إجراء عمليات تجارية أكبر أمرًا ممكنًا، وسرعان ما شرع تجار المناطق الحضرية فى استغلال الفرص الجديدة. فى عام ١٨٤٦ افتتح مهاجر إسكتلندى ـ أيرلندى يدعى أ. ت. ستيوارت « قصر الرخام» فى ٢٨٠ طريق برودواى فى مدينة نيويورك. كان

يقع شمال مجلس البلدية مباشرة، وهو أول مبنى تجارى له واجهة رخامية وردهته ذات قبة وأثاث ومفروشات باذخة.

كان متجر أ. ت. ستيوارت يقدم سلعًا بنسبة منخفضة من الربح المضافة للتكلفة وأسعارًا محددة و«مبيعات» يعلن عنها فى الصحف. كما أنه يعرض ما سمى بـ «الدخول المجانى»، حيث يتاح للزبائن أن يتجولوا ويفحصوا السلع بدون وجود مستخدم معهم طوال الوقت. وجعل متجر ستيوارت بجوه الفخيم وحرية التحرك داخله من الشراء شكلاً مبهجًا من أشكال تمضية الوقت بالنسبة لأولئك الذين يملكون المال والسعة للانخراط فى مثل النشاط بدلاً من التعامل معها على أنها ضرورة. كانت السمات المميزة لأسلوب حياة الطبقة المتوسطة من منتجات جاهزة ـ الأثاث والأقمشة والسجاجيد والصينى والرسومات ـ تقدم فى هذه المتاجر الجديدة متنوعة الأقسام، وكانت الطبقة المتوسطة الجديدة تشترى منها بكميات هائلة لتزيين منازلها على الطراز الفيكتورى الكثيف المتراكم، الذى وصل إلى ذروة شعبيته فى منتصف القرن.

وبحلول ستينيات القرن التاسع عشر، عندما افتتح ستيوارت « قصره الحديدى» ـ الذى يعد واحدًا من أضخم الهياكل ذات الحديد المصبوب فى العالم ـ على بعد ميل من منطقة علية القوم عند تقاطع طريق برودواى وشارع تسعة، كان قد صار أكبر دافع للجمارك فى البلد، وذلك بفضل تجارة جملة ضخمة جدًا لتجار آخرين فى أنحاء البلد.

حتى فى المناطق الريفية التى كانت بعيدة عن خطوط السكك الحديدية، فتحت وسائل جديدة لترويج السلع أسواقًا جديدة. انتهز الباعة الجائلون بصورة متنامية الطرق المحسنة لبيع السلع المصنعة التى توفرت حديثًا مثل الدلاء والأحواض والأقمشة والأدوات و«خردوات اليانكى» لربات المنزل بطول الطريق، فقللوا من الوحدة التى عمت المناطق الريف الأمريكى فى القرن التاسع عشر.

كما ساعد التجار الجدد على جعل عيد الميلاد المجيد (الكريسماس) مناسبة شعبية للاحتفال به كعيد علمانى، فغالبية الأمريكيين البروتستانت (باستثناء الطائفة

الأنجليكانية) لم تحتفل فى زمن المستعمرات. لكن القدرة على الانتقال التى تمتعت بها العائلات البروتستانتية حديثًا جعلتها تلتقى بأولئك الذين يحتفلون بالكريسماس، فبدأ الكثيرون يفعلون مثلهم، مدفوعين فى العادة بأطفالهم. وأخذ الكتاب أمثال كليمنت كلارك مور، وهو من أبناء نيويورك (مؤلف « زيارة من القديس نيكولاس » ـ وهى ليست مصادفة أن يكون هذا القديس هو القديس الراعى لنيويورك ـ التى طبعت عام ١٨٢٣) وتشارلز ديكنز فى الاحتفال بالمظاهر غير الدينية لعيد الميلاد المجيد. وطفق التجار الجدد فى تزيين متاجرهم بمناسبة الكريسماس (أصبحت تحظى شجرة عيد الميلاد، التى جلبها إلى عالم المتحدثين بالإنجليزية الأمير ألبرت بشعبية فى ذلك الوقت)، ومن الطبيعى أن يؤكد التجار على التقليد القديم لتبادل الهدايا فى ذلك الوقت من السنة.

مع منتصف القرن صار عيد الميلاد المجيد العيد العلمانى الرئيسى مثلما هو عليه اليوم، وسينمو ليصبح المحرك الأكثر أهمية لتجارة التجزئة.

أخذت الثورة الصناعية تمنح الحياة اليومية فى السنوات السابقة على الحرب الأهلية شكلاً متعارفًا عليه أنه حديث. فإلى جانب السرعة الكبيرة التى طرأت على سبل الانتقال، بفضل السكك الحديدية والمراكب البخارية، وعلى الاتصال بفضل التلغراف والصحف، ازدادت أسباب الدعة المنزلية بشكل ملحوظ.

قبل الثورة الصناعية، كان آخر تحسين فى التكنولوچيا المنزلية هو المدخنة، التى استخدمت فى المنازل فى ذروة العصور الوسطى. وحتى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر، كانت المنازل تدفأ بالمدفأة وتضاء بالشموع ليلاً. ويرفع الماء بالدلاء من بئر أو نبع أو صهريج. ويطهى الطعام على موقد فى الهواء الطلق.

وفى تسعينيات القرن الثامن عشر، اكتشف بريطانى يدعى ويليام مردوك أنه عند تسخين الفحم ينبعث منه غاز يشتعل معطيًا شعلة صفراء زاهية. وعرض مصباح الغاز فى فيلادلفيا فى وقت مبكر عام ١٧٩٦ . وأقرت بالتيمور مرسومًا فى عام ١٨١٦ يشجع على استخدام مصابيح الغاز فى إنارة الشوارع، وانتشرت الفكرة على عجل فى المدن الأمريكية. وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أضيئت الطرق والشوارع

الرئيسية فى المدن الأمريكية، بفضل تغذيتها بالغاز عن طريق شبكة من المواسير المدفونة تحت الأرض متصلة بمحطة الغاز. ومع تراجع الكآبة الخطرة التى كانت تلف المشهد الحضرى، ازداد نشاط ما بعد هبوط الظلام على نحو ملحوظ فى المدن.

لكن فى الوقت الذى رحب فيه الناس بمصدر الضوء الجديد لإنارة الشوارع، إلا أنهم تعاملوا بحذر شديد بشأن السماح باستخدامه فى منازلهم خشية الاختناق ووقوع انفجار. لم تكن مخاوفهم بلا أساس، لكن مزايا مصابيح الغاز على الشموع تغلبت على المخاوف، وبحلول خمسينيات القرن التاسع عشر ملأ الهسيس الخافت ورائحته الغريبة الرطبة منازل الطبقات العليا والمتوسطة. وذكر أحد سكان نيويورك فى عام ١٨٥١ أنه «يعتبر الغاز الآن شيئًا لا يستغنى عنه تقريبًا فى المدينة. ويصح هذا الأمر إلى الدرجة التى يندر فيها العثور على منزل محترم الآن بنى بدون تجهيزات الغاز».

للمرة الأولى فى التاريخ، تصبح الإنارة الداخلية رخيصة بحيث يمكن استخدامها بوفرة، وأخذ الناس يسهرون لأوقات متأخرة ويقرأون أكثر بكثير عن ذى قبل. وارتفع توزيع الكتب والمجلات والصحف بشكل ملحوظ فى ذلك الوقت، وكذلك النوتات الموسيقية غير المجلدة.

وتلقى النشاط الليلى دفعة تشجيع أخرى عن طريق انتشار التدفئة المركزية. وهيأ هبوط أسعار تركيب المواسير والأنابيب الأمر ليصبح فى متناول اليد، وبدأت أنظمة الهواء الساخن فى الظهور فى المنازل فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وبحلول ستينيات القرن ذاته، أخذت أجهزة التدفئة التى تعمل بالبخار فى الحلول محل أفران الهواء الساخن البدائية، وتفجرت حالة الغرام الأمريكى بالتدفئة المركزية. كان الزوار الأجانب عادة ما يفزعون. كتب توماس جولى جراتان، الذى كان يشغل منصب القنصل العام البريطانى فى بوسطن « إن أسلوب التدفئة فى الكثير من أفضل البيوتات لهو مشكلة بشعة بالنسبة لأولئك الذين لم يعتادوه، وسوء حظ قاتل لمن اعتادوه. . . يبعث فرن هائل تيارات من الهواء الساخن ليلاً ونهارًا عبر فتحات ومواسير. . . . تستقبلك فى اللحظة التى ينفتح باب المنزل لإدخالك وتندفع وراءك عندما تهم بالخروج، وأنت نصف مغلى ومسلوق، ليرحب بك الهواء».

كما أثبت موقد الطهى من الحديد المصبوب أنه أفضل بكثير من موقد الهواء الطلق، مما جعل حياة النساء أيسر بكثير وصارت أكثر انتشارا.

بالرغم من كل تلك التحسينات، كانت إدارة منزل ماتزال تحتاج إلى جهد عظيم، وتطلب الكبير منها أعدادًا أكبر من الخدم كى تدار بكفاءة. كانت هناك «مشكلة خدم» فى وقت مبكر من القرن مع تزايد المنازل التى تسعى لتشغيلهن أسرع كثيراً من المعروض منهن. لكن مع ترك الشابات لمزارعهن وانتقالهن إلى المدن، وازدياد الهجرة الأجنبية، بخاصة فى أربعينيات القرن التاسع عشر، بدأت أجور الخدم فى الهبوط بشكل حاد. وصار حتى بمقدور منازل متواضعة جلب شخص لمساعدة الزوجة.

وبحلول منتصف القرن كان يعمل فى منزل الطبقة المتوسطة طاه وسفرجى (الذى يؤدى معظم العمل الشاق، مثل جرف الفحم إلى جانب الوقوف على المائدة طوال الوجبات)، وخادمة لتنظيف المنزل. كان من هم أكثر ثراء لديهم خادمة للدور العلوى وغسالة وخادم (الذى يتولى العمل الشاق) وحوذى ومربية للأطفال. كان الخادم الماهر، مثل الطاهى الجيد، يحصل على أجر يتراوح بين ٦ و٧ دولارات فى الأسبوع إلى جانب المبيت والأكل، وهو أجر جيد جدًا بالنسبة لامرأة حينئذ.

وفى الكثير من المنازل شكل الخدم جزءًا مكملاً للأسرة، يحظون بالحب والتقدير الشديدين. وفى ظل هذه الظروف، يمكن للخدمة المنزلية، بالذات لامرأة غير متزوجة، يمكن أن تعد حياة سعيدة، خاصة إذا ما قورنت بالبديل: عمل فى المصانع الجديدة وجزء من حجرة فى الأحياء الفقيرة المكتظة والمزعجة التى أخذت فى الانتشار فى كافة المدن الشمالية حينئذ. وبالرغم من النمو الهائل للصناعة فى أواخر القرن التاسع عشر، رصد تعداد الولايات المتحدة فى عام ١٩٠٠ أكبر فئة عمل، واتضح أنها ماتزال الخدمة المنزلية.

ومع نمو المدن بسرعة فائقة فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، كانت مشكلة إمداد السكان بالمياه وصرف مياه المجارى ازدادت بخطى سريعة. فى الأعوام الأولى من القرن، كان لدى الموسرين براميل أو صهاريج مملوءة بمياه الأمطار تغذى من أسقف المنازل، لكن يضطر الباقون إلى رفع المياه من أقرب بئر. كانت هذه المياه ملوثة بشدة من

مياه المجارى من المراحيض ومباول حجرات النوم التى كانت تفرغ فى الشوارع. وبالرغم من أنه لم يكن الأمر مفهومًا فى حينه، كان هذا مصدرًا للأمراض مثل الحمى الصفراء والكوليرا التى اجتاحت المدن فى ذلك الوقت.

كانت فيلادلفيا أول مدينة تبنى نظامًا حديثًا للإمداد بالمياه يمكن توصيله للمنازل والسماح بالتخلص من النفايات عبر أنابيب المجارى. فى عام ١٨٣٢م بنيت أول منازل فى أمريكا، وبها حمامات مزودة بهذا النظام. وواجهت نيويورك، المحاطة بالمياه المالحة، مشكلة فنية بالغة التعقيد فى هذا الصدد. ومع هذا، فبعد بناء قنطرة بلغ طولها خمسة وأربعين ميلاً لجلب المياه من نهر كروتون فى مقاطعة وستشستر، افتتحت نيويورك «نظام كروتون» فى ٤ يوليو عام ١٨٤٢م.

كان فيليب هون متلهفًا. وكتب فى يومياته فى شهور لاحقة «أنه لا يوجد شىء يتم التحدث عنه أو التفكير فيه فى نيويورك إلا مياه كروتون. . . . النوافير والقناطر ومحابس مياه لإطفاء الحرائق والخراطيم تجذب انتباهنا وتعوق تقدمنا عبر الشوارع. . الماء ! الماء ! هو النداء العام الذى يتردد صداه فى كل جزء من المدينة، ويثير البهجة والتهلل فى نفوس جماهير العامة ».

وأحس جورج تمپلتون سترونج بالدوار عندما ركب والده نظام مياه كروتون فى منزله فى شارع جرينتش فى عام ١٨٤٣ م. لم يعد أخذ حمام ينطوى على تسخين مياه فى الموقد وسكبها فى حوض استحمام يجلس فيه بعد جره إلى المطبخ لهذا الغرض. وكتب سترونج سعيداً فى يومياته « عشت حياة برمائية طوال الأسبوع الماضى، محركًا يدىَّ وقدمى فى حوض الاستحمام كل ليلة، واكتشف اكتشافات جديدة فى فن وغموض الاغتسال. إن أخذ حمام فى وضع مقلوب هو أحدث العجائب».

وحظرت بوسطن الاستحمام أيام الأحد لحذرها الدائم من أن ينتهك سكانها قداسة يوم السبت.

قبل بدايات القرن التاسع عشر؛ حتى بين سكان الولايات المتحدة المشهورين بالتنقل من مكان إلى آخر ، نادرًا ما كان يغامر الناس لأبعد من خمسين ميلاً من مسقط

رأسهم، أو إذا فعلوا ذلك فإنهم لا يرون مسقط رأسهم أبدًا مرة أخرى. والآن خلال فترة من حياة فرد، أمكن السفر مائة ميل فى يوم، وتلقى كلمة فورية من شخص ما على بعد ألف ميل، والقراءة عن أحداث تجرى فى نفس الوقت فى النصف الآخر من الكرة الأرضية. أمكن الحصول على مياه ساخنة من صنبور، والحصول على الدفء فى أبرد الليالى وقراءة كتاب بلا إجهاد للعين.

تراكمت هذه المعجزات الواحدة تلو الأخرى فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ـ السكك الحديدية، التلغراف، الصحف، التدفئة المركزية، الإنارة، المياه الجارية ـ فخلقت جوًا من التفاؤل والاعتقاد فى التقدم لم يكن معروفًا من قبل. وتخلل الاحساس بأن كل شىء ممكن فى العصر الذى سيطلق عليه العصر الفيكتورى فى جميع أنحاء العالم الغربى. لكن فى الولايات المتحدة، التى اكتمل فقط نصف تشكلها وتنمو اقتصاديًا أسرع من أى بلد آخر كبير فى العالم، كانت هذه الحالة المزاجية ملموسة.

ولم نفقد هذه الحالة بالكلية قط حتى أثناء أسوأ الأوقات التى كانت ستأتى.

* * *

الفصل العاشر

الحيتان والخشب والثلج والذهب

بالرغم من أن مصباح الغاز أنار المدن بسرعة ابتداء من عشرينيات القرن التاسع عشر، إلا أنه لم يتوافر فى مناطق الريف حيث سكن غالبية الأمريكيين. ويتطلب استخراج غاز الفحم إجراء عملية صناعية معتبرة (بالإضافة إلى كونها قذرة وذات رائحة منفرة، وفى بعض الأحيان تتسم بالخطورة)، وينقل الغاز بعد ذلك عبر مواسير من محطة الغاز مباشرة إلى المستخدمين. وبسبب ارتفاع تكلفة البنية التحتية، أمكن للمناطق ذات الكثافة السكانية العالية أن تتكفل بمحطة غاز. لكن القراءة والأنشطة الليلية الأخرى تزايدت، وتزايد أيضًا الطلب على الضوء الاصطناعى فى المناطق الريفية. شيئًا فشيئًا، سد هذه الحاجة زيت الحوت.

اصطاد الرجال الحيتان منذ العصر الحجرى، وكان الباسك والنرويجيون والهولنديون والاسكتلنديون يذهبون لاصطياد الحيتان. وفى الأزمنة المبكرة، انحصر الصيد غالبًا فى المناطق الواقعة أمام السواحل، حيث كانت تسحب جثث الحيتان لمعالجتها عند العودة للأوطان. لكن تراجع المخزون الموجود بعيدًا عن الشواطىء جعل الأوروبيين يبحرون إلى مسافات أبعد فأبعد عن شواطئهم بحثًا عن الحيتان.

يستخرج من الحيتان وفرة من المنتجات. فإلى جانب لحومها، اتضح أن دهن الحوت يفرز زيتا يصلح كوقود ممتاز بالنسبة للمصابيح، بالإضافة إلى كونه مشحمًا للآلات.

ويمكن استخدام البلين، وهو الهياكل العظمية المرنة التى يصل طولها إلى اثنى عشر قدمًا الموجودة على حافة فكوك معظم الحيتان الضخمة والتى تقوم مقام الأسنان، فى استخراج كميات ضخمة من عظام الحوت، وهى مادة مرة لا غنى عنها بالنسبة لمشدات الخصر وسياط للعربات ذات المقعد الواحد ومئات الاستخدامات الأخرى.

بدأ اصطياد الحيتان فى نيو إنجلند فى وقت مبكر عام ١٦٤٥م. كان الهدف الرئيسى لسفن صيد الحيتان هو اصطياد الحوت الصحيح، الذى سمى بهذا الاسم لأنه متوفر ويسهل اصطياده نسبيا ويطفو على سطح الماء حين ينفق. لذا، فهو الحوت الذى يصح اصطياده. ثم حطمت عاصفة فى عام ١٧١٢م سفينة لصيد الحيتان بعيدة عن الشواطىء وتمكن طاقم البحارة من اصطياد حوت العنبر، وعادوا به سالما إلى موطنهم.

لا يعد حوت العنبر مثل أى حوت آخر من الحيتان الضخمة. لديه أسنان وليس بلين، وتعيش أساسًا على الحبار العملاق الذى يصطاده فى الأعماق الكبيرة. ويعد زيته أعلى جودة من زيوت الحيتان الأخرى ولديه فى رأسه الهائلة، كجزء من نظام التعرف على المكان بصدى الصوت، مخزون عظيم من العنبر، وهى مادة شمعية تصنع منها أفضل الشموع.

كانت حيتان العنبر مربحة بشكل مهول، وتخصص سكان نيو إنجلند فى صيدها، فبنوا سفن حيتان لتجوب المحيطات للحاق بها فى عرض المحيطات. وفى عام ١٧٦٥م وصلت سفن صيد الحيتان الآتية من نيو إنجلند إلى جزر الأزور ومارست الصيد بعد ذلك مباشرة بعيدًا عن سواحل البرازيل. وبحلول سبعينيات القرن الثامن عشر كانت نيو إنجلند تصدر أربعة آلاف رطل من شموع العنبر سنويًا.

شجعت الحكومة البريطانية صيد الحيتان، ودفعت مكافأة مالية لسفن الحيتان التى تزيد عن مائتى طن. لكن الصناعة ازدهرت بعد الاستقلال أيضًا. ومع القرن التاسع عشر، وصلت سفن صيد الحيتان الأمريكية إلى كل محيطات العالم، وعادة ما كانت الرحلات البحرية تستغرق عامين وفى بعض الأحيان أربعة. فى عام ١٨٠٠ م كانت هناك نحو ثلاثمائة سفينة صيد حيتان تنطلق من موانىء نيو إنجلند مثل بروفنستاون ونانتكيت ونيو بدفورد وماربلهيد. وبحلول أربعينيات القرن التاسع عشر، كانت هناك

أكثر من سبعمائة سفينة لصيد الحيتان، وحولت هذه الموانىء إلى بلدات منتعشة تجاريًا مع إفراغ السفن ألفى برميل من الزيت فى نهاية كل رحلة من رحلاتها. وشكل صيد الحيتان مصدراً لكثير من الثروات فى منطقة نيو إنجلند فى بدايات القرن التاسع عشر.

لسوء الحظ، كان سكان نيو إنجلند شديدى المهارة فى صيد الحيتان واصطادوا أكثر من قدرة الثدييات الهائلة على التكاثر. ومع تراجع مخزون العالم من الأنواع المختلفة من الحيتان صارت الرحلات أطول فأطول (كانت سفينة صيد حيتان أمريكية هى التى عثرت على طاقم سفينة باونتى المتمرد فى جزيرة بتكيرن عام ١٨٠٨م). ارتفع سعر زيت الحوت بانتظام مع استمرار تزايد الطلب على نحو أسرع من توافر المعروض.

لكن من الأوجه التى لا تلقى ما تستحق من التقدير فى نظام السوق الحر هو كيفية تعاملها بكفاءة مع أزمات النقص. فعندما يتجاوز الطلب العرض، ترتفع الأسعار. ويتسبب ارتفاع الأسعار بدوره فى الصون المتزايد للموارد النادرة والسعى بشكل مكثف لتوفير إمدادات إضافية أو إيجاد بدائل لتحويل الأسعار المرتفعة إلى أرباح. ولاحظ محرر مواكب لتلك المرحلة « الطاقة المحمومة التى يقبل بها العقل الأمريكى على أى فرع من فروع الصناعة تعد بالمردود الجزيل ».

ومع تزايد سعر زيت الحوت (وصل إلى ٢,٥٠ دولار للجالون فى خمسينيات القرن التاسع عشر، فى الوقت الذى يعتبر فيه ٥ دولارات كأجر أسبوعى للعامل الماهر أجراً جيداً) تواصل البحث عن مواد مضيئة وزيوت تشحيم أيضًا. يعتبر الكمفين، المشتق من التربنتين، مادة مضيئة ممتازة، لكنه اتصف بخاصية مزعجة وهى الانفجار. جرى تقطير قار الفحم ـ وهو ما يتبقى بعد استخراج غاز لمصابيح الغاز من الفحم – ليصبح كيروسين فى خمسينيات القرن التاسع عشر، لكن العملية اتسمت بالتعقيد والتكلفة العالية. ومع هذا افتتح معمل فى مدينة نيويورك فى أواخر خمسينيات القرن التاسع عشر لينتج خمسة آلاف جالون من الكيروسين يوميًا من قار الفحم، فقد كانت الحاجة شديدة وسعر زيت الحوت جد مرتفع.

(فى الوقت الذى استخدم فيه قار الفحم لفترة وجيزة كمصدر للكيروسين، إلا أنه سيثبت أنه مصدر خصب للكيماويات التى لها استخدامات اقتصادية أخرى، من بينها

المبيدات الحشرية والبلاستيك بأنواعه والطلاء والأدوية. وسيكون أساسًا لصناعة جديدة كاملة ـ الكيماويات ـ التى ازدهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. اكتشف الإنجليزى ويليام هنرى بركين أصباغ الأنيلين فى عام ١٨٥٦م، وهى أول منتجات كيماوية تجارية تستخرج من قار الفحم. وسرعان ما دمرت سوق الأصباغ النباتية المشتقة من نباتات مثل النيلة والفوة[١]).

جاء حل مشكلة العثور على مادة مضيئة رخيصة جيدة من مصدر غير متوقع على الإطلاق، زيت الصخر أو البترول. كان البترول (هى كلمة لاتينية تعنى زيت الصخر) معروفًا فى الأزمنة القديمة، لكنه كان أشبه بالأعجوبة إلى حد كبير. كان استخدامه الرئيسى هو كدواء لكل الأدواء. (يبدو أن كل شىء تقريبًا غير مستساغ الطعم ـ والنفط الخام بالقطع كذلك ـ وليس سامًا على نحو فتاك، استخدم لأثره الطبى فى وقت ما أو فى آخر). وكان النفط ينبثق من الأرض ويخرج فقاعات بدون جهد، ويمكن جمعه بنزعه من على سطح البرك أو امتصاصه بالخرق.

وفى عام ١٨٥٣م، كان أحد خريجى جامعة دارتماوث يدعى جورج بايسل يزور مدرسته القديمة عندما رأى فى مكتب أستاذ زجاجة من زيت الصخر التى جاءت من غرب پنسلڤانيا. كان يعلم أن هذه المادة قابلة الاشتعال، وفجأة واتته فكرة أنه يمكن تحويلها إلى مادة مضيئة. فكون مجموعة من المستثمرين وطلب من أحد علماء الكيمياء البارزين فى البلد، البروفيسور بنيامين سيليمان من جامعة ييل، أن يحاول استطلاع إمكاناته. أخبره سيليمان بأن زيت الصخر يسهل تقسيمه إلى مواد متنوعة، من بينها الكيروسين، عن طريق تسخينه. قال سيليمان: «أيها السادة يبدو لى أنه توجد أرضية كافية للتشجيع على الاعتقاد بأن شركتكم بحوزتها مادة خام يمكن بعمليات بسيطة ليست مكلفة، أن يصنعوا منها منتجات قيمة جدًا».

لكن فى الوقت الذى أصبح فيه بايسل ومستثمروه (الذين سرعان ما انضم لهم سيليمان نفسه، الذى اشترى مائتى سهم) يعرفون أنهم يستطيعون أن يصنعوا سلعة رائجة للغاية من زيت الصخر، كان المعروض من زيت الصخر لا يزال محدودًا جدًا.

---

(١) الفوة: نبات يستخرج منه صبغ أحمر

فلا يمكن لصناعة أن تقوم على ما يمكن نزعه من على سطح البرك. ثم واتت بايسل فكرة ألهام ربانية أخرى. جلس ليستريح تحت مظلة صيدلية فى نيويورك فى يوم صيفى حار فى عام ١٨٥٦م، فلاحظ إعلانًا عن دواء مسجل مصنوع من زيت الصخر، يُظهر عدة حفارات من النوع الذى يستخدم للتنقيب عن الملح. وتصادف أن زيت الصخر المستخدم فى الدواء يأتى من النفط المجلوب كمنتج ثانوى أثناء الحفر لاستخراج الملح. وتساءل بايسل ما إذا كان ممكنًا استخدام تكنولوچيا الحفر للعثور على النفط؟.

أرسلت الشركة رجلاً يدعى إدوين دريك إلى شمال غرب پنسلڤانيا، من حيث يأتى معظم زيت الصخر فى هذا البلد فى ذلك الوقت، وعثر دريك بقليل من المشقة على رجال يعرفون كيفية الحفر للحصول على الملح والذين كانوا مستعدين للحفر من أجل النفط، الذى اعتبر فكرة سخيفة على نطاق واسع. وفى ٢٧ أغسطس ١٨٥٩م، خارج بلدة تايتسفيل، على عمق تسعة وستين قدمًا، حفر من أول بئر للنفط فى العالم، وألحق دريك مضخة بالبئر وبدأ فى ضخ ما بدا أنه كميات لاتنتهى من زيت الصخر. وسرعان ما أصبحت المشكلة فى العثور على ما يكفى من البراميل لتخزين النفط، وليس فى العثور عليه.

كان الپروفيسور محقًا أكثر مما كان يدرى. خلال قرن، سيصير النفط محوريًا بالنسبة لتسيير الاقتصاد العالمى إلى الدرجة التى ستزحف الجيوش للحصول على مصادره أو الدفاع عنها.

كان يوجد مصدر آخر، يجرى استنفاده، مد الاقتصاد الأمريكى بالوقود خلال السنوات السابقة على الحرب الأهلية، وهو غابات البلد التى بدا وكأنها لا تنفد. تنبأ جيفرسون بأنه سيمر ألف عام قبل الوصول إلى الحدود المطلة على المحيط الهادى. لكن حتى فى ظل حياة جيفرسون، سمح لثلاث ولايات فقط شرق نهر الميسيسيپى بالانضمام إلى الاتحاد، وكانت الغابة الشرقية تقطع أشجارها بمعدل مذهل. ما كانت أراضى المزارع الغنية فى منطقة وسط الغرب لتصبح منتجة إلا بعد إزالة الأشجار، وارتفع الطلب على الخشب بشكل دائم فى ظل تزايد عدد سكان البلد بمعدل الثلث كل عقد، من ٣,٥ ملايين شخص فى عام ١٨٠٠ إلى ٣١,٤ ملايين شخص فى عام ١٨٦٠م.

إن الإحصاءات مرعبة. فى عام ١٨٢٠م كانت ولاية ميشيجان غير مأهولة من جانب الأوروبيين. وبحلول عام ١٨٩٧م، شحنت ١٦٠ مليار قدم لوحى من خشب الصنوبر الأبيض، تاركة أقل من ٦ مليار ماتزال قائمة على الأرض. وشهدت ولاية بعد أخرى عملية مشابهة لإزالة الغابات.

لكن ألواح الخشب المنشور لم تكن الاستخدام الوحيد للخشب الذى تقطعه صناعة الأخشاب فى تلك السنوات. ظل الخشب هو الوقود الرئيسى فى الولايات المتحدة الغنية بالغابات لفترة طويلة بعد أن حل الفحم محله فى أوروبا الفقيرة من الغابات. لقد أدى تنامى عدد المراكب البخارية، وبعد عام ١٨٣٠م، قاطرات السكك الحديدية إلى زيادة الطلب على خشب الوقود على نحو عظيم. لقد صممت المدخنة العالية التى انفردت بها القاطرات الأمريكية فى ذلك الوقت، والتى كانت على هيئة مخروط مقلوب، صممت للتعامل مع كمية أكبر من الجمر المشتعل من الخشب المحترق فى خزانة الاحتراق.

كان إنتاج خشب الوقود (أو الحطب) له أثر أكبر بكثير على الأرض من الأشجار المقطوعة لتستخدم كألواح خشبية منشورة. يعد الأخير مسئولاً عن قطع نحو خمس وعشرين ألف ميل مربع، بينما أزال قاطعو الأشجار بغرض استخدامها كوقود مائتى ألف ميل مربع كاملة ما بين عامى ١٨١١ و١٨٦٧، وهو ما يكفى لصنع خمسة مليارات من كورد[1] الحطب. (لإعطاء فكرة عن كم تبلغ هذه الكمية، فلنتخيل أن الخمسة مليارات كورد مكدسة فى شكل أحزمة، فإنها ستغطى ولاية كونيكتيكت بارتفاع أربعة أقدام).

غنى عن البيان أن نذكر الأثر المهول لهذه الإزالة الملحمية للغابات على النظام البيئى الطبيعى. لكن الإنتاج الزراعى ارتفع ارتفاعًا هائلاً مع تحول الغابات إلى حقول. ولم ير معظم الناس فى تلك الفترة شيئًا خاطئًا البتة فى هذا التحول. كتب زائر لجنوب ولاية أوهايو فى عام ١٨٢٣، بعد أن أصبحت ولاية بعشرين سنة فقط «لم أر قط مشهدًا بهذه الروعة أكثر مما نظرت إلى هذا الحقل. ثلاثمائة فدان من الذرة المتموجة. .

(١) كورد: مقياس للحطب يساوى ١٢٨ قدما مكعبا.

وهؤلاء الرجال الخمسة عشر أو العشرون المتناثرون عليها ـ كلهم يعملون. كان من الإثارة المزدوجة أن يأتى هذا، مثلما هو حادث، من غابة طبيعية، لا ينقطع المشهد إلا عند أكواخ موزعة وبقع صغيرة من الأرض التى أزال المستوطنون الأوائل الغابات منها».

بالفعل حسب معظم الناس حينئذ أن هذا التغيير فى المشهد الطبيعى جعلته التوراة قدرا، لأن سفر التكوين أمر البشر بأن يملئوا «الأرض ويخضعوها». باستثناء أصوات قليلة وحيدة مثل جورج بركنز مارش، الذى نشر مؤلفه «الإنسان والطبيعة» فى عام ١٨٦٤م، وإقامة متنزهات حضرية ضخمة فى المدن المتوسعة بسرعة، لم تكن ما نسميه اليوم بالحركة البيئية قائمة.

وقد حفز إنتاج الذرة المتنامى فى أوهايو صناعة تعبئة اللحوم التى تركزت فى سينسيناتى حتى فاقتها شيكاجو فى عام ١٨٦٠م. فى عام ١٨٣٣م، عالجت سينسيناتى لحم خمسة وثمانين ألف خنزير. ووصل الأمر بعد خمسين عامًا إلى معالجة لحم خمسمائة ألف خنزير. لا يوجد مثيل لنمو الإنتاج الزراعى الأمريكى فى الحقبة السابقة على الحرب الأهلية طوال التاريخ الاقتصادى العالمى. وفى الوقت الذى لا تتوافر فيه الإحصاءات إلا بدءًا من عام ١٨٣٩م فصاعدًا، فقد بلغ إنتاج الذرة فى ذلك العام ٣٧٨ مليون بوشل[1] ليصل إلى ٨٣٩ مليون بوشل بعد عشرين عامًا تالية. وبلغ القمح ٨٥ مليون بوشل، ووصل إلى ١٧٣ مليون بوشل.

لكن مع الاتساع السريع لإنتاجية الأراضى الزراعية فى البلد، لم تتحسن العناية الأمريكية بالأرض منذ مقاييس العصر الاستعمارى. ولقد تراجعت بالفعل. وفى الفترة الأولى، عندما كان عدد السكان مايزال جد منخفض، كانت أفضل الأراضى هى التى تزال أشجارها وتترك المنحدرات والأراضى الرطبة وشأنها. شكلت التعرية وإنهاك الأراضى مشكلة فقط فى الجنوب، حيث يهيمن محصول واحد على منطقة ما. وفكر پاتريك هنرى فى وقت مبكر، ثمانينيات القرن الثامن عشر، فى أن «أعظم الناس وطنية هو ذلك الذى يملأ أكبر عدد من الأخاديد».

(١) البوشل: مكيال للحبوب، يسارى ثمانى جالونات.

لكن لأن المعروض من الأرض بدا وكأن لا نهاية له، فكانت القيمة الموضوعة على كل وحدة صغيرة. ويعد هذا من التفكير المعقول، على الأقل على المدى القصير. (وكما لاحظ لورد كينز، أننا على المدى الطويل سنكون جميعًا من الأموات). إن المرء يعتنى بما هو نادر، بينما يستخدم أو يسئ استخدام ما هو متوفر فى استباحة. كانت رعاية الأرض ضرورة لا فكاك منها بالنسبة لأوروبا، حيث لا يوجد سبيل للحصول على المزيد. لكن فى أمريكا، تعد الأرض الجديدة البكر تقريبًا مجانية لأخذها بعد الصف التالى من التلال أو وادى النهر، يستطيع المستوطنون دوما أن ينتقلوا من المكان. ظلوا على مدى ثلاثة قرون يفعلون هذا السلوك، وبسرعة متصاعدة.

لكن العمالة، التى كانت نادرة وغالية فى عصر ما قبل الحرب الأهلية، اعتبرت موردًا يحافظ عليه ويقدر. واستحدثت العقلية الأمريكية الابتكارية الكثير من الوسائل لجعل الزراعة الأمريكية أكثر إنتاجية. لم يختلف المحراث المستخدم فى العصر الاستعمارى عن ذلك المستخدم فى العصور الوسطى فى أوروبا، والمصنوع من الخشب. كانت هذه المحاريث تعمل بكفاءة فى التربة الخفيفة فى شرق الولايات المتحدة، لكن بلا فائدة فى التعامل مع التربة الغنية الثقيلة فى منطقة وسط الغرب النامى.

درس توماس جيفرسون المحراث وحاول ابتكار محراث أفضل. فى عام ١٧٩٧م، شرع تشارلز نيوبولد فى تصنيع محاريث من الحديد المصبوب، وفى عام ١٨١٤ م صمم جيثرو وود محراثًا تتفكك أجزاؤه فيسهل إصلاحه. لكن حتى المحاريث الحديدية لم تجد فتيلاً فى منطقة وسط الغرب، لأن التربة ما كانت لتنقلب لكن بدلاً من هذا تسقط للخلَف فى نفس مكانها بمجرد مرور المحراث بعيدًا عنها.

كان هناك حداد اسمه جون دير، من ولاية فيرمونت، انضم إلى شتات نيو إنجلند واستقر فى بلدة ذات اسم غريب وهو جراند ديتور فى ولاية إيلينوى. وانخرط هناك فى إصلاح محاريث المزارعين المكسورة، إلى جانب تجريب تصميمات جديدة. فى عام ١٨٣٧م، صنع محراثًا يستخدم نصل منشار دائرى فولاذى، وأدى وظيفته بشكل رائع فى أقسى أنواع التربة فى منطقة وسط الغرب، حيث كان يقطع بنظافة ولم «يقلب بسرعة». وعلى الفور، اتجه دير إلى التصنيع التجارى، فافتتح مصنعًا فى مولاين فى

إيلينوى، لإنتاج المحاريث الجديدة التى سرعان ما انتشرت فى جميع أنحاء الحزام الزراعى المتنامى. وظل شعار الشركة التى أسسها « لقد أعطى العالم المحراث الفولاذى»، مستخدمًا لوقت متأخر حتى أواخر منتصف القرن العشرين، بعد اختفاء المحراث الأحادى الذى يجره الجواد بوقت طويل من المزرعة الأمريكية.

لكن لم يعد أحد تشكيل الزراعة الأمريكية مثل سايروس ماكورميك. لم تكن براعة اليانكى حكرًا على منطقة نيو إنجلند، فكان ماكورميك من ولاية ڤيرجينيا وتحديدًا من مقاطعة روكبريدج فى وادى شناندو، ساند الجنوب ودافع عن العبودية حتى انتهاء الحرب الأهلية. وكان أبو ماكورميك مثل أب إيلى ويتنى، مزارعا وميكانيكيًا، يصنع ويصلح معدات المزارعين الآخرين. وكان ماكورميك، مثل ويتنى، يهوى منذ نعومة أظفاره محاولة إصلاح الآلات بدون سابق خبرة. بدأ ماكورميك، وهو يعمل فى مزرعة والده التى تبلغ مساحتها ألفًا ومائتى فدان، فى التفكير فى كيفية حصد القمح. يعد حصد القمح عاملاً مقيدًا منذ بدأ انتاجه. وتوجد فترة محددة بشكل صارم بعد نضج القمح يمكن خلالها حصده بنجاح. ولا يستطيع رجل واحد باستخدام المنجل الكبير ذى اليدين والقضبان الشبيهة بالأصابع المثبتة به إلا أن يحصد حوالى فدان فى اليوم. ومن هذا يتضح عدم جدوى زراعة قمح أكثر من العمالة المتوفرة لحصاده.

وقسم ماكورميك عملية حصاد القمح إلى مكونات منفصلة، ثم ابتكر الوسائل الميكانيكية لإنجاز كلٍّ منها، ثم صمم آلة تنجزها كلها. وعندما بلغ الحادية والعشرين، كان لديه نموذج أولى من آلة حصاد ميكانيكية، تمدها بالطاقة عجلة، تسمى عجلة الدفع أو عجلة الساقية التى يربط فيها الثور، والتى تدور مع ملامستها الأرض إثر تحرك الآلة الموضوعة خلف جواد. كان المزارعون، للتخفيف من وقع الموقف، متشككين فى البداية. لم يبع ماكورميك آلة واحدة طيلة عشر سنوات، وفى عام ١٨٤٢م، باع سبعة فقط. لكن عندما ألغت بريطانيا العظمى «قوانين الذرة» التى كانت تحمى بموجبها المزارعين البريطانيين من المنافسة الدولية، بعد الإخفاق الذى حدث فى الحصاد البريطانى فى عام ١٨٤٥، نما الطلب على القمح الأمريكى بسرعة. وانتهز ماكورميك الفرصة.

بنى مصنعًا فى شيكاجو، التى لم يزد عمرها حينئذ عن عشرين عامًا كمدينة، وبدأ فى إنتاج آلات الحصاد بالجملة. وفى خلال خمس سنوات باع خمسة آلاف آلة.

وبحلول عام ١٨٦٠م، صار سايروس ماكورميك رجلاً ثريًا جدًا، وذكر فى تعداد ذلك العام أنه يمتلك أصولاً شخصية تبلغ قيمتها ٢٧٨ ألف دولار، وعقارات قيمتها ١,٧٥ مليون دولار.

وصار بوسع رجل واحد يستخدم آلة ماكورميك للحصاد أن يحصد ثمانية أفدنة فى اليوم، ليس فدانًا واحدًا، وأمكن لمنطقة وسط الغرب الأمريكى أن تكون سلة الخبز للعالم. وفى عام ١٨٣٩م شحنت ثمانين بوشل فقط من القمح من مدينة شيكاجو الوليدة. وبعد عشر سنوات شحنت شيكاجو مليونى بوشل.

لم توسع آلة ماكورميك للحصاد من الحجم المرتقب للحبوب الأمريكية على نحو عظيم فحسب، إنما غيرت كيفية حصول الأمريكيين على أقواتهم. فتقديم آلة الحصاد وما تلاها من استعراض لا ينتهى من الآلات الزراعية الميكانيكية، تضاءلت بانتظام نسبة العمال الأمريكيين المنخرطين فى الزراعة حتى مع تنامى الناتج الزراعى. وبالتالى فقد ساعدت آلة حصاد بشكل حاسم فى توفير العمالة اللازمة فى التوسع الكبير الذى طرأ على الصناعة الأمريكية فى أعقاب الحرب الأهلية.

فى عام ١٨٥١م استعرض ماكورميك آلته للحصاد فى المعرض العظيم فى لندن، وهو أول معرض عالمى وواحد من اللحظات المميزة للقرن التاسع عشر. وفى البداية ملأت الشكوك النفوس. ووصفت صحيفة «التايمز» اللندنية، وهى مملوءة بالعداء النمطى لكل ما هو أجنبى، آلة ماكورميك بأنها «خليط من ماكينة طائرة وعربة يد ذات عجلة واحدة والعربة التى تجرها الخيول. . . . ابتكار أمريكى باهظ التكلفة، ضخم وصعب الاستعمال لجسامته وقبيح المنظر وغير مفهوم».

إلا أنه بعد استعراض الآلة فى حقل قمح إنجليزى غيرت «التايمز» فكرها تمامًا. كتبت فى يوم ٩ يونيو ١٨٥١م «إن آلة الحصاد التى جاءت من الولايات المتحدة هى أثمن إسهام من الخارج لما هو معروض حسب علمنا السابق. . . . إنها تستحق تكلفة المعرض بأكمله».

وأبهرت اختراعات ميكانيكية أمريكية أخرى الجماهير فى القصر البلورى خلال هذا الصيف أيضا. وحصل الأمريكيون على جوائز فى المحاريث ومسدس كولت ومنتجات جودييز للمطاط وآلة إلياس هاو للخياطة.

وعندما أعاد آيزاك سنجر تصميم آلة الخياطة ليجعل الاعتماد أكبر وأكثر تنوعًا، كان ذلك من حسن حظ ربات البيوت، وقلل بصورة هائلة من تكلفة الملابس الجاهزة. كان يتطلب خياطة قميص باليد أكثر من أربعة عشر ساعة. وأصبح بإمكان الخياطة التى تستخدم الآلة الجديدة أن تحيك قميصًا فيما يزيد عن الساعة بقليل.

وخشى الكثير من عمال الملابس (كان يوجد أكثر من خمسة آلاف عامل فى مدينة نيويورك وحدها فى عام ١٨٥٣م) أن تقوض آلة الخياطة سبل رزقهم، لكن العكس تمامًا هو ما حدث. فمع انخفاض سعر الملابس الجاهزة بفضل آلة الخياطة، عوض زيادة الطلب عليها هبوط أسعارها. ولهذا السبب، فقد أثرت عملية التصنيع على نحو عظيم، ولم تفقر، عمال العالم، على الأقل على المدى الطويل. وعلى المدى القصير، تدمر التكنولوچيا الجديدة بالطبع سوق المهارات القديمة فى بعض الأحيان، عندئذ يمكن أن يكون الألم الاقتصادى بشعًا بالنسبة لطبقات كاملة من العمال. وتجسد أغنية «جون هنرى كان رجلاً يثنى الصلب»[1] الفولكلورية الأمريكية التى يعود تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر، بالضبط هذه المشكلة بعد أن صاغها الفن.

فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ابتكر هذا البلد صناعة كبرى أخرى أصبحت تجارة فى أنحاء العالم تقريبًا. وظلت محتفظة بما يشبه الاحتكار لها لعقود قبل أن تتولى التكنولوچيا الأمر: تجارة الثلج.

كان الثلج مجانًا لمن يريد أن يأخذه أثناء جزء من السنة فى نيو إنجلند، بينما يعد سلعة غالية فى جزء آخر من السنة وفى مناطق أخرى أدفأ من العالم. كانت عبقرية فرديريك تيودور الذى رأى فرصة لكسب المال عن طريق جلب المعروض الهائل من الثلج فى وقت فصل الشتاء فى نيو إنجلند للطلب الذى لا نهاية له فى فصل الصيف والمناطق المدارية.

(١) جون هنرى: من الأغانى الفولكلورية الأمريكية التى جعلت بطلها جون هنرى، الذى كان فى الأغلب الأعم من السود، بطلاً ذا قوة خرافية ويعمل فى مجال السكك الحديدية. ولكن عندما فصله صاحب العمل هو وزملاءه بعد أن اشترى مطرقة تعمل بالبخار تحدى مخترع المطرقة فى أنه سيفوقها قوة. وبالفعل يتغلب عليها، ولكنه يصاب بأزمة قلبية ويموت. وفى روايات أخرى: يلقى حتفه عندما ينفجر شريان فى مخه.

كانت توجد تجارة ثلج من نوع ما فى روما القديمة عندما كان يجلب الثلج فى سلال من جبال آبينينيس العالية إلى طاولات كبار الأثرياء. واحتفظ مزارعو نيو إنجلند ببيوت الثلج المحفور لها تحت الأرض، والتى كانوا يخزنون فيها الثلج المجلوب من البحيرات خلال الشتاء ويعزلونها بالقش ليستخدموها فى الصيف فى الاحتفاظ بالأغذية القابلة للعطب، مثل اللبن، باردة. وفكر تيودور فى أنه يستطيع كسب المال عن طريق الإتيان بهذا الثلج لأجزاء من العالم لم ير فيها الثلج قط. كان الشخص الوحيد الذى فكر على هذا النحو.

فى ١٣ فبراير ١٨٠٦م أبحرت سفينة استأجرها تيودور اسمها «فيقوريت» من ميناء بوسطن، وذكرت صحيفة «بوسطن جازيت» « ليس الأمر نكتة. غادرت سفينة تحمل شحنة يبلغ وزنها ٨٠ طنًا من الثلج متجهة إلى جزر المارتينيك. نأمل ألا يثبت أنها نوع من المضاربة المراوغة».

لسوء حظ تيودور، ثبت أنها كانت كذلك بالضبط. لم يكن هناك بيوت للثلج فى المارتينيك لتخزين ما تبقى من الثلج بعد الرحلة، ولم يكن تيودور قد تعلم بعد كيف يعزل الثلج على نحو فعال على متن السفينة. ولم يدر أيضًا سكان المارتينيك، الذين أمضوا حياتهم بدون ثلج لمدة تقارب القرنين، بالضبط ما الذى سيفعلونه به، فتعاملوا معه على أنه أعجوبة للمشاهدة فحسب.

وطوال العقود الثلاثة التالية، كافح تيودور ليتعلم منحنى تجارة الثلج، فأنشأ بيوت الثلج فى الأسواق المحتملة، وأتقن العزل وعلم زبائنه المرتقبين. وفى الوقت نفسه، كان حصد الثلج من بحيرات وأنهار نيو إنجلند قد أصبح عملاً روتينيًا، باستخدام أدوات خاصة لقطع ونقل الثلج لبيوت ثلج أكبر بكثير على الساحل.

وكنموذج مثالى للتلازم الاقتصادى، اتضح أن أفضل مادة عزل للثلج ما اعتبر أنه دوما مشكلة، وهو هالك صناعة الألواح الخشبية المنشورة أى نشارة الخشب. وكان يلقى بها فيما سبق فى أقرب مجرى مائى ليحمله التيار بعيدًا (والذى عادة ما تسبب فى حدوث انسدادات وفيضانات)، الآن أصبح الكورد يباع لصناعة الثلج بـ ٢,٥ دولار.

وبحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر، صار الثلج سلعة تصدير أمريكية مربحة جدًا. فى عام ١٨٣٣ كان الثلج الأمريكى يصدر إلى مناطق بعيدة مثل كلكتا، حيث وصلت السفينة «توسكانى»، التى غادرت بوسطن فى ١٢ مايو، إلى مصب نهر الجانج فى ٥ سبتمبر. وتقع كلكتا، التى تعد واحدة من أكثر بقاع الأرض حرارة ورطوبة، وكانت فى ذلك الوقت عاصمة بريطانيا الهندية، على بعد تسعين ميلاً أعلى نهرهوفلى، وانتظر سكانها الثلج بفارغ الصبر. وطالبت صحيفة «إنديا جازيت» بألا تدفع رسومًا جمركية على دخول الثلج ويسمح بإفراغ الثلج فى المساء البارد. ووافقت السلطات على الفور على هذه المطالب. وتمكن فرديريك تيودور من جلب مائة طن من الثلج إلى كلكتا، واشتراه البريطانيون بكامله وهم ممتنون، فحصل المستثمرون الأمريكيون على ربح بلغ ١٠ آلاف دولار.

وبحلول خمسينيات القرن التاسع عشر، كان الثلج الأمريكى يصدر بانتظام إلى كل موانىء المناطق المدارية فى العالم، ومن بينها ريو دى جانيرو وبومباى ومدراس وهونج كونج وباتافيا (جاكرتا الآن). فى عام ١٨٤٧ حملت خمس وتسعون سفينة شحنات بلغ وزنها نحو ثلاثة وعشرين ألف طن من الثلج من بوسطن لموانىء أجنبية، بينما شحن ما لايقل عن اثنين وخمسين ألف طن إلى موانىء أمريكا الجنوبية.

وبدأت المدن الأخرى التى يسهل حصدها للثلج فى تجارة بيع الثلج. وبنى على ضفاف نهر هدسون ١٣٥ بيتًا من بيوت الثلج يستطيع كلٌّ منها تخزين الآلاف من أطنان الثلج. وصارت صناديق الثلج جزءًا من معدات منازل الطبقات المتوسطة والعليا فى أربعينيات القرن التاسع عشر، وكذلك شحنة الثلج اليومية التى تُوَصَّل إلى تلك المنازل. ودخلت عربة الثلج ورجل الثلج فى الفولكلور الأمريكى والأسطورة، ووصلت حالة الغرام الأمريكى بالمشروبات المثلجة والحلوى المجمدة (وهى ما تزال أمرًا أمريكيًا متفردًا بالنسبة لمعظم الأوروبيين، بخاصة البريطانيين) بالفعل إلى ذروتها.

وبحلول عام ١٨٨٠م، قدر حجم تجارة الثلج بثمانية أطنان سنويًا، وكانت فصول الشتاء المعتدلة بعض الشىء تدفع الصحف إلى إصدار تحذيرات من قرب وقوع «مجاعة ثلجية» فى الصيف التالى وترفع بسرعة الأسعار. وأنهى التبريد المكيانيكى التجارة مع

المدن الأجنبية الأكثر بعداً فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، عندما عجزت هذه التجارة عن المنافسة مع الثلج المصنع محليًا. لكن التجارة المحلية توسعت حتى منتصف القرن العشرين، عندما حلت الثلاجة المنزلية محل رجل الثلج.

أخذ الكساد العميق الذى بدأ فى عام ١٨٣٧ ينقشع فى منتصف أربعينيات القرن التاسع عشر. بلغت عائدات الحكومة الفيدرالية فى عام ١٨٤٣ معدلاً بائسًا وهو ٣,٨ مليون دولار، لتكون الأكثر ضآلة منذ عقود. لكن فى العام التالى قفزت إلى ٢٩ مليون دولار. وحفزت الحرب المكسيكية، التى نشبت فى عام ١٨٤٦، الاقتصاد بقوة كدأب الحروب دائمًا، وعاد الازدهار. وأضافت الحرب المكسيكية أيضًا أراضى شاسعة جديدة إلى الولايات المتحدة عندما تخلت المكسيك عن كل مطالب فى تكساس شمال نهر ريو جراند. وإلى جانب ذلك، تنازلت عما يقرب من مليون ميل مربع مما يعرف الآن باسم أريزونا ويوتاه ونيڤادا وكاليفورنيا وأجزاء من كولورادو ووايومنج ونيومكسيكو فى مطلع عام ١٨٤٨ فى مقابل ١٥ مليون دولار وتولى الولايات المتحدة سداد الديون المدينة بها حكومة المكسيك إلى المواطنين الأمريكيين.

وفى تلك السنة اتفقت الولايات المتحدة مع الحكومة البريطانية سلميًا على تقسيم أراضى أوريجون بمحاذاة خط عرض تسعة وأربعين. وصار للولايات المتحدة شريط ساحلى على المحيط الهادى يقارب شريطها على المحيط الأطلنطى. لكن معظم الأراضى الواقعة غرب ولاية تكساس والولايات التى تحد نهر الميسيسيپى لم يستوطن فيها أحد، وكانت مجهولة إلى حد كبير.

وحتى قبل إجراء المفاوضات الخاصة بالاتفاقية التى أنهت الحرب المكسيكية، وقع حدث سيؤثر بعمق فى الولايات المتحدة فى الأرض التى كانت ما تزال مكسيكية: اكتشاف الذهب فى ساتر ميل فى كاليفورنيا.

فى ٢٤ يناير ١٨٤٨ جاء رجل يدعى جيمس مارشال ليفحص قناة الطاحون الخاصة بمصنع نشر الخشب الذى انتهى من بنائه مخدومه، جون ساتر، توًا عند النهر الأمريكى، ليس بعيدًا عما يعرف الآن بمدينة ساكرامنتو. وكان قد فتح المياه إلى داخل قناة الطاحون فى الليلة السابقة لينظفها من الشوائب العالقة بها، والآن لمحت عينه شيئًا

«فى نصف حجم حبة البازلاء». وقال وهو يذكر الأمر فى وقت لاحق «جعلت قلبى يخفق بشدة، لأننى كنت متأكداً من أنه ذهب». التفت إلى عماله وقال: «أيها الصبية، وحق الرب، أحسب أننى عثرت على منجم ذهب».

إن اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا لم يكن الأول من نوعه فى الولايات المتحدة. فقد عثر صبى يدعى كونراد ريد على كتلة ذهبية ضخمة (بلغ وزنها سبعة عشر رطلاً) فى مجر مائى داخل مزرعة والده فى مقاطعة كاباروس فى ولاية كارولاينا الشمالية فى عام ١٧٩٩م. مع ذيوع الخبر، أخذ الآخرون فى البحث فى المجارى المائية والحفر للعثور عليه. وأنتجت كارولاينا الشمالية ما يكفى من الذهب فى العقود التالية بحيث صكت أول عملات ذهبية هناك فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، فى دار صك خاصة أقامها كريستوفر بيشتلر، وهو مهاجر ألمانى، فى مقاطعة رذرفورد. (يحظر الدستور على الولايات أن تصك النقود، لكنه لا يحظر الأمر على الأفراد، بالرغم من أن العملات المعدنية تكون بالطبع غير مشروعة قانونيًا. إن عملات بيشتلر المعدنية، التى صكت فى فئات دولار ودولارين ونصف الدولار وخمس دولارات صنعت بإتقان وأمانة وأثبتت شعبية كبيرة ضمن اقتصاد الجنوب المتعطش للنقود الصعبة فى مرحلة ما بعد الحرب الأهلية).

لكن اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا كان من حجم مختلف تمامًا بالنسبة إلى الحجم الذى عثر عليه فى كارولاينا الشمالية. فى عام ١٨٤٧م أنتجت الولايات المتحدة ٤٣ ألف أوقية ذهبية، يعد معظمها كمنتج ثانوى للتنقيب عن معدن خسيس. وفى عام ١٨٤٨م أنتجت أكثر من عشر أمثال هذه الكمية، بفضل كالفورنيا، وفى عام ١٨٤٩م، مع ذيوع الخبر حول العالم، أنتجت ١,٩٣٥,٠٠٠ أوقية. وفى عام ١٨٥٣ قذفت كاليفورنيا بأكثر من ٣ ملايين أوقية، تبلغ قيمتها ٦٥ مليون دولار، أى أكثر من إجمالى العائدات الفيدرالية بأربعة ملايين دولار فى تلك السنة.

إن الذهب مادة غريبة. أولاً إنه ذو وزن ثقيل للغاية. ووفقا للتعريفات المعتمدة، يبلغ وزن السنتيمتر المكعب من الماء جرامًا واحدًا. وبالتالى، فإن وزن القدم المكعب من الماء ٦٢,٤٣ رطلاً. ويبلغ وزن القدم المكعب من الجرانيت ١٧٠ رطلاً. ويزن القدم المكعب من الذهب أكثر من ١٢٠٠ رطل. ثانيًا، لا يتحد الذهب بوصفه عنصراً

خاملاً مع العناصر الأخرى (فلهذا السبب لا ينطفأ بريقه). وبالتالى، فإن الذهب يعثر عليه عادة فى حالة نقية، فى بعض الأحيان فى شكل رقائق صغيرة جدًا أو تراب، وعادة مايكون مطمورًا فى الأحجار مثل الكوارتز، وفى أحيان أخرى فى شكل كتل ضخمة من الذهب النقى.

وعندما تتآكل الكتل والرقائق الصغيرة جدًا وتراب الذهب من جوانب التلال يجرفها مجرى الماء، لكن لأن الذهب ثقيل جدًا، فإن هذا المعدن يميل إلى أن يستقر حالما تبطؤ حركة التيار، مثلما الحال فى دوامة مائية أو داخل منحنى فى مجر مائى، ويتركز الذهب هناك.

وبالتالى فإن الذهب، خلافا لكافة المعادن تقريبًا، يمكن عادة استخراجه باستثمار رأسمالى صغير جدًا. وفى الأيام الأولى لاكتشاف الذهب، يحتاج عادة عمال التنقيب إلى حفنة أدوات ومصفاة واستعداد لبذل الجهد الشاق. وفى عام ١٨٤٨ لم يكن هناك نقص فى الرجال الذين لايعوزهم استعداد لهجر عملهم المنتظم ـ لكنه بطىء المردود ـ كمزارعين ومعلمين وموظفى بنوك، وأبناء ألف مهنة أخرى سعيا للثراء فى مناجم الذهب فى كاليفورنيا.

وكانت النتيجة واحدة من أكثر الهجرات إدهاشًا فى القرن التاسع عشر أو بالفعل فى أى قرن آخر. ومع ذيوع الخبر (محاولة جيمس مارشال وجون ساتر لجعل الأمر سرًا باءت بفشل ذريع بالطبع)، أفرغت بلدات بكاملها من سكانها مع اندفاع الرجال نحو مناجم الذهب.

ولقد أفرغت سان فرانسيسكو، وهى فى ذلك الوقت بلدة يقل عدد سكانها عن ألف شخص، من السكان وغص ميناؤها بالبضاعة التى تركها البحارة وذهبوا ليكدحوا من أجل الذهب. ومع ذيوع الخبر إلى مناطق أبعد، تأثرت هاواى وأوريجون وأمريكا الجنوبية وأستراليا والصين بنفس القدر، فتوجه الرجال بالآلاف إلى كاليفورنيا.

ومع هذا، استغرق الأمر وقتًا أطول لكى يصل النبأ إلى الساحل الشرقى، وبدأت تتواتر فى أواخر فصل الصيف الشائعات بوجود الذهب فى كاليفورنيا.

وصـدر فـى ٨ ديسمبر بيان رسمى. وبعث الرئيس الأمريكى جيمس ك. بوك إلى الكونجرس رسالة أبلغه فيها باكتشاف الذهب وألحق بها برهان مادى: كتلة تزن عشرين رطلاً. بلغت قيمة الكتلة نحو ٤٨٠٠ دولار فى الوقت الذى كان فيه سعر أوقية الذهب ٢٠,٦٦ دولار (النسبة الرسمية للدولار الأمريكى إلى الذهب منذ ١٨٣٧). فى عام ١٨٤٨م كان مبلغ ٤٨٠٠ دولار يكفى لعائلة كبيرة لتعيش فى بحبوحة الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة لمدة عام كامل أو يزيد.

ونتيجة لذلك، وقع شىء أشبه بالهيستيريا الجماعية. فى عام ١٨٤٩م انطلق حوالى تسعين ألف أمريكى قاصدين كاليفورنيا، وتبعهم ما يماثلهم كثرة فى عام ١٨٥٠م. ولا تقل هذه النسبة عن ١ ٪ من إجمالى عدد السكان. وليس من المدهش أن يكون معظمهم من الرجال. وعندما أصبحت كاليفورنيا ولاية، بعد أقل من ثلاث سنوات من اكتشاف الذهب، وصلت نسبة الذكور إلى ٩٢ ٪ من إجمالى السكان.

لم تكن رحلة سهلة. فى عام ١٨٤٩م كانت توجد ثلاث طرق للوصول إلى كاليفورنيا من شرق الولايات المتحدة. أولها الطريق البرى وهى رحلة عسيرة تستغرق ستة أشهر وتمر عبر أراض غير مستقرة وفى بعض الأحيان معادية. وثانيها العبور حول كيپ هورن[1] بالسفن، وهى رحلة تستغرق ستة أشهر. وتتسم هذه الرحلة بأنها عادة أكثر راحة لكنها أغلى. وثالثتها المرور عبر مضيق پنما، ويضطر الركاب حينئذ إلى قطع المسافة من المضيق الذى تبلله الأمطار وتتفشى فيه الحمى وصولاً إلى المحيط الهادى والانتظار هناك للحصول على وسيلة بحرية تتجه بهم شمالاً إلى كاليفورنيا، مثل المركب البخارى «كاليفورنيا» التى أرسلت للطواف حول كيپ هورن لهذا الغرض.

ومن الناحية النظرية يمكن للرحلة عبر مضيق پنما أن تستغرق سبعين يومًا، لكن الانتظار فى پنما قد يطول لمدة أسابيع. وجد أوجدن ميلز، الذى سيصنع ثروة فى مجال البنوك خلال حمى الاندفاع وراء الذهب، وجد ثلاثة آلاف شخص ينتظرون سفينة تحملهم إلى مناجم الذهب. وفى نهاية المطاف، ركب سفينة متجهة جنوبًا بحثًا

(١) كيب هورن: مضيق جنوب أمريكا الجنوبية

عن سفينة يؤجرها من هناك واضطر إلى الابتعاد حتى ميناء كالاو فى بيرو ليجد بغيته. وانتهت رحلته من نيويورك إلى كاليفورنيا بعد ستة أشهر أيضًا.

ومن الناحية السياسية، زحزح الاندفاع وراء الذهب مركز جاذبية البلد ناحية الغرب بشكل حاد. فى عام ١٨٥٠ صار التركز السكانى للولايات المتحدة ـ الذى كان فى شرق بالتيمور فى عام ١٧٩٠م ـ يقع بالقرب من باركرسبورج فى ولاية ڤيرجينيا (الآن ولاية وست ڤيرجينيا). لكن فى وقت مبكر عام ١٨٥١م، مع استمرار الحالة الوبائية لحمى الذهب، كتب جون ل. ب. سول فى «تير أوت اكسپريس» «اتجه غربًا أيها الشاب، اتجه غربًا!» وهى عبارة التقطها بسرعة هوراس جريلى[1] ونسبت إليه عادة فيما بعد.

صارت الاتصالات بين البلد وبين ولايتها الجديدة النائية، الواقعة على بعد أكثر من ألف ميل غرب أبعد النقاط غربًا فى تكساس، صارت همًّا أكبر. بدأ بناء سفن شراعية من نوع «كليپر»[2] والتى تعد فضيلتها الكبرى سرعتها (وتعد نقيصتها الكبرى افتقارها إلى مساحة للبضائع) فى أحواض السفن فى بوسطن ونيويورك بأعداد متزايدة لحمل الركاب إلى كاليفورنيا والإقلال من الزمن الذى تحتاجه الرحلة للالتفاف حول كيپ هورن. وقطعت السفينة «السحابة الطائرة»، وهى اسم على مسمى، الرحلة من نيويورك إلى سان فرانسيسكو فى تسعة وثمانين يومًا، أى نصف الوقت الذى تستغرقه السفن الشراعية العادية. فى عام ١٨٥٣م دشنت نحو ١٢٠ سفينة. لكن عندما بنى خط سكة حديدية عبر پنما، وأنشىء خط للمراكب البخارية يعتمد عليه فى الجزء الخاص بالمحيط الهادى من الرحلة، عجزت سفن الكليبر عن المنافسة، وتناقص سريعًا عدد السفن التى تبنى، وكانت آخر سفينة من هذه السفن شقت عباب البحر فى عام ١٨٥٩م.

وجرى مد طريق أمريكى خالص أيضًا. فى عام ١٨٥٣م اشترت الولايات المتحدة مساحة إضافية تبلغ تسعة وعشرين ألف ميل مربع من المكسيك يقع الآن فى جنوب ولاية أريزونا لأنه رأت أنه أفضل الطرق لخط سكة حديدية جنوبية فى ذلك الوقت. فى

(١) هوراس جريلى: (١٨١١ - ١٨٧٢) رئيس تحرير صحيفة «نيويورك تريبيون» أكثر الصحف نفوذًا خلال الفترة من ثلاثينيات القرن التاسع عشر وحتى سبعينيات القرن نفسه وأحد مؤسسى الحزب الجمهورى.

(٢) كليپر: سفن شراعية متعددة الصوارى، سريعة وصغيرة الحجم بمقاييس القرن التاسع عشر.

عام ١٨٦٠ قللت خدمة بريد «پونى اكسبريس» زمن الاتصال بكاليفورنيا إلى حوالى عشرة أيام، وفى عام ١٨٦١م أقيمت خطوط تلغراف قللت زمن الاتصال إلى دقائق.

إن تأثير اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا كان عظيمًا على الاقتصاد الأمريكى بنفس قدر عظمته على سياستها.

فى منتصف القرن التاسع عشر كان الذهب هو المال. وبعد نهاية حروب ناپوليون، وفى عام ١٨٢١م، اتجهت بريطانيا العظمى إلى قاعدة الذهب. ويعنى هذا أن بنك إنجلترا وقف متأهبًا لشراء أو بيع كميات غير محدودة من الجنيهات الإسترلينية فى مقابل الذهب بسعر صرف ٣ جنيهات إسترلينية و١٧ شلنًا و١٠ پنسات ونصف لكل أوقية. (حدد هذه النسبة منذ أكثر من قرن، من بين كل البشر، سير إسحاق نيوتن، الذى تمتع بوظيفة مدير هيئة السكة الملكية التى تدر ربحًا وفيرًا، لكنها ليست مظهرية).

لأن المملكة المتحدة هيمنت على اقتصاد العالم والتجارة العالمية فى القرن التاسع عشر، وبات بنك إنجلترا فعليًا البنك المركزى للعالم، سرعان ما ثبتت الأمم التجارية الرئيسية عملاتها بالقياس على الذهب. كانت التجارة العالمية تدار على أساس الذهب (أو الجنيه الإسترلينى). لكن فى الوقت الذى أدارت فيه الولايات المتحدة تجارتها خارجيًا بقاعدة الذهب، استمرت داخليًا فى فوضى نقدية بل وزادت. وفى خمسينيات القرن التاسع عشر كان يوجد أكثر من سبعة آلاف نوع من أوراق النقد الصالحة للتداول وأكثر من خمسة آلاف احتيالية أو مزيفة.

بحلول عام ١٨٦٠م كان يوجد أكثر من ألفى بنك يعملون فى الولايات المتحدة. كان بعضها ضخمًا ومحافظًا وسليمًا وتوجد مقاره فى المدن الشرقية الكبرى. لكن الأغلب الأعم يقع فى بلدات صغيرة، ويعتمد على الاقتصادات المحلية. إلا أنه كانت هناك بنوك أخرى عرفت باسم بنوك القطط البرية؛ لأن مقارها (أى الأماكن التى يمكن استرداد أوراقها النقدية فيها بمقابل ذهبى أو فضى) تقع «وسط القطط البرية» أينما وجدت، والتى يتعذر العثور عليها بشكل متعمد.

ومع تدفق ذهب كاليفورنيا فى الاقتصاد الأمريكى، ازداد المعروض من النقود بشكل لافت. ازداد سك الحكومة الفيدرالية للعملات الذهبية، مثلما زاد إصدار

الأوراق النقدية المبنية على احتياطات الذهب. ولأن البلد كانت بلا بنك مركزى، كان لا يوجد آلية لتنظيم المعروض من النقود أو استخدام سياسة نقدية للتحكم فيما يطلق عليه آلان جرينسپان[1] «فيض النشاط غير العقلانى». وكانت النتيجة انتعاشًا هائلاً ولكن غير مستديم.

كان هناك ما يزيد على ٩ آلاف ميلاً من قضبان السكك الحديدية فى الولايات المتحدة فى عام ١٨٥٠م، لكن بعد مضى عقد بلغ طولها ٣٠٦٢٦ ميلاً. قفز إنتاج الحديد عاليا من ٦٣ ألف طن فى عام ١٨٥٠ إلى ٨٨٣ ألف طن بعد ست سنوات فقط. وتزايد الاعتماد على عرق الحديد الآتى من سلسلة رواسب ماركيت للحديد فى شبه جزيرة آبر فى ولاية ميشيجان، وهى أول رواسب للحديد يعثر عليها حول بحيرة سوبيريور والتى سيثبت أنها الأضخم والأغنى فى العالم. وتضاعف إنتاج الفحم، الذى بدأ يحل محل الخشب كمصدر للوقود بالنسبة إلى وسائل النقل والصناعة الأمريكية خلال تلك السنوات.

كما يحدث دائمًا عند انتعاش الاقتصاد الأمريكى، انصب رأس المال من أوروپا لتمويل التنمية. وبلغت قيمة الأوراق المالية الأمريكية المملوكة فيما وراء البحار ١٩٣,٧ مليون دولار فى عام ١٨٤٧، وفى العقد التالى بلغت ٣٨٣,٣ مليون دولار.

وجرت المضاربة على الكثير من رأس المال الجديد هذا عبر وول ستريت، الذى وطد مكانته على أنه المركز المالى للبلد فى خمسينيات القرن التاسع عشر. وذكرت صحيفة «لويسڤيل كوريير»[2] «إن كل نبضة فى هذا العضو المالى العظيم يحس بها من مين حتى فلوريدا، ومن المحيط الأطلنطى حتى المحيط الهادى». واحتفظت البنوك ذات المقار خارج ولاية نيويورك على نحو متزايد بودائع ضخمة فى بنوك مدينة نيويورك لتيسير قضاء عملائها أعمالهم المالية، بعدما صارت المدينة مهيمنة على تجارة قطن الجنوب وتجارة قمح وسط الغرب مع أوروپا. وافتتح سبع وعشرون بنكًا فى نيويورك نفسها ما بين عامى ١٨٥١ و١٨٥٣ م.

(١) رئيس مجلس الاحتياطى الفيدرالى ـ يماثله فى مصر محافظ البنك المركزى ـ حتى عام ٢٠٠٦م.

(٢) لويسڤيل كوريير: أنشئت هذه الصحف من جماع صحف ظهرت فى ولاية كنتاكى فى القرن التاسع عشر، وهى أكبر صحيفة تصدر فى ولاية كنتاكى، وتحتل رقم ٤٨ فى قائمة أكبر الصحف داخل الولايات المتحدة

ومع اتساع الاقتصاد الأمريكى السريع فى بدايات عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كانت الأسهم الضعيفة أكثر وضوحًا فى سوق المال فى نيويورك. وافتتحت بورصات جديدة للتعامل فى أسهم عديمة القيمة يرفض مجلس نيويورك للأوراق المالية والبورصة أن يلمسها، وتساوى عدد الشركات التى تكونت فى خمسينيات القرن التاسع عشر مع إجمالى عدد الشركات التى تكونت خلال النصف الأول من هذا القرن بكامله. وبحلول ١٨٥٦ م كان يوجد ٣٦٠ سهمًا فى مجال السكك الحديدية و٩٨٥ سهمًا بنكيًا و٧٥ سهمًا فى مجال التأمينات يجرى التعامل فيها بانتظام فى وول ستريت، وارتفع متوسط حجم التعاملات مضروبًا فى عشرة.

ومع هذا، فبحلول عام ١٨٥٧م، أخذ الانتعاش الاقتصادى يفتر. وأضحى إنتاج كاليفورنيا من الذهب ثابتًا؛ وانتهت حرب القرم ومواسم الحصاد الفقيرة فى أوروبا، والتى حفزت الطلب على الصادرات الأمريكية. وازدحمت أرصفة ميناء نيويورك بالسفن التى لا تستطيع الحصول على شحنات بضائع. وظلت ستة آلاف محلج فى نيو إنجلند فى صيف ذلك العام ساكنة.

كتب جيمس جوردون بنيت فى صحيفة «الهيرالد» يوم ٢٧ يونيو فى ذلك العام «ماذا يمكن أن تكون نهاية كل هذا إلا انهيارًا عامًا مثل الذى حدث فى عام ١٨٣٧م، ولكن على نطاق أعظم فقط ؟ . . . نهب حكومى ومختلسون للأموال العامة وأوراق مالية وهمية من جميع الأوصاف . . . والملايين من الدولارات تصنع أو تقترض وتنفق على بيوت رائعة وأثاث فاخر ومئات الآلاف من المنافسات السخيفة بين محدثى النعمة المتأنقين فى الحرائر والدانتيلا والألماس وفى كل تنويعة من تباه أحمق باهظ الثمن ولا يعد ذلك سوى مجرد حفنة قليلة من الشرور الصارخة لهذا العصر».

ومع لملمة فصل الصيف لأوراقه، بدأت الأسعار فى وول ستريت تعكس وهن الاقتصاد القومى. وأخذت تنهار البنوك ومكاتب المضاربة الضعيفة. وعندما غرق المركب البخارى «سنترال أمريكا» بعيدًا عن سواحل كارولاينا الشمالية خلال إعصار عصف بها فى ١٢ سبتمبر وتوفى أربعمائة راكب كانوا على متنها غرقًا. كان ما يهم السوق أكثر حينئذ هو عرق ذهب جاء من كاليفورنيا قيمته ١,٦ مليون دولار كان على متن السفينة أيضًا، واجتاح الذعر وول ستريت. وسرعان ما انتقل إلى أوروبا فى أول

انهيار دولى للأسواق بحق، وهذا مؤشر مؤكد على الأهمية المتنامية للاقتصاد الأمريكى بالنسبة للعالم. ومع منتصف أكتوبر أوقفت معظم البنوك فى البلد التعامل بالدفع النقدى. وكان هذا مؤقتًا لحين بنائها لاحتياطياتها من الذهب والفضة وطالبت بسداد قروضها، واستأنفت الدفع بالذهب والفضة فى شهر ديسمبر، لكن الاقتصاد سينغرز فى وحل كساد جديد طيلة الأعوام الثلاث التالية. وانخفضت العائدات الفيدرالية بمقدار الثلث من ١٨٥٧ حتى ١٨٥٨م.

لقد أثبت الاقتصاد الأمريكى فى العقود الست الأولى بعد إقرار الدستورأنه واحدة من عجائب الدنيا. وزادت أراضى البلد بما يزيد على ثلاثة أمثال، وزاد عدد السكان بمقدار ثمانية أمثال. لكن حجم الاقتصاد اتسع بمقدار مضروب فى ثمانية عشر أو يزيد. وتوسعت سلسلة من الولايات الصغيرة، ذات الاقتصادات الزراعية، عبر نصف قارة. ونمت التصنيعات الأمريكية من شىء لا يذكر إلى واحد من أبرز التركزات الصناعية فى العالم. وأنشئت شبكتان للنقل والاتصالات هما الأكبر على وجه الأرض.

لكنه كان ما يزال اقتصاداً غير مكتمل. ففى الوقت الذى مدت فيه قضبان سكك حديدية فى الولايات المتحدة أكثر من أى بلد فى العالم بحلول عام ١٨٦٠، على سبيل المثال كانت ماتزال تستورد الكثير من قضبان السكك الحديدية وقاطراتها وعرباتها وخلافه من إنجلترا، مثلما كانت تفعل بالنسبة للصلب، وهو معدن صارت أهميته تتنامى.

وعلاوة على ذلك، أخذت القوى السياسية الإقليمية المحلية تتجاذب البلد بين حد فاصل شمالى وجنوبى على نحو متصاعد، بالرغم من وجود اقتصاد متكامل أكثر من ذى قبل. وكما اتضح فيما بعد، أنه استحال احتواء تلك القوى بنجاح بالوسائل السياسية، بالرغم من عقود من الجهد. إن ما أسماه سير ونستون تشرشل بأكثر الصراعات حتمية والذى حورب على الإطلاق بين الشعوب المتحدثة بالإنجليزية سيثبت أنه أكثر الأحداث ذات الشأن فى التاريخ الأمريكى.

ففى الوقت الذى خلقت فيه الثورة الاتحاد الأمريكى، ما كانت الأمة الأمريكية لتتشكل إلا على سندان الحرب الأهلية البشع.